مواويل الليلة الكبيرة



غالي شكري

رواية

دار الطليعة - بيروت

غالي شكري

مواويل الليلة الكبيرة

رواية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

إلى ابنتي ناهد . .

ــ الغلاف: كولاج ناهد غالي.
ــ الوجه، للفنانة هيلين بطلة «شمس الضباع».
ــ المحاكمة، في مصر السبعينات، قضية سياسية.

مواويل الليلة الكبيرة

رواية

بيروت ــ لبنان
ص. ب: ١١١٨١٣
تلفون: ٣١٤٦٥٩/٣٠٩٤٧٠

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٨٥

ملف سري للغاية

يسمونني حيناً بجاسوسة الدفاع وحيناً آخر بلصة المحاكم لأنني تخصصت منذ زمن طويل، حين كنت طالبة بكلية الحقوق في جامعة القاهرة،في سرقة كل ما يمكن أن تصل إليه يداي من أوراق وملفات القضايا القديمة والجديدة من أرشيفات ومخازن المحاكم.

وقد بدأت الحكاية للمرة الأولى حين قيل لنا أن نذهب في جولات حرة إلى المحاكم، لنشاهد عن كثب سير القضايا وخطبة الادعاء ومرافعة المحامين وأسئلة القضاة والشهود. وقد ملكت علي حواسي هذه الحياة الغريبة المركزة داخل أربعة جدران هي قاعة المحكمة. لن أتفلسف عليكم وأقول أنني رأيت في هذه القاعة مرآة للحياة أو المجتمع الذي أعيش فيه، فأغلب الظن أن القضايا التي لا تصل إلى باب المحكمة أكثر كثيراً مما يصل إليها. ولكن الذي شدني في الحقيقة هو «الأسرار» التي أطلع عليها، فقد كشفت لي أنني فضولية من الدرجة الأولى. لذلك وقعت المفارقة، أو المفاجأة كما دعاها أهلي.

فبينما كنت أروي لصديق أسرار إحدى القضايا وجدته يلتفت إلي بدهشة قائلاً: لماذا لا تشتغلين بالصحافة؟ بادلته الدهشة بذعر حقيقي وأنا أغمغم كأني أكلم نفسي: الصحافة؟ لم أفكر في ذلك أبداً. هل تريدني أن أنشر ما أعرفه من خبايا الناس على الملأ؟ سألني: ولم لا، ربما أصبحت صحفية مشهورة. وأخذني من يدي كأني وافقت إلى جريدة يعرف أحد البارزين فيها، وقال له: أقدم لك مندوبة رائعة في شؤون القضايا والمحاكم.

بيني وبينكم رأيت نفسي كما لو كنت في حلم، لأنني في صباي حاولت كتابة الشعر والقصة والمسرحية مرة واحدة، وفي الليل كنت أرى إسمي مطبوعاً تسبقه كلمة بقلم والدنيا كلها تتسابق إلى قراءتي. زمان كان هذا الكلام. وكدت أنساه تماماً في غمرة الحياة الشاقة، ولكني كلما مررت بإحدى دور الصحف، كنت أبتسم وأضبط قلبي يرجف. ترى ما هو هذا العالم المثير من المطابع والحبر والأخبار والنجوم؟ وسرعان ما كنت أكتم السؤال وأنا أبحث

عن الترام أو الأوتوبيس الذي أريده أن يوصلني إلى حيث أريد، إذا كان معي ثمن التذكرة. وهذه نقطة أخرى، فكم وددت أن أعمل لأساعد أسرتي، وكانت كل الطرق تسد في وجهي، لذلك حين دخلت على مكتب الرجل البارز في الجريدة التي صحبني إليها الصديق، اختلطت في داخلي أحلام مزدحمة، كأن أكون صحفية فعلاً وكأن أكون موظفة تحصل على مرتب شهري وأنا بعد طالبة في الجامعة. يا ساتر يا رب، هكذا دفعة واحدة. وهل هذا ممكن؟

قال الرجل البارز: فلنجربها.

ورأيت نفسي أمام التحدي وجهاً لوجه. لم يكن كافياً حضور الجلسات ولا حتى الاطلاع على مذكرات النيابة والدفاع. وجدتني أبحث بلهفة عن محاضر التحقيق. وفي هذه النقطة عرفت أنه لا بد لي من المرور على أقسام الشرطة، فالمحكمة هي المرحلة الأخيرة. ولكني أدركت بعد ذلك أن المحكمة كنز لا يفنى، لا بما يقال في قاعتها، بل بما لا يقال في مخازنها. وبسرعة أقمت الصداقات مع الحاجب والكاتب والمخزنجي. دخلت الأرشيف فإذا به تلال من الملفات المكدسة لقضايا مات أصحابها ولم يبت فيها بعد. ثم دخلت المخزن الذي لا يدخله أحد، فإذا بي أمام كارثة حقيقية: ألوف ألوف الدفاتر وملايين الأوراق المبعثرة.

عند هذه النقطة أحيطكم علمًا بأنني توقفت نهائياً عن دراسة القانون حين أخذت الصحافة كل وقتي تقريباً، ولم أشعر بالأسف على ذلك. كذلك أحيطكم علمًا بأنني في السنوات الأولى من عملي الصحفي نجحت نجاحاً واضحاً، حتى أن الصحف الأخرى كانت تتلقف أخباري الشخصية وما إذا كنت سأترك العمل في جريدتي لأي سبب فتصلني العروض المغرية سراً، لأنني كنت أحصل على ما لا يحصل عليه صحفي آخر من أسرار.

ولكني أحيطكم علمًا أخيراً بأن صحيفتي بدأت تشكو والصحف الأخرى لم تعد تتصل بي سراً لأنني أهملت «عملي» الطبيعي وهو الأخبار الطازجة. وأعترف لكم أنني شُغلت بأكوام القضايا وأكداس الملفات التي لم تعد تعني أحداً من الأحياء. بدأت أتقصى وأتابع بصبر عجيب قضايا الموتى أو قضايا صدرت فيها الأحكام، وأضحت قيد التنفيذ سواء بالإعدام أو المؤبد أو بالإيداع في مستشفى الأمراض العقلية.

وقد اشتُهِرْت زمناً بأنني جاسوسة الدفاع لأنني كنت فعلاً أسرق بعض محاضر التحقيق وأدفع بها إلى المحامين، كما أنني كنت لصة المحاكم لا بسبب سرقاتي من الأرشيف، بل لأن النيابة أحياناً كانت تطلب عقد الجلسات سرية خاصة في قضايا تهم الرأي العام، فأبذل جهدي لمعرفة ما دار في الجلسات وأذيعها على الرأي العام.

على أية حال، تلك أيام انتهت بخيرها وشرها، فقد فتر حماس الصحافة لي، وراحوا يطلقون علي من قبيل التشهير والتشنيع لقب المؤرخة التي سيأكلها سوس المخازن.

وما أبعدني عن التاريخ. لا أحبه من قريب ولا من بعيد، هو والجغرافيا أيضاً.

والذي حدث، هو أنني بعد أن انقطعت عن الكتابة للصحافة، رحت أتعزى بأبعد الأشياء عن التاريخ، وهو قراءة القصص والروايات ومشاهدة السينما والمسرح. يومياً كنت أشاهد فيلمًا ويومياً كنت أقرأ رواية أو بعض القصص القصيرة.

وفي السنوات الأخيرة لاحظت أن الأمور بدأت تتعقد، فالرواية التي كنت ألجأ إليها للسلوى كما يلجأ مدخن الحشيش إلى المخدر، أصبحت قراءتها شيئاً كالمعاناة العصبية. عالم من الرموز الصعبة والأساطير الغامضة والتركيبات اللغوية المعقدة. وقالوا لي أنها الرواية «الجديدة» أو الحديثة لا أذكر، وأنه قد انقضى إلى غير رجعة عهد الروايات المصنوعة على مقاس السهرة السينمائية أو التليفزيونية. وانتابني القرف من الرواية المخدرة والسأم من الرواية الجديدة... فماذا أفعل، وقد أدمنت القراءة؟

رحت أتسلى بعمل جنوني.

كنت أودع في مخبأ أمين ملفاً كتب عليه «سري للغاية» ليست عليه تأشيرة للحفظ ولا نطق بالحكم. أغرب ملف قابلني في حياتي كلصة محاكم، وقد كان مدفوناً في أحد الجدران بالدهليز المؤدي إلى الأرشيف على نحو لا يمكن لأحد اكتشافه، لولا خطأ الحاجب مرة حين أراد مغازلتي في ظلام الأروقة السفلى في الطابق الأرضي من المحكمة، وإذا بي أثناء مقاومتي يسقط علينا شيء ما من الجدار الخشبي الذي التصقت به. وقد هرول الحاجب مسرعاً إلى الخارج، بينما رحت أُلملم شعري بيد وأوراق الملف المبعثرة باليد الأخرى.

قلت لكم أنني رحت أتسلى بعمل جنوني. ولم يكن هذا العمل سوى ترتيب أوراق هذا الملف حسب التتابع الذي تصورت أنه الصحيح. والذي دلني على صحة هذا الترتيب هو التواريخ المذكورة على الأوراق، ولأن الأشخاص موضع المحاكمة أو الشهادة هم أشخاص حقيقيون واقعيون من لحم ودم، فلا هم شخصيات خيالية كما في روايات التخدير، ولا هم رموز وأساطير وطلاسم كما في روايات هذه الأيام، بحيث يصعب علي في كلتا الحالين ترتيب الصفحات.

على أية حال، رحت أتسلى بهذا العمل الجنوني لسبب لا يخطر ببالكم، وهو أن الوضوح الشديد في معرفة الأسماء والحوادث يقابله غموض أشد في توصيف الأشخاص من ناحية وفي نهاية القضية كما سبق أن أشرت من ناحية أخرى.

أكرر الاعتراف بأنني وجدت أوراق الملف مبعثرة، وبالتالي فأنا مسؤولة عن ترتيبها وما تصورته وفقاً لهذا الترتيب من توصيف عام لمراحل الملف، وهي ثلاث مراحل كما أعتقد: الأولى هي أوراق القضية التي تضم أقوال ثلاث شخصيات: عوضين، الجندي المصري الذي لم يعثر أحد على جثته، بل على أوراق يحكي فيها قصته أو موقفه من القضية حتى عام ١٩٧٧، حيث يبدو أنه قتل في الصحراء الغربية. وإسماعيل المهدوي، الكاتب المصري الأسير في مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية منذ عام ١٩٦٨ إلى اليوم. وجمال عبدالناصر الذي حكم مصر منذ عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٠، حيث مات فجأة في ظروف مريبة كما تؤكد مجموعة التقارير الطبية المرفقة بأقواله. ليست هناك علاقة شخصية تربط بين عوضين والمهدوي وعبدالناصر كما في الروايات المصنوعة والروايات الجديدة على السواء. ولكن عبدالناصر كحاكم لمصر طيلة ثمانية عشر عاماً كانت له علاقة ما بالجندي والكاتب، يمكن استشفافها والتعرف على أبعادها وتفاصيلها من كلام القاضي.

بالقاضي تبدأ المرحلة الثانية في ظني وقد دعوتها بالتحقيق. فرغم أن بلاغ عوضين وبلاغ المهدوي وبلاغ عبدالناصر لا يحسم لنا تماماً ما إذا كانوا متهمين أو ضحايا، ورغم أن الثلاثة غائبون حكمًا، فإن القاضي اعتمد البلاغات الثلاثة كمادة أولية للتحقيق ثم المحاكمة التي أراها المرحلة الثالثة. لم أجد مطلقاً في الملف خطاب الادعاء أو مرافعة المحامين. ولكني وجدت أوراق الشهود. وقد تعجبت كثيراً وما أزال إلى الآن بالغة الحيرة من هذه الصدفة الاستثنائية، وهي أن جميع الشهود موتى. وكلمة الشهود بالمناسبة التقطتها من عبارة للقاضي فهمت منها، كما ستلاحظون، من يعني بهذا التوصيف. ولكني لاحظت كذلك كما قد تلاحظون أن هذا التوصيف كالتوصيف السابق لأصحاب البلاغات، ربما لا يكون دقيقاً. بعض الشهود ضحايا وبعضهم الآخر يصلح للاتهام. ولكن اجتهادي في جميع الأحوال حيادي يعتمد أساساً على ما يكون مكتوباً أو أقرب إلى منطق القضية.

ويبدو لي أن الذي قدم أوراق عوضين إلى القاضي هو زوجته شلبية التي ذكرت الأوراق صراحة أنها الشخص الوحيد الجدير بتسلم الأوراق والاطلاع عليها. وقد أتيح لي أن أقابل شلبية على باب المحكمة ذات يوم، ولم أكن أعرفها ولا سمعت بها. ولكن اسمها اقترن بذاكرتي لأنها كانت سيدة غريبة لا قضية لها في المحكمة ولا قريب لها في قفص الاتهام، ولكنها لفتت نظري بحضورها المنتظم. ولأنها كانت تتابع القضايا مثلي بشغف، وتنظر في القفص بحنان مدهش وأحياناً تثير الانتباه بصمتها الحزين الدامع.

بعد أن تسليت بالعمل الجنوني في ترتيب الملف، قررت البحث عن شلبية. وبعد طول انقطاع توجهت إلى المحكمة. نقطة البداية الوحيدة الصحيحة. ترى هل تكون زوجة

عوضين، أم أنه مجرد تشابه في الأسماء؟ شلبية التي يحكي عنها عوضين فلاحة. والتي أعرفها ليست كذلك تماماً، وجه الفلاحة وأخلاقياتها، ولكنها سيدة متحضرة في ثيابها وسلوكها. طويلة القامة في كبرياء منكسر. لم أر شفتيها منفرجتين أبداً، ولكن «أحوال» ملامحها تستعصي على التصنيف، تكاد لفرط غموضها أن تكون حالة واحدة جمعت بين الحزن والغضب والصبر والتحفز، لم أفهم رداءها القاتم لا شكلاً ولا لوناً، ربما كان أسود أو أزرق غامقاً أو زيتياً أغمق، لا أدري. ربما أيضاً كان فستاناً أو تايير أو بلوزة أو قميصاً وبنطلوناً، لا أدري، فأحياناً يبدو لي الثوب قطعة واحدة، وأحياناً يخيل إلي أنه من قطعتين. حتى شعرها يبدو لي في لون الثوب الذي لا أعرفه، ربما كان أسود دون لمعان وسائباً دون نعومة. لا ترى في الوجه غالباً سوى العينين رغم أنهما لا يخصاننا بمغزى محدد، فلا بريق خاص ولا وهج محدد، ولكنهما مع بقية الملامح الحزينة الغاضبة الصابرة المتحفزة، ينجليان عن هذه المعاني كلها في بؤبؤين لا يتحركان كأنهما عينا تمثال. عندما كانت تذهب إلى المحكمة لم يكن أحد يشعر بأنها موجودة وعندما كانت تمضي لم يكن أحد يشعر بأنها غابت.

ويبدو أنها في مجيئها وذهابها لم تلفت الأنظار، ويبدو أنها كانت مرتاحة إلى ذلك تماماً، حتى أنني عندما التقيتها ذات يوم على باب المحكمة وتعمدت التحرش بها فقدمت لها نفسي وسألتها عن اسمها أجابتني باقتضاب: شلبية. واستدارت كأن أحداً اعتدى على سرها ومضت بخطى تكاد تكون عسكرية، حتى أنني شعرت بالذنب، ثم داخلني شك في الاسم الذي تلفظت به في ما يشبه الهمس والحسم. من أدراني أنه اسمها الحقيقي؟ ربما أرادت أن تشبع فضولي بطريقة ساخرة.

على أية حال ذهبت إلى المحكمة، فكان ذهابي حدثاً. كان يوماً عجيباً على كل المستويات. فوجىء بـي المحامون والمستشارون وممثلو الادعاء وحاجب المحكمة وكاتب النيابة. يخيل إلي أن الأبنية والمقاعد والجدران ذاتها قد فوجئت. وأحسست فجأة كما لو أنني انقطعت عن عالم أحبه، ربما أوحشني دون أن أحس ذلك.

والمثير في الأمر أن الجميع تصوروا أنني فاجأتهم لأشاهد المحاكمة السياسية التي أعلنت عنها الصحف، فقد نظر نحوي وكيل النيابة على عجل ولكن بغيظ غير مفهوم قائلاً بسرعة حتى لا ينتبه أحد: أريحي نفسك، فالجلسة ستكون سرية. أية جلسة؟ صحيح أنني تابعت أخبار الصحف ولكني لم أتذكر قط اليوم الذي سيحاكم فيه هؤلاء الذين دخلوا القفص تباعاً، وما ان اكتمل عددهم حتى راحوا يهتفون. وارتبكت المحكمة كلها ودمعت عيون كثيرة في القاعة. نساء وأطفال وشيوخ بعضهم راح يهتف أيضاً. بعض النسوة أخوات أو أمهات أو بنات المتهمين، رحن يفتحن أكياساً من الطعام يدفعن بها إلى أفواه أزواجهن

أو إخوتهن أو آبائهن. وبينما كان «المتهمون» جميعاً واقفين في قفص الاتهام يتكلمون أو يهتفون أو يصافحون الأهل والمحامين رأيت واحداً منهم جالساً يدخن زائغ العينين مبعثر الشعر والهندام. ورغم أنني كنت مشغولة بالبحث في كل الزوايا عن شلبية، إلا أنني شعرت بوحدة هذا الرجل، فلم يكن يصافح أو يهتف أو يتكلم، ولم يكن هناك أحد ـ كما بدا لي ـ مهتمًا به. كان هناك محام تكلم معه لحظات وانصرف إلى أشياء أخرى. تقدمت منه بدافع فضولي لا يقاوم. اختلجت عيناه برهة وتلعثم. قلت له إنني صحفية. قال لي إنه فنان. قلت له هنا أنت متهم. قال لي إنه فنان أينما كان في البيت أو في الزنزانة أو في الشارع أو وهو يضاجع امرأة. احمرت وجنتاي لا بد وهو يلفظ عبارته فقد شعرت بحرارة في أذني ووجهي. ولا شك أنني فوجئت بهذا الخجول وهو ينطق هذه العبارة. لم أسأله أي فن يمارس إذ لم يترك لي فرصة للكلام وأنا واقفة مبهورة بهذا الذي يقول لي من وراء القضبان إنه يعشق الفن والمرأة والحياة، وإن الفن كالجنس مقاومة للموت فهما وجها الحياة. كانت الضوضاء من حولنا تشكل حاجزاً يحول دون أن يسمعنا أحد. وبسرعة سرّب لي عنوانه «أسيوط ـ الواحة الخارجة» وكأني مُنوّمة أعطيته عنواني، وأنا أكاد لا أفهم من كل ما يدور شيئاً، حتى زعق صوت الحاجب محكمة. وبدلاً من الصمت دوت الهتافات من جديد. ولكن دخول القاضي والمستشارين قمع الحناجر وأرهب القاعة بصمت عميق قطعه صوت القاضي بفتح الجلسة، ووقف ممثل الادعاء يطالب بجعلها سرية.

وبينما كنت أتلفت داخلي لأفهم ماذا جرى بيني وبين هذا «الفنان» الواقف وراء القضبان يتأمل السقف، وأتلفت خارجي أبحث عن شلبية، لاحظت الحاجب يشير إلي من بعيد إشارات لم أدرك مغزاها. وانتابتني رجفة من أن يكون هذا الشقي مصراً على مغازلته الخشنة. ولكني صمدت حتى انتهت مداولة المحكمة بعد سماع الدفاع من المحامين بانعدام ضرورات السرية، غير أن القاضي أعلن سرية الجلسات. حينذاك لمحت ابتسامة مبهمة تصلني من عينين زائغتين وراء القضبان، انتشلني من الجواب عنها الحاجب الذي هرول إلي وعلى وجهه ملامح الجدية الشديدة فأعطاني مظروفاً مغلقاً ومضى بلا كلمة. في تلك اللحظة كان «المتهمون» قد خرجوا من القفص مع حراسهم ودخلوا غرفة أخرى، كذلك اختفت هيئة الاتهام والدفاع. أما الأهالي فظلوا في القاعة وقد اندست بينهم وجوه أعرفها من رجال وسيدات الأمن السري. ولا بد أن عيناً ما التقطت حركة الحاجب وهو يعطيني المغلّف الذي بِتّ مشغولة بفتحه لدرجة لا تطاق.

خرجت من المحكمة على أن أعود إليها بعد ساعتين أو ثلاث لأودع صديقي المفاجىء. وذهبت إلى أول مقهى قريب من المحكمة ورحت أفتح المظروف بحذر شديد وأنا أتلفت في

كل الاتجاهات كأنه منشور سري أو عينة مخدرات. وألقيت نظرة متعجلة على نهاية الورقة المكتوبة داخل المغلف قبل أن ألحظ اسمي في أولها، فوجدت توقيع «شلبية».

لا أستطيع تحديد العواطف التي اقتحمتني من كل صوب، إذ تأكدت من أن الخطاب لي، فقد نسيت أن أذكر لكم أن المظروف كان عارياً من أي اسم أو عنوان. وقرأت الخطاب حوالي عشرين مرة لأتأكد من كل حرف فيه. وكل ما أستطيع أن أقوله لكم الآن أن شلبية هي زوجة عوضين. أما الخطاب نفسه فسوف أعرضه عليكم بعد ترتيب الملف الذي سليت جنوني فيه. ورغم أن شلبية كانت صريحة وواضحة وحاسمة بأن زرعت في نفسي اليأس من محاولة العثور عليها، فلم تترك لي عنواناً ولا اسمها بالكامل ولا أي شيء آخر، فإنني رحت أبحث عنها بجنون مضاعف. حاولت مع الحاجب عبثاً فلم يكن يدري سوى أن سيدة جاءت وأعطته هذه الرسالة لي واختفت، وهو لا يتذكر حتى ملامحها.

وفجأة سمعت ضجيجاً وصخباً مدوياً حولي، فإذا بسيارات الشرطة ورجالها يشهرون السلاح بارتباك ظاهر، والهتافات تخترق جدران المحكمة المجاورة فما وجدت نفسي إلا مسرعة نحوها، وإذا بالمتهمين يركبون العربات وقد ربطوا كل مُتّهمَيْن بسلسلة يتوسطها قفل معدني. وتمكنت من أن أرى الشعر المبعثر لصديقي المفاجىء وهو يحاول الصعود من آخر العربة، وقد باعدت الهراوات والبنادق والمسدسات بين الأهالي والمتفرجين من ناحية والموكب العسكري من ناحية أخرى.

أما أنا فمنذ تلك اللحظة أصبحت محاصرة في نومي ويقظتي بشبحين لرجل وامرأة، أبحث عن شلبية من جهة، وأبحث عن ملامح صديقي المفاجىء من جهة أخرى. في داخلي ومن خارجي كنت أسابق الريح بحثاً عن المجهول ــ المعلوم.

لن أطيل عليكم، بل سأترككم مع البلاغ الأول في القضية المثيرة التي عثرت عليها في الملف. وهو البلاغ الأول حسب ترتيبي، أما أنتم فلكم أن تعيدوا الترتيب كما تشاؤون. بل قد لا تكون أوراق عوضين بلاغاً ومجرد رسالة إلى شلبية. لا أدري. كل ما أدريه، أنني أستأذنكم بعد كل بلاغ أو كلما كان ذلك ضرورياً لتبرير الترتيب الذي قمت به للملف، أن أدلي بملاحظاتي أو تحفظاتي أو شكوكي أو رأيي أو أي شيء يتراءى لي. وأعتقد أن هذا من حقي تماماً، لأنني لم أضف حرفاً ولم أحذف كلمة من محاضر التحقيق أو البلاغات أو الإفادات، سموها كما شئتم. ويحق لي بالتالي أن أترك لنفسي العنان، أن أشطح بعد التسجيل الحرفي لأقوال كل شخص، طالما أنكم تعرفون سلفاً أنها انطباعاتي الخاصة التي لا علاقة لها بالتحقيق.

ولن أودعكم الآن، إلى لقاء، إلا بعد أن أقول لكم شيئاً طريفاً، فخلف الورقة التي

ناولني إياها صديقي المفاجىء من وراء القضبان لمعرفة عنوانه، وجدت هذه الأبيات لشاعر مصري قديم من أحد العصور الفرعونية، قال فيها:

«لقد ترامى إلـيّ ما جرى على أسلافي عندما تخربت بيوتهم،
وأمحت أسواقهم، وكأنهم لم يكونوا منذ عهد الآلهة شيئاً مذكوراً.
«لا تفكر بما بعد هذي الحياة حتى تذهب بنفسك إلى هناك،
حيث تغرب الشمس.
«أي جدوى لما ينثره على الأرض كُهّان يلبسون جلد النمر أو
لما يقدمون من قرابين؟
«إفرح بيومك المشرق، وتمتع بما تومىء به إليك نفسك فليس
من دأب القدر أن يكرر أيامه.
«وكل ما هو آت آت. ولم نر من الذاهبين إلى هناك من عاد».

بالطبع «هو» لم يكتب لي هذه الأبيات. كانت مكتوبة على الورقة الوحيدة التي يبدو أنه وجدها في جيب سترته ليكتب لي عليها عنوانه: أسيوط ــ الواحة الخارجة؟ هل هناك سجن؟ هل يعود منه أحد؟ ربما. ولكن القبر، كما تقول القصيدة لم يأت منه أحد. عوضين لا يعرف له أحد قبراً.

□ □ □

البلاغ الأول

يسمونني في البيت والشارع والمقهى، حين أكون في إجازة من الحياة العسكرية بالجندي العتيق، أما حين أعود إلى كتيبتي، فهناك يسمونني بالنّاب الأزرق.

أصارحكم أنني أميل إلى التسمية الأولى، ولكنـي لست ضيق الصدر بالتسمية الأخرى. . ذلك أنني عايشت خمس حروب، إذا لم ننس حرب الاستنزاف، دون أن أموت أو حتى أصاب بشظية. مع العلم بأنني لم أتخلف عن حرب واحدة، ولم يحدث قط أنني كنت في الخطوط الخلفية. المدنيون أمثالكم سيقولون إنني شجاع، بينما العسكريون زملائي يقولون إنني منضبط. والحق أنني لا أفهم ماذا تقصدون أنتم، ولا ماذا يقصدون هم، وأصارحكم مرة أخرى أنني أعتقد في الله ودعاء الأم والحجاب الذي أودعتني إياه من قبل أن تموت بزمن طويل.

نسيت أن أذكر لكم من أكون، بالرغم من أن اسمي لا يعني لأحدكم شيئاً إلا إذا قرأت «شلبية» هذا الكلام، فهي أحقكم جميعاً بمعرفة ما حدث. إنها بعد وفاة أمي وأبي أصبحت هي الأم والأخت ومصر كلها. وهي تعرف كيف «تفك الخط» برغم أنها تركت «الكتّاب» قبل أن أعقد عليها بعشر سنين. مسكينة، لا أشعر بالذنب إلا نحوها، فهي مستودع أسراري الأمين، ولكنها ستكتشف أن سراً واحداً أخفيته عنها. ما علينا. .

باختصار إسمي عوضين أبو سالم من نجع أبو ستيت مركز سمنود محافظة الغربية بحري. أجيد القراءة والكتابة النسخ بخط جميل يشهد لي به الجميع، لأنني حين خرجت من الكتّاب دخلت المدرسة الأولية، فقد كان الفدان الذي يملكه أبي والستة قراريط التي تملكها أمي، تسمح لي بهذا الترف بين أولاد الفلاحين. بل إن أبي الذي جعل أخواتي البنات جميعهن يعملن في «الغيط»، فاجأ النجع كله حين طلب مني الاستعداد لدخول المدرسة الابتدائية في البندر. يومها كدت أجن من الفرحة، فقد تأكدت أنني سأصبح في يوم قريب

«أفندياً» محترماً، على الأقل من العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر، أولئك الذين كانوا يحتقرون أبي ومن هم مثله ولا يدعونهم أبداً إلى سهرات «الدوّار». وهم أنفسهم الذين كانوا يرتعدون وقوفاً، وهم يستقبلون أي أفندي قادم من المدينة سواء كان الصرّاف أو معاون الزراعة.

بعد حصولي على الابتدائية صرت أفندياً، ولكن قطعة الأرض التي كانت تتناقص عاماً بعد عام، لم تعد تسمح للعين أن تعلو على الحاجب. والعين بصيرة واليد قصيرة كما قال أبي لأحد الذين سألوه بسخرية: بيننا وبين المديرية خطوة ياحاج، هل سيدخل المحروس (الذي هو أنا) الثانوية؟ نعم، كانت العين بصيرة واليد قصيرة، حتى «الواسطة» لم نجدها لأعمل معلمًا في «الالزامي». حصل أبي على كارت من سعادة البيه النائب عن طريق قريب يمت بصلة نسب لسكرتير سعادته. ولكنهم قالوا إنني ما زلت صغيراً. وأخيراً عرضت نفسي أن أساعد الشيخ حسب الله في كتّاب المسجد مقابل «الزوادة» ومن غير فلوس.

ذات صباح انقلبت الدنيا، وقامت القيامة. قالوا أن العسكر «مسكوا البلد»، وأن الملك ــ يا سبحان الله ــ توكّل. وتوكّل في لهجتنا تعني راح، مشي. وكانت السهراية في دوّار العمدة تلك الليلة أشبه بليالي المآتم. لم نعرف الحكاية إلا بعد سنة وأكثر، حين رأينا العسكر عيني عينك. شباب زي الورد، لا يخافون العمدة ولا شيخ البلد ولا شيخ الخفر. يا سلام. وراحوا يتسامرون مع أبي وبقية الفلاحين بكلام غريب. غريب قوي. كنت أسمع عن الباشا وأولاده البكوات الصغار. ولكننا لم نرهم في حياتنا أبداً. أحياناً، أقول أحياناً، كان أحدهم يسمع عن آخر أن ثالثاً قال له رابع نقلاً عن خامس أنه شاهد بعينيه سيارة الباشا تمرق كالبرق من هنا. ولما كانت الحمارة والبقرة والجمل هي كل ما نعرفه من وسائل المواصلات، فإننا في الأغلب لم نصدق أن أحداً رأى «السيارة» في حياته.

سيارة العساكر الشباب وحضرة «الضابط» الذي كان معهم، شيء تاني. عربة جيب صغيرة ولكنها هزّت النجع والكفور المجاورة والعزب والدنيا كلها. قامت القيامة فعلاً، وإلا فماذا يفهم عبد الباسط وقرني وسلمان وأم سيدة والحاجة نبوية حين يقال لهم فجأة: لم تعودوا أجراء في أرض الباشا ولا البيه الصغير. هذه الأرض لكم. يا خبر أسود. بل يا خبر أبيض. أهكذا تحول الليل إلى نهار والنهار إلى ليل؟ كانت تصلنا دردشات الدوّار.

ثم طلبوني في «الجهادية». لم تصرخ أمي ولم يهتز أبي. أما أنا فكنت أعانق حلمًا ظننته المستحيل. منذ دخلت تلك السيارة الجيب إلى نجعنا، وأنا أحلم بالعسكرية.

وبمناسبة الأحلام، أحب أن أقول لكم أن أحلامي كلها كانت قصيرة العمر باستثناء حلمي بالعسكرية وحلمي بشلبية.

رضوان ابن عمي ذهب إلى التجنيد من زمان، ولم يعد. قالوا لي يومها أن اليهود

قتلوه. منذ ست سنوات وأكثر، كانت هذه الحادثة. الله يرحمه. أتذكره الآن كما لو كان أمامي، يقول لي ضاحكاً قبل أن يترك البلد بيوم واحد: سأذهب يا عوضين يا ابن عمي وسأؤدب أولاد الكلب أعداء الله والوطن. كانت الكلمات كبيرة، ويخيل إليّ أنني لم أستوعبها جيداً حينذاك. ولكن رضوان لم يعد.

تذكرته اليوم وحضرة الصول يخبرنا بأن نستعد، فاليهود ضربوا غزة. يا نهار اسود يا أبو سالم. ألم يكتفوا بعد بكل ما جرى في فلسطين ولفلسطين. لقد كبرت الآن وصرت أفهم ماذا حدث. ولكنني لم أكن كبرت لدرجة أن أفهم ماذا يمكن أن يحدث.

بعدئذ بأكثر من عام ونصف أعلن الريِّس تأميم القنال، وإذا باليهود والانجليز والفرنسيين يهجمون علينا مرة واحدة في سيناء والسويس وبورسعيد. قبل ذلك، كنا اتفقنا مع الانجليز على الجلاء. وعرفت من المجندين المتعلمين أن الأمريكان رفضوا مساعدتنا في بناء السد العالي أو في تسليح الجيش، وأن ريِّسنا قال «مفيش محال» وراح يستورد لنا السلاح من الشرق ورحنا نبني السد.

كنت واحداً من أفراد القوات التي انسحبت من سيناء حسب الأوامر حتى لا نعطي فرصة للقادمين من البحر بتطويقنا. ولكني كنت أيضاً واحداً ممن وقع عليهم الاختيار ضمن «القوات الخاصة» في بورسعيد. حاربت مع أشكال وألوان من البشر الذين لم يدخلوا الجيش في حياتهم، نسميهم بالمتطوعين. كانت تجربة غريبة في حياتي، لأنهم أولاً ليسوا عسكريين ومن أعمار مختلفة، ولأن الحرب نفسها لم تكن حرباً نظامية كالتي تعلمناها. كان كل شيء غريباً في التجربة، ولكن أغرب الغرائب أن هؤلاء المتطوعين في لحظات الهدوء القليلة كانوا يدخلون مع بعضهم البعض في معارك كلامية عنيفة. في أغلب الوقت لم أكن أفهم لماذا. إلا أنه ما أن تنطلق أصوات المدافع والقذائف حتى يصمتون ويندفعون معاً إلى الميدان يداً واحدة ونفساً واحدة: محمود ومصطفى وجرجس وسعاد وحليم ومراد. عامل وأستاذ جامعة وباشمهندس وممرضة وموظف وصحفي.

من بينهم جميعاً اخترت واحداً ظل صديقي إلى النهاية. نهايته، فقد مات في حرب ١٩٦٧ عطشاً في الصحراء، كان شاباً شجاعاً لدرجة أسطورية، وقد نجا من حرب ١٩٥٦ بسلسلة من الأعاجيب. عام ١٩٦٧ لم يحارب، مات من العطش. كان من «الاحتياطي» ولم يكن عسكرياً محترفاً. كان مهندساً، هوايته الأولى والأخيرة هي القراءة. صادقته عشر سنوات. أغلب الاجازات لم أكن أذهب إلى النجع. كنت أقضيها في الاسكندرية معه. وحين ابتعدت عنه عاماً كاملاً في حرب اليمن كنا نتراسل. هو أعظم إنسان عرفته في هذه الدنيا. فهمت منه ما لم أفهمه في حياتي من أبي وأمي وأساتذتي أو من الضباط والاذاعة

والصحف. فتح لي كنزاً مسحوراً حين علمني أن أفتح الكتاب. وكان يعرف مدى شغفي بالحياة العسكرية فاشترى لي كتباً مثيرة عن هذه الحياة . التي كنت أتصور أنني أعيشها فإذا بي وأنا الجندي المحترف أجهلها. منه عرفت ما هي بلادي وماذا تكون «اسرائيل»، ما هي فلسطين ومن هم العرب.

قبله كنت أعمى، وبعده أبصرت.

. . . ورأيت.

كانت هناك جملتان لا يفتأ يرددهما على مسامعي، وهو يقول لي: إقرأ. إقرأ عن محمد علي وابراهيم باشا. إقرأ عن أحمد عرابي. إقرأ عن جمال عبد الناصر. إقرأ لتعرف حقيقتين جوهريتين في تاريخ الجيش الذي تنتمي إليه: انه «جيش وطني»، أتسمعني؟ افهم هذه الكلمة. جيشك ولد أول ما ولد كعمل وطني. الحقيقة الثانية هي أن هذا الجيش له «دور يتجاوز الحدود». كلام كبير، كبير قوي، وجع لي راسي.

ورحت أقرأ بنهم عن محمد علي وإبراهيم باشا. وأدركت ماذا يعني الميلاد الوطني للجيش المصري. كان الأتراك والمماليك والفرنسيون يشترطون بقوة الاحتلال أن يكون جيشنا قليل العدد قديم العتاد، والأهم ألا يكون ضباطه من المصريين.. فالغزاة جميعاً لم يثقوا يوماً في جيش حقيقي من المصريين. كان المرتزقة والأجانب المحتلون أنفسهم يشكلون جيش مصر.

لذلك حين استقل محمد علي بمصر وسمح للمصريين بحمل السلاح والانتظام في السلك العسكري، وأسس الترسانة البحرية في الاسكندرية وأوفد البعثات الحربية إلى الخارج، كان ذلك هو الميلاد الوطني للجيش المصري في التاريخ الحديث. وكان ابراهيم باشا هو الذي قاد هذا الجيش نحو المشرق «حتى آخر رقعة من الأرض يتكلم أهلها العربية». أي أن الميلاد الوطني كان هو نفسه ميلاداً قومياً لهذا الجيش الوليد. جيش ضد الامبراطورية العثمانية والاستعمار الغربي معاً، فهو جيش لمصر والعرب معاً.

وكان أحمد عرابي يعنيني أكثر من محمد علي لأنه مصري فلاح وقف في ساحة عابدين يخاطب الخديو قائلاً بأعلى صوت: لسنا عبيداً لغير الله. كان هناك أربعون عاماً تفصل بين سقوط محمد علي والثورة العرابية. أربعون عاماً تختزلها أسماء عباس الأول وسعيد باشا والخديو اسماعيل والخديو توفيق. عاد الجيش خلالها ممزقاً وتراجع المصريون عن قيادته، وتخلفت آلياته عن مستوى العصر، وأضحى الأجانب هم سادته، وتقوقعت مصر داخل حدودها تحت وطأة الديون والقهر المباشر. وعادت الأقطار العربية المجاورة إلى شباك الباب

العالي في الأستانة أو الباب الواطي في الغرب بعد أن تحولت تركيا إلى «رجل أوروبا المريض». لم يعد لدينا جيش. وحين جرؤ اسماعيل على الاستجابة للضغط الشعبي، فأقام أول برلمان واستعد لاصدار أول دستور، كان الجيش المصري أيضاً قد استطاع الوصول إلى الخرطوم. لذلك أسقطه الغرب رغم كل ما قدمه لهم من تضحيات وتنازلات، وجاؤوا بتوفيق.

ولكن الجيش الوطني كان قد ولد. وبقيادة عرابي كانت الخطة التي عثر عليها الانجليز بعد الهزيمة تقول بلسان محمود سامي البارودي رئيس وزراء الثورة «ستتوحد مصر مع سوريا والعراق والحجاز». هكذا حرفياً. كان الميلاد الوطني هو ذاته ميلاداً قومياً. لذلك تولت المدافع البريطانية مهمتها «التاريخية» في ضرب الثورة وتصفية الجيش.

بعد أربعين عاماً أخرى كانت ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول. لم يكن الرجل عسكرياً. ولكن الاشارة الشعبية باستعادة الجيش لميلاده الوطني كانت واضحة. ورغم أنف معاهدة ١٩٣٦ كانت البشارة الشعبية بالمخاض، اكثر وضوحاً، إذ أصبح ممكناً لشاب ينتمي إلى أسرة فقيرة في مصر، أن يدخل الكلية الحربية: كان إسم هذا الشاب جمال عبد الناصر.

عند هذا الحد رحت أبطىء في القراءة، فالكلام سيدور عن حياة أعيشها بكل ذرات دمي. ولكن الجملتين اللتين أوصاني صديقي بالتمعن فيهما كانتا في قلب الأحداث تضيئان لي ما بين السطور. جيش قوي: أول المبادىء الستة في بيان ثورة عبد الناصر. جيش يدخله أبناء العمال والفلاحين دون قيد أو شرط. جيش العرب: في ثورة الجزائر، في ثورات أفريقيا، في وحدة مصر وسوريا، في ثورة اليمن. جيش له «دور يتجاوز الحدود».

عام ١٩٦٧ رأيت صورة أحمد عرابي في قلب جمال عبد الناصر. لم يكن ثمة فرق في خاطري بين الطائرات الاسرائيلية الحديثة والمدافع البريطانية الحديثة. ولكن الفرق كان كامناً في الشعب الذي حمل عبد الناصر إلى ميدان القتال من جديد. حمله إلى حرب الاستنزاف. مشهد، لم يقع عام ١٨٨٢ ولم يتخيل أحد وقوعه طيلة الأعوام الثلاثة التالية لهزيمة ١٩٦٧.

لذلك كانت المفاجأة بحجم القرار: اغتيال جمال عبد الناصر.

واغتالوه في مساء الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠.

لست أفهم في السياسة ولا أحب السياسيين، ولكن ما أفهمه هو الجيش. بعد ثلاث

سنوات حين قالوا لي تعال سنحارب، ذهبت. قاتلت الاسرائيليين كما لم أقاتلهم في حياتي، ولم أمت. كنت أشعر في عمق أعماقي أنني أنتقم لأحمد عرابي وعبد الناصر وصديقي الذي مات عطشاً. كنت أحس في أحشائي بأنني أدافع عن نفسي، عن بقاء جيشي «وطنياً» وله دور يتجاوز الحدود.

ولكني شعرت بعدها بأيام، أنني كنت أقاتل في سيناء واحدهم كان يغتصب شلبية في النجع. وهو أمر لا يفعله غير اليهود، إذ روى لي صديقي أن ملكهم داود نفسه قد أعجب بزوجة جندي كانت تستحم ورآها صدفة، فأرسله إلى الميدان ليُقتل ويفوز هو بها. أذكر اسم ذلك الجندي الذي ورد في توراتهم، كان يدعى «أوريا الحثي». هل يكون عوضين أبو سالم هذا الحثي؟ وهل يكون ملكهم داود قد بعث في مصر؟

لا أدري، فقد توالت الأحداث بسرعة لم يتحملها عقلي، وكان شريط حياتي في الجيش وفي حياة عبد الناصر قد انقلب «نيجاتيف» كالكابوس لا يرحم دماغي: العسكر يعودون في الجيب إلى النجع، ولكن ليعيدوا الأرض إلى الباشا. الانجليز والفرنسيون واليهود والأمريكان يعودون إلى بورسعيد والسويس وحتى القاهرة، بلا حرب، نفتح لهم أحضاننا لا مدافعنا. ماذا جرى؟ هل قامت القيامة؟

لا أدري، كل ما أدريه أنهم ذات ليلة طلبوا مني الاستعداد للحرب. ولم أفهم كيف سنحارب واليهود في القاهرة؟ قالوا لي نفذ الأوامر ولا تتفلسف. كان ربع قرن قد انتهى على ميلاد ثورة عبد الناصر. هل سيحتفلون بميلاد جيشنا الوطني؟ هل خدعوا الاسرائيليين ويريدون أن يفاجئوهم؟ ولكن القوات تمضي غرباً. غرباً أقول. إلى أين؟ لا تتكلم. نفذ الأوامر فقط. إلى أين؟ «مش شغلك» أنت جندي وعليك طاعة الأوامر. إلى أين؟ نحو الغرب. الغرب؟ ليست هناك اسرائيل ولا اسرائيليون. هناك ابن عمي حسين في بنغازي، ومهران في طرابلس، وسعد الله في فزان. إلى أين؟ إلى ليبيا... ماذا جرى؟ سقط محمد علي. عاش عباس الأول. سعيد باشا. هزم عرابي. الخديو توفيق يضحك. أين الجملتان الرائعتان يا صديقي؟

اغتالوا عبد الناصر، تقول؟ من هو الملك داود؟ أين شلبية؟ أوريا الحثي.

عثر على هذه الأوراق المؤرخة في يوليو ١٩٧٧ ملطخة بدماء لم تجف رغم مرور ثلاثة أعوام عليها في مكان ما من الصحراء الغربية، داخل حدود مصر.

□ □ □

ملاحظات على البلاغ الأول

يجب أولاً أن أشير إلى الأسطر الثلاثة الأخيرة في بلاغ عوضين بأنها كتبت بخط مغاير لخط الرسالة. وربما يجب ثانية أن أشير إلى أنني وضعت هذه الرسالة في الترتيب كبلاغ أول لأن صاحبها إنسان بسيط ولكنه رائع. لم يمت في أربع حروب ضد الصهاينة، ثم مات على نحو غامض في حرب مفاجئة ضد دولة عربية. المهم أنني كسبت من الرسالة أو البلاغ أو محضر التحقيق، سموه كما شئتم، عنوان عوضين وأسماء أقربائه المقيمين في ليبيا.

توجهت إلى نجع أبو ستيت في البداية، وعدت خائبة المسعى. ولكن الخيبة وحدها لا تهم، فالأهم انني احترت من تفسير ظاهرة صادفتني على الفور ولاحقتني حتى تركت هذه القرية الصغيرة. هذه الظاهرة هي أن أحداً لم يعرف ولم يسمع عن عوضين، أو ان الكل يعرفون ولا يريدون الكلام. لاحظت ذلك من نظرات بعض الفلاحين التي لقيتني بالشك والريبة والحذر الشديد. خصوصاً عندما كنت أذكر شلبية، كانت العيون تزداد تحاشياً لي. ولا أدري لماذا كنت أشعر بأن عيناً وراء العيون تلاحقني منذ أخذت الرسالة من الحاجب في المحكمة. ربما كان وهماً. ولكني كنت أشعر بوطأة «النظرة الخفية» تطاردني وتضغط على أعصابي، فبدوت سلفاً أمام الفلاحين كالمريب يكاد يقول خذوني. لذلك عذرتهم ومضيت والحيرة تأكلني. لم ينجب عوضين كما يتضح من رسالته فلم يذكر أن له صبياً أو بنتاً. ولكن لماذا احتدت العيون أكثر حين سألت عن شلبية؟

غايته، توجهت إلى بنغازي عن طريق أثينا، فليس هناك اتصال جوي مباشر بين مصر وليبيا. سألت عن حسين ابن عم عوضين. ورغم كثرة اسم «حسين» بين المصريين المقيمين في بنغازي، إلاّ أنني وجدت من يسألني «تقصدين حسين أبو سالم»؟ وحين أجبت نعم قال لي أنه عاد مع عائلته إلى مصر. قصدت طرابلس أسأل عن مهران. بعد أيام قليلة وجدته. سألته عن سعدالله فاندهش بخجل قائلاً: من أين تعرفينه؟ تصنعت الخجل أكثر

منه. قال: انه غريب. لعله كان المصري الوحيد في منطقة فزان. وهو الآن في لبنان. يقال انه التحق بالمقاومة الفلسطينية. ليست بيني وبينه مراسلات، ولا أعرف أين يقيم بالضبط، ولكن لماذا؟ أعاد السؤال. يبدو أنه ظن أن علاقة ما بيني وبين سعدالله. حاولت استغلال الظن وأنا أسأل: أنت قريب جندي إسمه عوضين، أم سعدالله؟ طغى عليه الحزن فجأة وما يشبه الغضب المكتوم: كلاهما يا آنسة. ما الحكاية بالضبط؟ هل تسألين عن سعدالله أم عن عوضين؟أجبت بجدية: عن كل المصريين هنا، فأنا صحفية كما تعلم. رد كأنه ينهي المقابلة: لا أعرف شيئاً عن سعدالله غير ما قلته. وصمت برهة ثم قال: ولا عن عوضين، الله يرحمه. قلت: وشلبية؟ صعق. تغيرت ملامحه كأنه يوشك على الصراخ. ازدرد ريقه وتمتم: لا ياست هانم، ولا عن شلبية.

وقام كأنه يهرب. كأن أفعى لدغته. استمهلته لحظات، ولكنه غاب. في معسكر للتدريب بجنوب لبنان عثرت على سعدالله. عرفت منه أن حسين ترك بنغازي حقاً، ولكنه لم يعد إلى مصر، بل هو تزوج من سورية ويعمل الآن في دمشق. قال انه يعرفني وسألني لماذا توقفت عن الكتابة في الصحافة وانه معجب بفضحي لأسرار المحاكم. وجدت في ذلك مدخلاً جيداً. قلت هاأنذا أعود إلى الصحافة وأسألك عما تعرف عن عوضين؟ قال بتأثر بالغ انه مفقود منذ صيف ١٩٧٧. وشلبية؟ هاجمته سعلة مفاجئة حتى كاد يختنق. احتبس الدم في وجهه فتلون بالأزرق والأحمر. بعد كوب من الماء وراحة قصيرة تناسى سؤالي كلياً. ومن ناحيتي لم أستطع تكراره. قبل أن أودعه بلحظة قال لي بصرامة: معذرة، لا أعرف عنها شيئاً. دون أن يتلفظ باسمها قال هذه الكلمات. وكان آخر أسئلتي: هل تتصور أن حسين يعرف شيئاً أكثر منك بخصوص عوضين أو شلبية؟ أجابني بصوت قاطع: لا.

وركبت التاكسي إلى الشام. كان حسين شاباً ضاحكاً يمتلىء حيوية، بدا لي كما لو أنه من مواليد دمشق لتكيفه السريع مع عادات أهلها وتقاليدهم وأحياناً لهجتهم. رحب بي ترحيباً حاراً خاصة حين عرف أنني التقيت مهران وسعدالله. قال لي أنه لا يقرأ الصحف ولم يقابل في حياته صحفياً إلاّ مرة واحدة ـ هكذا تذكر فجأة فلوّح وجهه الأسى ـ نعم، مرة واحدة في بيت واحد متعلم كان يتردد عليه المرحوم عوضين. مات هذا الشاب في الحرب قبل عوضين بعشر سنوات. ولكنني في بيته قابلت شاباً مثله قالوا لي اسمه المهدي أو المهدوي لم أعد أتذكر. أيوه الأستاذ سماعين. تذكرت. رجل يجيد النكتة، هكذا مثلي، لكنه إذا تكلم صار جاداً غاية الجدية وقال كلاماً غاية في التعقيد. والغريب أن عوضين الله يرحمه كان يبدو عليه الفهم. كيف، لا أدري. ومن طبعي ألا أتكلم في ما لا أفهمه. ولم أكن في أي يوم أفهم في السياسة. لذلك سمعت النكت وقمت بعد قليل من كلامهم في

السياسة. مرة واحدة رأيت الأستاذ سماعين، وهو الصحفي الوحيد الذي قابلته في حياتي.

ثم قدم لي زوجته الجميلة مباهياً بشعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين قائلاً: شوفي، أجمل من بنات المنصورة والله العظيم. وضحكنا. لا يدري أنه الوحيد الذي أضاف لي سراً مثيراً، وهو أن عوضين كان على علاقة بإسماعيل المهدوي. هل يكون ذلك هو السر الذي يقول في بلاغه أو رسالته أنه «أخفاه عن شلبية»؟ ربما. ولكن ما هو السر نفسه؟ حسين لا يضيف حرفاً لأنه لا يعرف بالفعل شيئاً آخر، وقد عرفني بكل ما يعرف دون أن أطلب منه بعفوية الصدفة وصفاء الترحيب.

كانت الإضافة الجديدة كسباً لا شك فيه. ولكني سألته عن شلبية. وليتني ما فعلت. توارت خفة دمه بسرعة مذهلة ونظر إلى زوجته فذهبت والتفت إليّ بذعر حقيقي متسائلاً: ايه يا ست. ظننت أنك جئت تسألين عن المصريين هنا فإذا بك تسأليني عن زوجة ابن عمي الغائب، لماذا؟ لقد انقطعت علاقتنا بها من قبل أن يغيب المرحوم ولا نعرف عنها شيئاً. لماذا تسألين؟ ووجدتني مضطرة للكذب: هل تصورت حقاً أنني أسأل عنها. لقد فهمت أنها تركت مصر، وبما أنكم أقرباؤها رأيت أن أسأل عنها كمواطنة هاجرت البلاد ضمن الموجات التي نزحت من مصر. استعاد طمأنينته بحذر، وهو يقول ربما، فالمصريون ليسوا كأسنان المشط. والعرب جميعاً كالبشر في كل مكان ليسوا كأسنان المشط. فيهم الطيب وفيهم الوحش، فيهم الطاهر وفيهم النجس. لسنا ملائكة وليرحمنا الله.

شعرت انني خدشته بشيء ما لم يعد يجدي معه الاعتذار. وعدت فوراً إلى القاهرة. عدت إلى ترتيب الملف، وقد وجدت تبريراً أقوى لأن تكون رسالة إسماعيل المهدوي هي البلاغ الثاني. في صندوق البريد وجدت رسالة من السجن. يقول لي صاحبي المفاجىء جملة واحدة: إسألي عن إسماعيل المهدوي في المستشفى، انه ليس مجنوناً. في تلك الليلة أخذت ترجمته لرواية «الاخوة الأعداء» لليوناني كازانتزاكس، ورحت أقرأ حتى الصباح.

وفي الوقت نفسه كنت أقرأ كتاباً آخر. تلك عادتي المقيتة، يسمونها السرحان أو الشرود، وهي ليست كذلك، إنني أعي تماماً كلمات وسطور وصفحات الكتاب المفتوح أمامي، وأعي أيضاً وبنفس القدر من الانتباه واليقظة الكتاب المفتوح داخلي. وقد لا تكون هناك أية علاقة بين الإثنين، وقد يحدث التوازي أو التقاطع أو التداخل. ولكن الأمور في النهاية لا تختلط عليّ. هكذا كنت أقرأ «الاخوة الأعداء» حين قرأت في بطاقة الهوية انني رأيت الحياة في يناير ١٩٥٢ كما تقول شهادة الميلاد. في ما بعد كانت تقول لي أمي «لقد ولدت في أيام النحس». لأن العلاوة التي حصل عليها أبـي بسبب ولادتي وصلت به إلى شريحة مالية تستوجب الخصم، فكان أن نقص مرتبه عما كان عليه «فليتك ما جئت لأننا

ازددنا فقراً». هكذا كانت تتندر أمي ضاحكة. ومن جهتي لم أفهم هذه المفارقة الغريبة إلى الآن، كيف يمكن «لعلاوة ولادة» أن تؤدي إلى نقص في المرتب. ولكن هذا الذي كان.. كالمفارقة التي لاحظتها في أول فقرات بلاغ جمال عبدالناصر الذي ولد رغم أصله الصعيدي في الإسكندرية ولكنه يذكر في الأوراق أنه ولد في بني مر.

يكبره أبي ــ رحمهما الله ــ بعشر سنوات، ولكن أبي تزوج متأخراً وأنجب متأخراً أيضاً. كان أبوه فلاحاً، كما روى لي في سنوات الطفولة، يعمل في أرض أحد باشوات الدلتا. كان جدي يعمل في حرث الأرض والري والزراعة وجني المحصول، مقابل الأكل والمبيت، فلا يذكر أبي أن والده كان يأوي إلى كوخ مستقل. كان الباشا ذو الأصل التركي قد بنى عدة حظائر للبقر والجواميس والحمير، وسمح للفلاحين بالرقاد في هذه الحظائر. وذات يوم جاء الباشا بامرأة تعمل في خدمة زوجته بالحرملك، وقال لجدي: تزوجها واختر حظيرة لكما وحدكما، بالنهار ستكون هي في الحرملك وفي الليل معك.

كان جدي سعيداً جداً بهذا الزواج، وكذلك الباشا، فسوف تلد المرأة أولاداً يساعدونه في الغيط. وذات مرة كان جدي في عزبة مجاورة فسمع موالاً يحكي قصة غرام وقعت أحداثها في الصعيد عن شاب يدعى ياسين وفتاة تدعى بهية، انتهت بمقتل ياسين. لم يكن جدي يعرف بالتفصيل معاني الموال والحكاية التي يرويها. ولكنه ذات مرة كان يمسك بالشقرف منحنياً على الزرع ينظف الأرض حوله من الحشائش وراح يردد بصوته الأجش «يا بهية وخبريني عا اللي جتل ياسين» وإذا بظل ضخم يحجب الشمس التي كانت تحرقه، وما كاد يلتفت بزاوية عينه إلى الباشا فوق الحصان، حتى هوى السوط على ظهره وصوت كالسيخ يخرق أذنيه «مالك ومال ياسين يابن الكلب».

منذ ذلك الوقت لم يعد جدي إلى الغناء أبداً كما يقال. وفي تلك الليلة نام في الحظيرة كما لو كان في غيبوبة. لم يشعر بشيء حتى صلاة الفجر حين استيقظ، فلم يجد زوجته إلى جانبه. راح يتلصص بناظريه على أبواب القصر، فلم يجد أحداً. لم يصلِّ كما هي عادته منذ زمن طويل. بل ذهب إلى الترعة، وأمسك بالطنبور يديره فيتدفق الماء ليروي الحوض قبل طلوع الشمس.

حين رجع في المساء كانت جدتي في الحظيرة وقد أعدت له عشاء فاخراً من الأرز والملوخية واللحمة والجبنة والعيش السخن. لم تلحظ عليه شيئاً غريباً، بل قالت له ان الست الكبيرة أهدتها هذا الطعام لأن بطنها كبرت. اغتصب ابتسامة مشوهة وقال: كتر خيرها. قالت له: الست الصغيرة والبيه الصغير كانا يدردشان عن حوادث السنة اللي فاتت في دنشواي. أحياناً كانا يتكلمان بلغة لا أفهمها، وأحياناً بلغتنا. كانت الست الصغيرة تقول بنعومة: ليه

الفلاحين ما تركوش الانجليز يصيدوا الحمام؟ وكان البيه الصغير يسأل بغضب: يا ريت على كده، ويقتلوا انجليزي كمان. ردت الست: أهم أخدوا جزاءهم على كل حال. الانجليز أسياد البلد. دخل البيه الكبير في هذه اللحظة، وهو يبرطم بين التركي والمصري يقول: هنلاقيها منين ولا منين، من مصطفى كامل المجنون ولا من بهية وياسين. بدا على البيه الصغير والست الصغيرة انهما لم يفهما شيئاً. نادت عليّ الست الكبيرة، فمضيت بعيداً ولم أتابع الحديث.

كان جدي قد نظف الصحون جيداً من الأرز واللحم والملوخية. تجشأ عدة مرات، وقد انفرجت أساريره قليلًا، فداعب جدتي فوق التبن بجانب البقرة والحمار قائلًا: تعالي يا شيخة، هتجيبي ولد ولا بنت. أجابته وهي تندس في التبن لتخلع السروال: يا خويا أنا عارفه، انت سيد من يجيب الولد والبنت.

ولكن جدتي لم تنجب سوى أبي، وماتت أثناء الولادة. عاش الطفل وماتت هي. كانت الست الكبيرة تحبها كثيراً، فأخذت الطفل إلى الحرملك. حتى جدي لم يكن يرى ابنه كثيراً. كان يدري أن الولد يأكل جيداً ويلبس ويراه مع إحدى الفلاحات ترضعه وتهدهده. ولكنه كان يتمنى لو تركوه له يربيه على هواه. وكان مأتمه الحقيقي حين فاجأه الباشا ذات يوم: ابنك مش لازم يطلع فلاح. النباهة في عينيه زي أمه. ده يروح البندر يتعلم. بكى جدي كما لم يبك في حياته. لم ينطق، ولكنه انتحب. ما باليد حيلة. استسلم وكان ما كان. كان يرى ولده كل فجر راكباً الحمار مع فلاح وقادماً كل مساء كأبناء الأفندية. ولكنه كان مشروخ النفس مكسور القلب من الفجر إلى المغرب.

لم يعرف أبي كيف مات أبوه. ولكن الست الكبيرة قالت له ذات مساء أن والده سافر إلى مكان بعيد. لم يهتم كثيراً. وذات مرة، وهو يلعب في الغيط، قال له أحد الفلاحين: ألا تريد زيارة أبيك؟ سأله: كيف؟ أجابه: انه قريب، تعال معي. اندهش الصبي لحد الذهول حين مضى مع الفلاح في طريق موحش، إلى الجبّانة، سأل الصبي: لماذا أتيت بي إلى هنا؟ قال الفلاح والدموع تترقرق في عينيه: هنا يرقد أبوك، ألف رحمة عليه، الفاتحة. قرأ الولد الفاتحة وهو مبهوت لا يفهم شيئاً. كان الفلاح قد انتهى من قراءة الفاتحة والولد يرتجف ويبول على نفسه.

في اليوم التالي ــ كما روى لي أبي منذ سنوات بعيدة ــ لا بد أن أهل القصر أصيبوا بالجنون، فقد اختفي أبي دون أن يترك وراءه أثراً.

عندما بلغ الحادية عشرة من عمره كان يعمل قومسيونجياً لحبر الطباعة بشارع محمد علي في القاهرة. وكان تلميذاً في نفس الوقت. وفجأة انفجر بركان من البشر في كل مكان

من مصر. زلزال من الطلاب والعمال والفلاحين يخرجون من المدارس والحقول والمصانع والكفور والدساكر والنجوع والعزب، يهتفون ضد الانجليز وبحياة سعد ويوقفون المواصلات بتخريب قضبان السكة الحديد وتحطيم الجسور. ووجد أبـي نفسه في خضم من الموج الهادر. تصادف أنه كان بالقرب من حي العباسية، وإذا بالمظاهرة تسحبه هو الصبـي الصغير إلى ميدان محطة مصر باب الحديد. كاد الزحام يقتله تحت الأقدام عدة مرات. وفي كل مرة كان يفلت بأعجوبة. لم يكن يفهم ماذا حدث ولماذا حدث. ولكن الرصاص الغزير الذي انطلق على المظاهرة من الرشاشات الانجليزية قطع حبل تساؤلاته ودفعه للاختباء وراء سور المحطة. كل ما كان يهمه هو أن يعرف ويعرف ويعرف. كانت عيناه وأذناه معلقة بما يجري. دم. وضرب. صراخ. الانجليز. سعد باشا. الجلاء. يريد أن يفهم. بقي مسمراً وراء السور. بدأت الشوارع تخلو من المارة، وأشعة الشمس تتوارى. جـرؤ على الخروج من مخبئه يحـث الخطى في الميدان الواسع. تزلزلت قدمه اليسرى وسقط. بين اليقظة والمنام سمع صوتاً يصرخ في وجهه بالانجليزية. حاول الرد، فلم يستطع. كف ساخن على وجهه. استيقظ فهاله الدم ينبثق من قدمه. غاب في النوم من جديد، لم يدر من حمله إلى المستشفى.

ثم عاد إلى غرفته فوق سطح إحدى العمارات بشبرا، وراح في سبات عميق.

وفي اليوم التالي كان يحمل أنواع الحبر ويدور على المطابع كأن شيئاً لم يحدث. وفي إحداها التقط ملزمة عليها صورة قتيل كتب تحتها «أدهم الشرقاوي» وراح يقرأ الموال الذي يحكي قصة أدهم.

□ □ □

البلاغ الثاني

إسمي اسماعيل المهدوي.

لا شك أن الأجيال الجديدة لا تذكرني.

ولا شك أن بعضاً من الأجيال القديمة لم تعد تذكرني، فقد طال الغياب اثنتي عشرة سنة.

ولا شك كذلك أن الأصدقاء الطيبين والأعداء أيضاً، قد يتذكرونني بالكاد، لأن مشاغل الدنيا لم تعد تفسح مجالاً للذاكرة.. نحن في عصر الآلات الحاسبة الاليكترونية.

ولا شك أخيراً، أنه ليست مشاغل الدنيا وحدها هي التي تحجب إسمي عن ذاكرة أصدقائي وأعدائي، فالأرجح أن السبب الأول والرئيسي هو أنني لم أعد «قضية».. ذلك أنني ظللت أوقظ ذاكرة الأعداء والأصدقاء (هل تسمحون لي بأن أجمعهم في كلمة واحدة هي «الأعدقاء»؟). اثنتا عشرة سنة، وأنا أكتب لهم الرسائل والمذكرات. في البدء كانوا يفاجأون: كيف يكتب؟ متى يكتب؟ كيف يرسل لنا ما يكتبه؟ كيف يتابع ما يجري؟ كيف يعقل ما يحدث؟ كيف يحلل ما يدور، بكل هذه الدقة، وهذا المنطق، وهذا الصفاء؟ كيف، كيف، كيف؟

بعد المفاجأة، كان بعضهم شجاعاً بكتب لي سعيداً بعقلي، فخوراً بذاكرتي وموافقاً على آرائي. وبعضهم كان عاطفياً فتبنّ «قضيتي» سراً لدى المسؤولين وغير المسؤولين. وبعضهم كان كريماً فراح يذكر إسمي في أي مناسبة يمكن اقتناصها. حتى أعدائي أصابتهم المفاجأة فلاذوا بالصمت الحكيم.

ومرت الأيام، ولم تتوقف رسائلي إلى الجميع. ولم تتوقف الأرض عن الدوران. الشيء الوحيد الذي بدأ تدريجياً يتوقف هو ردود «الأعدقاء» على رسائلي.. بعضهم تصور أنني نبي آخر الزمان، فما أقوله الأمس يرونه ماثلاً في الغد. وبعضهم تصور أنني درويش أدركه

التصوف وجلاء الرؤيا في آخر العمر. وبعضهم قال خذوا الحكمة من أفواه المجانين. ولكن الجميع مسهم «الخوف» في عمق الأعماق، وراح الصمت يداعب أجفانهم حتى نامت ذاكرتهم في بئر عميق.

أما أنا فلا زلت أذكركم واحداً واحداً، وسأظل أكتب لكم طالما كنت قادراً على هذا «الفعل» المثير، حتى ولو أصبحتم كما يقول أحدكم جيلاً بلا جهاز عصبي.

إسمي مرة أخرى وليست أخيرة، اسماعيل المهدوي. من جايلني يتذكر بلا ريب واقعتين أثلجتا القلوب الطرية البيضاء حينذاك. صبي من أسرة فقيرة يتقدم إلى امتحان «التوجيهية» فينجح، وليس هذا شيئاً مهمًا، ولكنه يتقدم إلى مسابقة اللغة العربية ليأتي ترتيبه «الأول» على مستوى المملكة المصرية كلها، فيصبح ممكناً أن يحقق الحلم ويدخل كلية الآداب، قسم الفلسفة، مجاناً.. في وقت كان الطالب يدفع فيه عشرين جنيهاً في العام الدراسي، ربما كانت نصف دخل أبي في السنة. هذه هي الواقعة الأولى. أما الواقعة الثانية فهي أنني بعد أربع سنوات نلت الليسانس بدرجة «امتياز» التي لم يحصل عليها طالب مصري منذ ذلك الوقت إلى الآن.

كان طبيعياً أن أسلك الطريق المعتاد إلى الدراسات العليا والتعليم الجامعي. ولكن ذلك، لم يكن ممكناً بأي حال، فقد كانت عائلتي تنتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر، لأعمل. كما أنني شخصياً كنت قد تغيرت. لم تعد «الشهادة» ولا «استاذية الجامعة» تعنيني في كثير أو قليل. كنت في أواخر المرحلة الثانوية وبدايات المرحلة الجامعية، قد اكتشفت أنني كنت أعمى، وأبصرت فجأة. كانت «المعرفة» نوراً جديداً اقتحمني فشعرت أن العلم الحقيقي خارج الجامعة. رحت أقرأ وأقرأ وأقرأ، ولم يصبني دوار من القراءة ليل نهار. في البداية كنت أقرأ كل شيء. في الجامعة انتظم عقلي وتعلمت نعمة الاختيار. وهي نعمة جعلتني أرى في بعض المواد الجامعية نقمة عليّ أن ألفظها فور التخرج. أما خارج مدرجات الكلية فقد رحت ألتهم المعرفة المنظمة التهاماً.

وفجأة في أحد أيام العام ١٩٥٤ وأنا على وشك التخرج، اكتشفت من جديد أنني رغم أكداس الكتب التي أكلتها أكلاً، لا زلت أعمى. وأن نوراً جديداً يقتحمني ويدلني على الطريق.. حيث تتكامل المعرفة بالحلم الذهبي في تغيير المجتمع.

كان الاحتلال البريطاني ما زال جاثمًا على صدر بلادي، رغم الثورة. وكانت الثورة نفسها قد بلغت ذروة التعقيد والغموض. كانت الأمور تبدو لي هكذا: اما أن نضحي من جديد بحريتنا من أجل ما يسمونه «الكفاية والعدل» وإما أن نضحي بالاصلاح الزراعي وتمصير الشركات الأجنبية، لما كان يسميه غيرهم بالديموقراطية. هكذا وضعونا أمام الخيار

الجهنمي الذي حسم في شهر مارس (آذار) من ذلك العام لمصلحة «العدل» وضد الحرية.

لا أريد أن أقول لكم إنني من جيل هتف بسقوط الملك واشترك في حرب الفدائيين ضد القوات البريطانية في الاسماعيلية والسويس وبورسعيد قبل أن تحترق القاهرة في ٢٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٢ فكلكم يتذكر ذلك. ولكني أحببت أن أقول أيضاً بأنني وقطاعاً عريضاً من جيلي، لم نفهم كيف يمكن إجلاء الانجليز والمصالح الأجنبية وأن تقتطع أراضي الباشوات لتعطى للفلاحين، وفي الوقت نفسه تصادر حريتنا نحن الذين حاربنا الانجليز وبعضنا كان ما يزال طري العود صبياً حين دخل سجون الملك والباشوات لأننا طالبناهم بالأرض للفلاحين.

المهم، أنني رأيت في تلك الأيام أساتذتي من أعلام الحرية والعدل في بلادي، يطردون من الجامعة إلى الصحافة. ورأيت قاضي القضاة في وطني يضرب في ساحة الحرم المقدس للقانون.

ولن أنسى في هذا الوقت أنني رأيت بعيني جمال عبد الناصر في المنشية ــ بالاسكندرية ــ والرصاص ينطلق نحوه من مسدس يهتف صاحبه: الله أكبر.

كان عليّ أن أجمع في ذهني هذه الأحداث المتلاحقة والمبعثرة والمتناقضة، لأحاول أن أفهم. والحقيقة أنني كنت أطلب المستحيل، لأن مصر انقسمت منذ تلك الأيام. لا يهم أي القسمين أكبر، ولا أيهما الذي انتصر. ولكن الأمور بدت لي كما لو كان علي أن أختار بين الأسود والأبيض: بين جلاء الانجليز والباشوات من جهة، والأحزاب وحرية الصحافة والجامعة والنقابات من جهة أخرى.

لم يكن هناك من استطاع أن يبصر طريقاً ثالثاً. جلاء الانجليز والاقطاعيين يعني الحرية. وإلغاء الأحزاب والصحافة والجامعات والنقابات يعني نقيضها، فأين الوطن، أين؟

رحت أجيب عن هذا السؤال، مع أبناء جيلي، بمختلف الأساليب والطرق، بالقراءة والتنظيمات السرية والسجون. كنت أترجم جورج بوليتزير «المادية والمثالية في الفلسفة» أو «المبادىء الأساسية للفلسفة» لم أعد أذكر. ولكنه الكتاب الذي راج في أوساط الشباب رواجاً أذهلني. كان «العطش» إلى نظرية علمية في الوجود والمجتمع، عطشاً تاريخياً لدى جيل ممزق العقل والوجدان. زادته تمزقاً تلك الأيام المأسوية المجيدة من العام ١٩٥٦ حيث كانت «الديمقراطية في مصر» أكثر الديموقراطيات ازدهاراً في الشرق الأوسط كما قيل، وحيث أضحت «عروبة مصر» قيادة مركزية لحركة التحرر العربي كلها، وحيث أمست «قناة السويس» عنواناً تاريخياً لتأميم الثروات الوطنية في العالم الثالث بأكمله. وحين أقبل العام ١٩٥٨ بوحدة مصر وسورية، كان تتويجاً قومياً لهذه المعاني كلها.

ولكن «جوهر» الأيام المأسوية المجيدة في العام ١٩٥٦ سرعان ما اختفى في ظلال المجد، وبرز على السطح «جوهر» المأساة وحدها في العام ١٩٥٤. اختفت من جديد الديموقراطية، لتصبح الطريق مسدودة أمام الخيار الثالث بين الأسود والأبيض. أنت مع التأميم أم مع الحرية؟ أنت مع الوحدة أم مع الحرية؟ أنت ضد الاستعمار أم مع الحرية؟ مع مجانية التعليم واشتراك العمال في الأرباح وإدارة الشركات وبناء السد العالي ومجمع الحديد والصلب، أم مع الحرية؟ هكذا كانت الأسئلة في صياغة أكثر لمعاناً: هل يمكن أن تكون هناك حرية سياسية من دون حرية اجتماعية؟ هل يمكن أن تكون هناك صحافة حرة في مجتمع ترتفع فيه نسبة الأمية؟ هل يمكن أن تكون هناك أحزاب من دون صراع دموي؟

لم يكن هناك من يكتشف لنا طريقاً ثالثاً هو وحده الذي يؤدي إلى «الوطن». لم يكن هناك من يكتشف «المفارقة» قبل هزائمها، من يكتشف أن الجلاء بغير الديموقراطية يعيد الاحتلال، وأن التأميم بغير الديموقراطية يعيد الاقطاع والرأسمالية. كانت هناك أحاسيس غائمة في ضباب القلق، ولكنها لم تكن أجوبة.

وقد دفعت مع جيلي ومع جمال عبد الناصر ثمناً باهظاً لغياب الجواب، فقد كان غياب الجواب وما زال غياباً للوطن.

كنت أكتب في جريدة «المساء» بين عامي ١٩٥٦ و١٩٥٩ كثيراً من الأسئلة حول صراع الطبقات والدور الطليعي للطبقة العاملة، كما لو كنت ماركس زماني يكتب عن فرنسا أو ألمانيا أو بريطانيا. ثلاثة أرباع بلدي من الفلاحين. كنت أكتب عنهم وأنا منهم ولا أفهمهم ولا أدرك ثقلهم الاجتماعي أو دورهم السياسي أو دوري نحوهم. كنت أكتب عن القومية والأمة والشعب كما لو كنت ماوتسي تونج زماني. درست الجغرافيا والتاريخ لحسابي لا لحساب الجامعة. كتبت عن سوريا وليبيا والعراق واليمن ومصر، ولم أدرك الاختلاف النوعي في العلاقة بين هذه الأقطار، وتاريخ الأمم الغربية. كنت أكتب عن الاتحاد العربي والتضامن العربي وحركة التحرر العربية، أما وحدة الأمة العربية، فكانت شعاراً وأحياناً أكتبها من قبيل السهو والخطأ. كنت أفهم الديموقراطية نفسها على أنها ديموقراطية الحزب الذي أنتمي إليه لاستلام السلطة. وكان ثمن هذه الأسئلة كلها وغياب الجواب، أن غبت مع جيلي خمس سنوات بين الجبل والصحراء، بين معتقل الواحات وسجن أبي زعبل.

وهي السنوات التي بدأت، بمجرد الابتعاد ألف كيلومتر عن حركة الشارع بأعمق انقسام في صفوف جيلي: قسم يكاد يقول بأن عبد الناصر عميل للاستعمار، والآخر يقول

أنه قائد الثورة الاشتراكية. لم أفهم يومها كيف يمكن لكلينا أن يقول هاتين الفكرتين المتناقضتين رغم انبثاقنا جميعاً من «نظرية علمية واحدة». ولكن هذا الذي حدث.

ثم وقعت أولى الهزات القومية العنيفة: انفصام عرى الوحدة بين مصر وسورية. نعم كانت هناك الرجعية، وألف نعم، كان هناك الاستعمار، ولكن أحداً لم ينتبه إلى الجرثومة الغائبة عن وعينا بحضورها الحاسم منذ العام ١٩٥٤. لم ينتبه أحد إلى الديموقراطية المهدورة الدم. لم ينتبه أحد إلى أن هتك غشاء بكارتها كان بداية الطريق الوعر إلى هزيمة ١٩٦٧. كان الجميع قد نسوا جوهر الانتصار السياسي عام ١٩٥٦ وتناسوا أن طريقاً ثالثاً لا بد أن يكون بين الأسود والأبيض. ولكن أحداً لم يكتشف هذاالطريق. وتسببت الأسوار العالية في العكس تماماً، إذ أن إجراءات التأميم الواسعة بين عامي ٦١ و٦٢ والتي توجت بالميثاق الوطني كانت انتصاراً ساحقاً للفريق القائل بقيادة عبد الناصر للثورة الاشتراكية، والذي بدأ ينسجم مع نفسه أكثر بالدعوة الصريحة إلى حل «تنظيم الطبقة العاملة» والانضمام إلى «تحالف قوى الشعب العاملة». وما أن أقبل منتصف عام ١٩٦٤ حتى كنا جميعاً خارج السجون، في عيوننا بريق زيارة خروشوف. وما أن هَل العام ١٩٦٥ حتى كنا جميعاً ــ من كلا الفريقين اللذين دخلا السجن متخاصمين ــ نهرول أفراداً لكتابة «الطلبات» للانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي.

كنا نذبح الديموقراطية، بأن وضعنا «خاتمنا الثوري» على حضورها الغائب. وكنا نذبح تاريخنا الذي يمتد أربعين عاماً إلى الوراء. وكنا نذبح أحلامنا الذهبية في تغيير العالم.

وكنت واحداً بارزاً من الذين حملوا السكين في عملية الذبح. صرت ألمع المنظرين لالغاء الأحلام القديمة وتبرير الوقائع الجديدة. بعت ديكتاتورية البروليتاريا عند أول منعطف وسلمت الديموقراطية لدى أول شرطي. كنت عميداً للنقد الذاتي «الثوري» وأذكى أنبياء العصر الجديد.

لم أكن أدري أن عنوانه سيكون: عصر الهزيمة. فلم يكد يمضي عامان على تنظيري المجيد حتى وقعت مأساة ١٩٦٧. دفعة واحدة رجعنا إلى نقطة الصفر، كما لو أن كل «المنجزات التاريخية» لم تحدث. عاد الاحتلال ليقبع شرقنا في كل سيناء. عاد الباشوات في ثياب جديدة دعاها عبد الناصر بالطبقة الجديدة. وفي محاكمات وانقلابات الأيام القليلة التالية، كانت ألمع نجوم النظام وراء القضبان السرية والعلنية. وكان الطلاب والعمال يفتتحون عام ١٩٦٨ وينهونه بهتاف واحد يصرخ: الديموقراطية.

ومرة أخرى وأخيرة لم ينتبه أحد. لم ينتبه أحد إلى أنه لا تحرير للأرض بغيرها، ولا عدل بين الناس من دونها، ولا وحدة قومية من وراء ظهرها. لا أقول هذا الكلام لكم

الآن بعد أن ضاع الوطن. قلته منذ اثني عشر عاماً حين جاءنا الفرنسي روجيه جارودي مدعوا من جريدة «الأهرام» ليحاضرنا. يومها حاول البعض أن يمنعني من الدخول. ويومها حاول البعض أن يمنعني من الكلام. ولكني دخلت وتكلمت. قلت له: يا سيدي لا تصدق. اشتراكيتنا رأسمالية دولة. ديموقراطيتنا شكل شعبي مضمونه أجهزة المخابرات والرأسماليون الجدد. هزيمتنا بدأت من قبل أن تقع بزمن طويل.

كان ذلك آخر أيامي بينكم. بعضكم قاطعني وتبرأ مني علناً أمام الضيف الفرنسي الذي كان يسمعني بجهاز الترجمة، وأمام الضيوف المصريين الذين كانوا يسمعونني بأجهزة التسجيل.

منذ ذلك اليوم وأنا أبحث عن الوطن الضائع. أنتم تسمونه بحثاً عن الحرية، ولكن الوقت كان قد فات. إنه البحث عن الوطن.

اسماعيل المهدوي
نزيل مستشفى الأمراض العقلية
بالقاهرة منذ العام ١٩٦٨
«طبق الأصل»

ملاحظات على البلاغ الثاني

لا أعرف سر محبة إسماعيل المهدوي لكازنزاكس، وقررت طبعاً أن أزوره. منعوني. قالوا لي: لست قريبته وليس من دليل على أنك كنت زميلته أو صديقته يوماً، فلماذا؟ هل تريدين العودة إلى الصحافة بتحقيق ضد الحكومة تجربه مع مجنون؟

لم أفهم التوتر لدرجة الحنق في كلام المسؤول الذي يحدثني. كنت قد سمعت مثل كل الناس ان الديموقراطية عادت إلى مصر. وظننت أن كل مواطن يستطيع مقابلة أي مواطن حتى ولو كان الأخير في مستشفى الأمراض العقلية.

وبالمناسبة، فكما انني لا أحب الجغرافيا ولا التاريخ، لا أحب السياسة ولا الاقتصاد. وكان دخولي كلية الحقوق خطأ شكرت السماء انها صححته. ومتابعتي لشخصيات هذا الملف بدأت بالصدفة، ولا تعنيني سوى الحوادث في ذاتها بغض النظر عما تدل عليه. فضولية جداً أنا. ولولا ان الأفلام البوليسية وروايات أرسين لوبين وشرلوك هولمز خيالية أي مزيفة لأحببتها. دائماً أحب أن أعرف ماذا حدث وكيف، ثم ماذا. هذه هي كل الحكاية. لذلك اهتممت بمعرفة اسماعيل المهدوي عن قرب لسببين: أولهما، ان له بلاغاً أو رسالة في الملف. ثانياً، لأنه التقى بعوضين ذات يوم. انها فرصتي لأن أعرف سر عوضين وربما شلبية من الشخص الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة بين شخصيات الملف.

ولكنهم منعوني من مقابلته. لم أذكر لكم من بين أسباب اهتمامي بالمهدوي أن صديقي المفاجىء طلب مني أيضاً القيام بهذه المقابلة، لأنني في الحقيقة سعيت إلى المهدوي بدوافع أقوى. فصديقي المفاجىء لا أعرفه، وصرت لا أفهمه. وصلتني منه رسالة أخرى يحذرني فيها من الكتابة إليه على العنوان السابق، فهو لم يكن عنواناً صحيحاً، لأن السجن الذي يقيم فيه هو ليمان طره أو مزرعة طره، لا أذكر. وانه كان يداعبني لأكتب إلى سجن له فيه ذكريات قديمة. المهم انني لم أكن قد كتبت إليه حرفاً. لم أفكر في الموضوع طويلاً. كان

يزورني في الليل بعينيه الزائغتين وشعره المشعث وهندامه غير المهندم وأسمعه يردد في أذني بشفتين مجنونتين: أحب الفن ومضاجعة النساء فأجفل، ولكن بعد أن أكون قد انتشيت به لحظات. وأستيقظ برهة من الاندهاش الصامت الخجول. لماذا رسائله مقتضبة ساخرة؟ لماذا لا يحكي لي عن نفسه حتى أزداد معرفة به، تعويضاً عن لقائنا المستحيل. ولكنه يطلب مني زيارته في السجن. كيف يسمحون لي، وهم رفضوا زيارتي للمهدوي؟

والتمعت في ذهني فكرة: ولم لا؟ سأزوره إن كان ممكناً وليكن ما يكون. فوجئت بموافقتهم على الزيارة. كانت العين الزجاجية التي تعريني دون أن أراها تصادفني بين الآونة والأخرى في أوقات لا أتوقع فيها تلصصاً على الإطلاق. حين وجدتني في زحمة الزوار على باب السجن رأيتها ولم أر صاحبها كالعادة. ولكنها هناك. كنت أدرك عيون الدهشة التي تقتحم سريرتي من الزائرين والزائرات. يرونني بينهم لأول مرة. بينهن صداقات حميمة أثمرها الزمن من لقاءات أبواب السجون والمحاكم وأقسام الشرطة وربما البيوت. أهالي المساجين بينهم علاقات تولد وتنمو وحدها. أنا هنا غريبة. لم ينقذني من نظراتهم إلاّ سيدة جرؤت وسألتني عن إسمي لأنها رأتني في المحكمة ذات يوم. زفّت إليهم البشرى بأنني الصحفية المعروفة. فرحوا بـي كأنهم يعرفونني حقاً. قبل أن يسألوني عما إذا كنت قد أتيت لعمل «ريبورتاج» عن السجن كانت البوابة قد فتحت ونودي على الأسماء. لدهشتهم ودهشتي كذلك سمعت إسمي. زائرة إذن لا صحفية. من يكون قريبها؟ بسرعة كنت أمام حاجز من السلك. كدت لا أعرف صديقي المفاجىء. يرتدي ثياباً عجيبة، ولحيته نابتة دون ترتيب. هو الذي ناداني. ارتبكت. فتحات السلك ضيقة، ولا أدري كيف تسللت منها الأيدي والسندويتشات والقبلات والدموع والضحكات والكلمات. ملايين الكلمات دخلت وخرجت وصنعت حواجز أخرى من الضوضاء والأجساد البشرية. لم يكن الهمس مجدياً في هذه الحال. أخذني المشهد على نحو لا يصدق. بهرني. أضاعني. وضعت ابتسامة على شفتيّ بصعوبة. التحم وجه صديقي المفاجىء بالسلك وكأن عينيه ستخرجان من محجريهما. قال لي بصوت مشروخ: ازيك، وحشتيني. قلت بصوت سارح: وانت كمان. سألني بسرعة تشي بأن الزيارة تكاد تنتهي: قابلتيه؟ فهمت وقلت بسرعة مماثلة: لا. هل تعرف أحداً ممن يعرفونه. طلب أن أقرِّب أذني من السلك. خيل لي أنه يملي عليّ رسالتين في وقت واحد، إحداهما بصوت عال والأخرى بصوت منخفض: أنت كسلانة لا تكتبين لي، ولكن زوروني كل سنة مرة، يعني كل شهر. اذهبي إلى فلان في المكان الفلاني سيساعدك. ارتجف قلبي لحظة. كانت العين التي بلا رموش هناك. هل تسمع أيضاً؟ أكيد سمعت الجملة الأولى، فهل سمعت الثانية؟ لا أعرف. فجأة برز العسكريان يصرخان ان انتهت الزيـارة. تشبث

المسجونون بالسلك قليلاً. طلب مني أن أميل أذني ثانية بسرعة البرق. لم يقل شيئاً هذه المرة. أحسست بسخونة شفتيه تبلل طرف أذني فانتقلت السخونة إلى وجهي كله وأنا أهرول مع بقية الزوار إلى الخارج.

في العودة نجحت ألا يرافقني أحد من الأهالي، حتى أتجنب الإحراج لو سألني شيئاً. كانت مشاعري نهباً لانفعالات شتى، وأفكاري سارحة في تناقضات بدت لي بلا نهاية.

وصرت مهمومة بأكثر مما كنت أتوقع في حياتي من هموم. في الماضي كنت أشكو الوحدة وأحياناً الفراغ. لم أعرف العلاقات الحميمة أبداً ولا الحوادث الشخصية المثيرة، ولا الحماس المفرط لأفكار أو قضايا، ولا العواطف الحارة المنحازة هنا أو هناك، لنبأ من الأنباء أو شخص من الأشخاص أو حدث من الأحداث. لم أكن باردة أو لا مبالية كما «اجتهد» البعض من أفراد أسرتي وزملائي في تسميتي. ولكني بالتأكيد كنت «محايدة» ولا أزال، عن غير فلسفة أو فكر أو تأمل. هكذا أنا. انفعالي الوحيد هو اللهاث وراء «السر» أياً كان ومهما كانت دلالته أو حجمه أو أثره. الفضول هو انفعالي الوحيد. حتى بعد أن طبع صديقي قبلته السريعة على أذني من وراء السلك، كان اهتمامي كله محصوراً في معرفة لماذا وكيف ثم ماذا، إلى غير هذه الأسئلة التي أريد من ورائها معرفة «سر» هذا الرجل الذي لا يعرف عني شيئاً، ومع ذلك يجازف بالتعرف عليّ والثقة فيّ. وأنا ماذا أعرف عنه سوى انه سجين وفنان ويعشق المرأة (تهذباً أقول ذلك فهو يصر على أنه يعشق مضاجعة النساء) والإضافة الوحيدة أنه يعرف اسماعيل المهدوي ومهتم به.

ذهبت إلى الإنسان والمكان اللذين نصحني بالتوجه إليهما. ولم أحصل من الاتصال غير المباشر بالمهدوي على شيء مهم، فقد ذكر لأصدقائه أنه لا يعرف شخصاً باسم عوضين أو شلبية. أما المهندس المثقف الذي استشهد في حرب ١٩٦٧ فهو يذكره ولكنه لا يتذكر اسمه. النقطة الوحيدة التي طلب المهدوي أن ينقلوها إليّ هي أنه في الأسر منذ عام ١٩٦٨ لا عام ١٩٧٠ كما يشيع البعض ربما عن حسن نية، وان الرئيس عبدالناصر لم يصدر أمراً باعتقاله في ذلك الوقت ولكنها «الأجهزة» التي تحايلت بالمستشفى العقلي بديلاً عن السجن.

اطلعني أصدقاء المهدوي على «مخطوطات» هي بعض رسائله إليهم تبرهن بالدليل القاطع على أنه يتمتع بكامل قواه العقلية. ولأنهم أدركوا أن علاقة ما تربطني وصديقهم (صديقي؟) الفنان السجين، فقد اطلعوني أيضاً على بعض أعماله الفنية. وشعرت بما يشبه الجواب على سؤالي الكامن حول ما يربط الفنان والمهدوي، فالعلاقة واضحة تقريباً في «أعمالهما» الفنية والفكرية. بل إنني لمحت هذه العلاقة تربط بينهما و«عمل» عوضين أي حياته وموته.

ليست مهمتي هنا، أن أستعرض هذه الأعمال، ولكني سأوجزها بطريقة هندسية (أنا الخائبة طيلة أعوام الدراسة في الجغرافيا والتاريخ والسياسة والاقتصاد، وأيضاً الهندسة والحساب والجبر). لنتصور أن عمل كل من الثلاثة في مجالاتهم المختلفة كان خطاً بيانياً يبدأ من نقطة عند السفح ولا ينتهي عند الذروة، فما يكاد يتاخمها حتى يبدأ في الانحدار من الجهة الأخرى حتى السفح من جديد، ولكن نقطة البداية تبعد عن نقطة النهاية مسافة ترسم قاعدة للمثلث. هذا هو جوهر التشابه من حيث الشكل في أعمال الثلاثة: صعود ثم هبوط. الوجه المشترك الآخر أن أعمالهم هي حياتهم وربما كانت حياتهم هي أعظم مؤلفاتهم. لا نعرف أين يبدأ الخاص في حياتهم وأين ينتهي ليبدأ العام أو ينتهي. هناك ضفيرة غريبة من خصوصياتهم وقضاياهم العامة. لذلك لا نعرف على وجه الدقة ما هو السبب وما هي النتيجة، هل الحياة الخاصة كانت السبب في هذا الصعود أو ذاك الانحدار، أم ان الحياة العامة التي عركوها هي السبب؟ المهم ان المثلثات الثلاثة (أو ما أتصوره تطور أعمالهم وجوهرها) كانت تشكل أمام عيني هرماً لا علاقة له بخوفو أو خفرع أو منقرع. هرم من الأحلام والخيبات والطموحات والانكسارات والصبوات والهزائم والأشواق المحيطة. حاولت بصعوبة أن أعبر عن فكرتي، كما بدأت، بالرسم.

طبعاً، لم يكن مثلث القاعدة ولا مثلث الهرم نفسه متساوي الأضلاع ولا مستقيم الأضلاع وفقاً لما استطعت تخيله عن حياة وأعمال كل منهم. وقد حلا لي أن أرسل «الهرم» إلى كل من المهدوي وصديقي السجين. للأول كتبت رسالة قلت فيها إنني أكتب رواية من نوع جديد، وهذا هيكلها العام. وأعطيته بعض الأوصاف التي تبعد الشبهة عن انني أستلهم حياته في كتابتها. وهذا ما قلته أيضاً لصديقي في السجن وأنا أناوله ساندويتش بداخله الورقة وقد همست له بسرعة أن يلتفت إليها وأن يأخذها بحذر. كانت العين المعدنية التي لا أراها هناك، وفي لحظة تصورت انها انشغلت عني أعطيته وقلت له ما أريد.

وكم كانت سعادتي طاغية حين وصلني الرد منهما في أسبوع واحد. وكانت مفاجأة أذهلتني تماما عن وعيي حين وجدتهما يتفقان في التعليق على ما رسمت أو كتبت اتفاقاً مطلقاً. كتب المهدوي بخط عريض كما لو كان يرسم «انه الهرم الناصري»، وكتب صديقي الفنان كلمة واحدة على الأوجه الثلاثة للهرم هي «عبدالناصر». وأحسست بسيخين يكويان أحشائي، وهما يكتبان هذا المعنى. سيخان يكويان حيادي المزمن. عشت حياة البقول طوال عمري. معذرة للبقول فهي تحس وتشعر على نحو ما. أنا أيضاً أحس وأشعر ولكني لا أتخذ موقفاً مع أو ضد. لا ينقصني الفهم ولا المصلحة. ولكني المحايدة الأبدية التي لا تنجرف مع الأحداث أو العقائد أو البشر، وتكتفي بالجلوس في برج المراقبة والرصد بالتلسكوب. هل هو الخوف

الفطري؟ لا أعتقد فحتى الخوف لا أشعر به، كأني الإنسان الآلي. لا،لست مثله، انهم يملأونه بالمعلومات كما يريدون هم، يوجهونه حسب مشيئتهم. أنا لا. لا أتحرك وفقاً لمخطط أحد. الآخر يعني الانحياز سلفاً بدرجة أو بأخرى.

ولدت عام حركة الجيش تماماً، فأنا الابنة البكر لجيل الثورة، أو الجيل الناصري كما يسمونه. كان عمري أربع سنوات حين وقع العدوان الثلاثي. وكان عمري ست سنوات حين ابرمت الوحدة بين مصر وسورية. وكان عمري تسع سنوات حين وقع الانفصال. وكان عمري خمس عشرة سنة حين وقعت حرب ١٩٦٧ وكان عمري ثمانية عشر عاماً حين مات عبدالناصر، وأنا على أبواب السنة الأولى من كلية الحقوق.

هذه هي الأحداث التي أتذكر الأخيرة منها جيداً: الهزيمة وموت عبدالناصر. وطبعاً كنت أسمع عن التأميمات والسد العالي والاخوان المسلمين والشيوعيين والاتحاد الاشتراكي والإصلاح الزراعي ومجلس الأمة ثم مجلس الشعب. ولكني لم أتحمس قط مع أو ضد هذه العناوين. وكنت أشاهد المظاهرات عام ١٩٦٨ مبهورة من بعيد. وشاهدت جنازة عبدالناصر مبهورة من بعيد. لم يتغير شيء في بيتنا من هذا كله. كان أبـي موظفاً صغيراً في وزارة المالية، وكنا نشتري من البقال ما نحتاجه على الحساب. والحساب يجمع آخر الشهر فلا يبقى من مرتب والدي سوى إيجار بيتنا في حي السيدة. أحياناً ندفعه وأحياناً نؤجله. أمي الصغيرة الجميلة التي أتى بها أبـي من الريف كما حكت لي، كانت تجيد الخياطة. ولكن ثياب أهل المدينة تختلف عن ثياب أهل الريف. أخذت وقتاً حتى تعلمت عند خياطة أخرى، ثم استقلت بماكينة سنجر في البيت. كان أبـي حريصاً على ألا يعرف أحد من أصدقائه أو زملائه بأن أمي تجيد الخياطة، لا أدري لماذا وقد كان من الممكن أن تقوم أمي بخياطة ثياب زوجاتهم ويزيد الدخل. لم يكن أبـي يدخن ولكنه كان مريضاً دوماً بداء الربو. لم يكن يشتري الدواء ولم يكن يدخن، ولكنه كان يحب الذهاب إلى المقهى الشعبـي المجاور ليتفرج على أصدقائه وهم يلعبون الزهر. قبل أن يموت عبدالناصر بأكثر من شهر حملوا أبـي إلى البيت ميتاً. قالوا، كان يضحك على رمية زهر ثم اشتعل حلقه بسعال متصل حتى مات. هكذا في ثوان. ارتديت مع أمي السواد، وبقيت هي على هذه الحال، أما أنا فلم أستطع. أخي الأصغر مني وأختي الأصغر منه، بقيا في المدرسة لأنها مجاناً، ولكن الحياة أصبحت ثقيلة مضنية. وكدت أن أحصل على عمل ولا أدخل الجامعة لولا أنها كانت مجاناً، ولولا أنني لم أحصل على العمل.

كانت حياتنا صعبة حين كان أبـي لا يزال حياً، ولكنها كانت تمضي. لا أتذكر يوماً فرحناه أو انتشينا به، حتى في الأعياد. ولكني لا أتذكر يوماً لم تفرج فيه أو انسدت الأبواب

تماماً. كانت ماشية. كانت الأسعار ترتفع أحياناً ولكن «علاوة معيشة» كانت تعدل الحال. ترقيات أبـي كانت شحيحة لأنه لم يحصل إلاّ على الابتدائية. ولما مات أضحى مرتب التقاعد لا يقيت طفلاً، والمصاريف هي هي بل والأسعار ترتفع. في زيارات زملاء والدي لنا عقب الوفاة قالت أمي لزوجاتهم انها خياطة وبكت. جاؤوا لها بالقماش ولكن أغلبهم كانوا فقراء مثلنا. جاءت لي أمي يوماً وقالت: الخياطة لم تعد تنفع. الفقراء يخيطون لأنفسهم والمتوسطون يشترون الثياب الجاهزة القادمة من لبنان والكويت. الدنيا تغيرت. الأسعار بقت ولعة. لازم نفكر في حل.

انصت إليها باهتمام. استرسلت دون أن تشعر انها قطعت الصمت: لازم نفكر في حل. ثم التفتت إليّ بنظرة باغتتني وكأنها تتخذ قراراً يقول بلسانها: فيه واحد بيه عاوز مربية لأولاده. كلموه عني. وافق. إيه رأيك؟ ذهلت، لم أصدق. أمي ستعمل خادمة إذن. كانت هذه الشغلة انتهت. أمي لم تعد صغيرة، ولكنها ما زالت جميلة-وقوية. رغم القحط بقيت محتفظة بقوتها وظلال سحرها القديم. أردت أن أصرخ، أن أبكي، أن أضرب رأسي في الحائط. جاءني صوتها كأنه من بعيد. حتى وجهها رأيته كأنه بعيد بعيد. ليس لدينا ما نبيعه، والبنت والولد لا يقدران على العمل، أي عمل. كأنها تقرأ أفكاري قالت: وانت كمان عليك أن تكملي دراستك. هانت. والأيام تجري. وشهادتك ستكون فيها البركة. ستعود أيام أبوك وأحسن. لم أتكلم طول الوقت. ولو بقيت لحظة واحدة لأغمي عليّ أو لأصابني انفجار في المخ كما يقولون. خرجت دون كلمة. خرجت كأني أهرب. ومشيت مذعورة كما لو أن أحداً يطاردني.

يطاردني؟ وهل أخجل من الاعتراف بأن أحداً لم يطاردني طيلة حياتي؟ كنت مشهورة بالخجل والأدب والأخلاق، ولكن هل ذلك ان صح يمنع كلمة غزل أو غمزة عين أو ابتسامة ذات مغزى؟ لم يحدث. هل أنا قبيحة؟ ربما. ولكني مقبولة أعتقد. جمال أمي أخذه أخي. وسامة أبـي القديمة أخذتها أختي الصغيرة. أما أنا، فلا أدري من أين جئت بهذه السحنة البعيدة عن أبـي وأمي. ربما أخوالي أو عماتي أو أحد الجدود. ربما. ما ألاحظه بحياد في المرآة هو إنني لست بشعة، ولا جميلة. ثيابـي كانت تخيطها أمي. لم أعرف الماكياج إلاّ مرة واحدة بالصدفة، كنت عند إحدى زميلاتي، وحين غامرت بوضع الأحمر والبودرة صرت بشعة فعلاً. غسلت وجهي بسرعة، وضحكت مني صديقتي.

مشيت ومشيت ولم أشعر بتعب بل بالجوع. وحين عدت لم تكن أمي في البيت. قال أخي انها راحت السوق. انتظرتها حتى وصلت لتقول لي بنصل السكين: قبلت العمل. وحين عدت إلى البيت ذات يوم أكاد أطير من الفرح لأنني سأعمل بالصحافة مرة واحدة

فرحت أمي وقالت: عال. سيدخل البيت راتبان، واحد مني وواحد منك، وستدخرين لمستقبلك كعروس إن شاء الله. صرخت بلا وعي: ماذا تقولين؟ سأعمل، وأنت ستتركين العمل. ستعودين إلى البيت. حتى الخياطة لن تعودي إليها. ولأول مرة يعلو صوت أمي: أنت مجنونة. الخياطة مستحيلة بعد أن تفرق الزبائن. أما عملي فلن أتركه طالما كنت أقدر عليه، من أجل أخيك وأختك.

لن أنسى أنها كانت على وشك أن تضربني حين انهمرت عيناي بالبكاء. تركت لي البيت. ولا أعرف متى عادت. ها أنذا الآن شبه عاطلة عن العمل والدراسة، وأمي هي التي تعولنا جميعاً. جحيم الأسعار نيران ترتفع ألسنتها إلى السماء. والحال كما هو. أحياناً أتساءل: وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن أبي لا زال حياً، كثيراً ما سألته وأمي عن حياتهما قبل أن أولد. وأقارن بين تلك الفترة التي يسمونها الملكية وبين الفترة التي تلتها حتى وفاة أبي وعبدالناصر ثم الفترة التي نحياها ونموتها الآن، وأجزع من أنني لا أجد في حياة أسرتي فارقاً يذكر. ربما كان هذا هو سر الأسرار في تكويني الحيادي المزمن. وربما كان السبب أنني لا أجيد المقارنة بين العصور لأنني لا أحب التاريخ، أو أنني لا أبصر الفوارق لأنني لا أحب الاقتصاد، أو أنني لا أرى غيري ومن حولي لأنني لا أحب الحساب.

وربما لا أكون جميلة، ولكن لماذا قبلني الفنان الأسير في طرف أذني فألهب وجهي كله؟ لست جميلة بالتأكيد، فلماذا قال لي أنا انه يحب مضاجعة النساء؟ هل هي حياة السجن تدفعه إلى الهيام بأية امرأة؟ ربما. في الزيارة الأخيرة كان جاداً أكثر مما هو في أحواله الطبيعية. قال لي: لقد رسمت الهرم. رسمته فقط، ولكنك لا ترين سوى المثلث. لا تعرفين سوى السطح، سطح الأرض، أما البناء، الهرم نفسه، فقد رسمته فقط. كأن الهرم هو المثلث. لا. الهرم بناء والبناء حياة وموت وبشر ودم وعرق. درست قناة السويس في الكتب. القناة كما تقول الكتب مجرى مائي أو ممر للملاحة. وهذا صحيح. ولكنها أيضاً وأولاً آلاف السواعد التي حفرتها وماتت والتي دافعت عنها وماتت. بقيت القناة بقاء مصر ولكن مصر ليست الوادي الأخضر حول النهر الممتد فقط. انها ملايين السواعد والعقول والقلوب التي صارعت وتصارع من أجل الحياة. قاطعته بابتسامة من وراء السلك: لقد فهمت فنك. فهمت قولك لي انك فنان فقط وما يمكن أن تقوله لي الآن عن «الفنان» فهو ليس كذا فقط بل هو أيضاً كذا وكذا.. إلى آخره. قال لي والعسكري يصرخ لانتهاء الدقائق الخمس المخصصة للزيارة: الاهم أن تفهمي الهرم الذي رسمته.. فقط.

في طريق العودة كنت أفكر: الهرم الناصري، سماه المهدوي. عبدالناصر، قال صديقي.

□ □ □

البلاغ الثالث (١)

إسمي جمال عبد الناصر حسين.

قلت للحاجب الذي ظننته حارساً لمفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني: انني صديق شخصي للإمام، وأرجو أن تأخذني إليه على الفور، إذا لم يكن لديه ضيوف. وضعني في صالون مغلق بمفردي، وذهب.

لا أدري، كم من الوقت فات. ولكن شريطاً مكثفاً من الأحداث والشخصيات والرجال دار في مخيلتي بانتظام عجيب، خلال تلك الغفوة التي اقتحمتني بصالون صغير للانتظار، فأنا لم أنم طيلة الليلتين الماضيتين.

ومن الطريف أن أول الشريط كان ثلاثة كتب. اثنان منها عن فلسطين، للجنرال دايجل واللنبي، والثالث كتاب «اليقظة العربية» لجورج أنطونيوس. أعيد في غفوتي قراءة وعد بلفور البريطاني عام ١٩١٧ واستعيد فقرات عن موقف الغرب من النهضة العربية التي بدأت بمحمد علي، وأحاور بالذات إبنه ابراهيم.

ثم انتقل إلى منقباد حيث عينت في ثكنتها ملازماً بمجرد التخرج، وأتذكر العدس والكستناء وقصب السكر والسهرات الصامتة مع بعض الزملاء الذين تغلي أعماقهم كمرجل. وسرعان ما انتقل إلى الخرطوم ملازماً أول، أي من «جبل شريف» إلى «جبل الأولياء» حيث العمل هنا عقوبة تنزل بالمخلصين أصحاب الضمير الحي. حسن النشار يا صديقي. نحن الآن في مايو ١٩٤٠ ولعلك تذكر الاصلاحات التي كنا نحلم بها معاً كي نستطيع تنفيذها خلال عشر سنين، يخيل إلّي أن ألف سنة لا تكفي لذلك.

ينقلونني إلى العلمين، فأرى وجهك أيها المقدم وجيه خليل، يا رئيسي الوحيد الذي أحببته، لكنك أنت أيضاً تحلم بالخلاص على يديّ هتلر. وها هو ذا فبراير ١٩٤٢ المشؤوم يصل بزعيم الأغلبية إلى الحكم فوق الحراب البريطانية. مهما قيل في الملك، أين كرامتنا؟

الكرامة. نعم. هذه هي القضية. والكرامة هي الوطن. إذا لم يكن فاروق راغباً في تولي النحاس للحكومة، فكيف يقبل رفيق سعد أن يفرضه الانجليز على الملك بالدبابات؟ يا للإهانة يا وطني. ولكن ها هو ذا ضابط تجاوز مرحلة الشباب، جمع في جلده بين مصر والسودان يستقيل من الجيش احتجاجاً. وفي سبتمبر يتأكد الجميع أن روميل ابتعد عن أبواب مصر. أما أنا فأعين أستاذاً في الكلية الحربية، واستعد في الوقت نفسه لامتحان الدخول إلى كلية أركان الحرب. ثم ألتقي شريكة حياتي فأتزوجها وأصبح أباً...

ويفتح باب الصالون الصغير فجأة فأستيقظ كما لو كنت في سبات، وأدخل على الحاج أمين الحسيني وأقول له: لقد قسموا فلسطين لا بينهم وبين العرب، بل بينهم وبين أنفسهم. إن قرار الأمم المتحدة يصوغ الكيان الصهيوني في دولة يعترف بها العالم، ولا يفعل شيئاً في أي من بنوده لإقامة الدولة الفلسطينية. انني وغيري من الضباط الشباب نريد التطوع للقتال رغم أنف الحكومة.

ويهز الرجل رأسه فخوراً وحزيناً. ولا أدري كيف حدث ما حدث. كل ما أدريه أن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وفشل انتفاضة ٢١ فبراير ١٩٤٦ وامتناع بريطانيا عن تحقيق الوعد بالجلاء وإنجازها في الوقت نفسه وعد بلفور، برهنت هذه كلها، للسراي والباشوات أن الأمور أوشكت على النهاية، خاصة وأن السخط في صفوف القوات المسلحة بدأ يتسرب إلى الدهاليز والأوكار. هكذا أقبلت حرب فلسطين كمعجزة يحلم البعض ممن يسكنون القصور أن تكون سفينة الانقاذ.

في ١٦ مايو ١٩٤٨ غادرت منزلي لإلتحق بالجبهة. ملحمة من الأمجاد والنذالات كانت الحرب. ملحمة من الكشوف والرؤى. ملحمة من الموت والولادة.

كانت أخبار الزحف على موقع ما تصل إلى صحف القاهرة، قبل أن تصل أوامر الزحف إلى غرفة العمليات في الميدان، حتى يسجل سادة العاصمة نصراً وهمياً أمام المواطنين، ويساق جنودنا إلى المسلخ. ليست القضية في الأسلحة الفاسدة، بل في الحكم الفاسد حتى الدم والعظم. كانت فلسطين صورة مصغرة لمصر، وصورة مصغرة للعرب. وكانت الأرض تحت أقدامنا لا تنفجر بالألغام القاتلة وحدها، ولكن بالألغام المضادة للموت أيضاً. ما أكثر الأسئلة الحائرة التي اكتشفت أجوبتها، ونحن نهاجم ونحن ندافع ونحن نذبح ونحن نقتل ونحن محاصرون. كانت الأجوبة كالضياء المفاجئة في ليل مدلهم.

كان الجواب الأول، ولا زالت الحرب في بدايتها، ان الطريق إلى فلسطين يمر بالقاهرة.

وكان الجواب الثاني، والحرب توشك على نهايتها، أن حدود مصر هي حدود العرب مجتمعين.

وكان لكل جواب مسؤولياته ومعانيه وتفاصيله. وكان له أيضاً رجاله الذين كنت أتحسس ملامحهم في منقباد والخرطوم والعلمين، فإذا بي معهم في القتال والحصار نزف الدم للدم في قسم غير مسموع على أن نكون أصحاب الجوابين. كنت قد قرأت أسطورة تحكي عن مدينة «طيبة» التي يقف ببابها وحش يطرح سؤالاً ـ لغزاً على كل من يغامر بالرغبة في دخولها، فإذا لم يجب أكله الوحش. إلى أن أقبل أحدهم وحل اللغز فانتحر الوحش على الفور وخلصت المدينة وأهلها للأبد. كنت أقول في نفسي: أليست مصر فالوجا أخرى أكبر حجماً وأوسع نطاقاً، إن ما حدث هنا هو انعكاس لما يحدث في بلادي؟ وكانت دماء أحمد عبد العزيز الذي سبقنا إلى التطوع تناديني. وكانت دماء سيد طه من قادة الدفاع عن الفالوجا تناديني. وكانت وجوه «الرجال» الذين استودعتهم سري واستودعوني أسرار قلوبهم تناديني.

كان الرجال هنا، كالرجال هناك خلف سيناء إلى الغرب، من أبناء الفريق الذي استهواني بالتصميم على قلب الأوضاع كلها رأساً على عقب. وكانوا أيضاً كالرجال هناك موزعين بين غالبية تتجه يميناً وأقلية تميل يساراً. ولكن «الجيش» طبع الجميع بطابعه الخاص.

وللمرة الأولى أيضاً تتضح لي همزة الوصل بين الإسلام غير المتعصب، ومصر غير الاقليمية، والعدل غير الراطن بلغات أجنبية. أي أن همزة الوصل كانت حذفاً لتعصب «الأخوان» ورطانة «الرفاق» وشوفنية «القمصان الزرق». وكان الحذف جهداً مريراً مضنياً لازمني منذ تلك اللحظة التي أقسمنا فيها نحن الرجال القليلي العدد على تحرير فلسطين بدءاً من تحرير القاهرة. كان جهداً يشبه الهول، لأنه كان جهداً شاملاً على كافة المستويات، لتبديل قناعات وتعديل التزامات، وترتيبات جديدة للفكر والسلوك.

كنا، في المظهر الخارجي، جيشاً مهزوماً. وفي الحقيقة، طليعة منتصرة على نفسها. كانت الهدنة، وهدنة الهدنة، والانسحاب وانسحاب الانسحاب. في صدري جرح ترك ندبة ظاهرة، وفي قلبي دقات تتسارع وتيرتها كلما اقتربت كتيبتي من القاهرة. رأيت اليهود وجهاً لوجه، تبادلنا القذائف والجثث. أذكر الضابط إيجال آلون وهو يحدق في مقلتي، لا أدري لماذا. وأذكر الضابط الأسمر وكيف عاد إلى القوات المسلحة ليشارك في حرب فلسطين بشجاعة فائقة. وأذكر أننا مقبلون على «المجهول» الأعظم.

كان المجهول يطاردنا ونطارده في الاجتماعات السرية التي نعقدها في بيت أحدنا، وفي الهمسات التي تصلنا عن وشايات مثيرة تدق أذن القصر عن بعض المتمردين من الضباط الشباب. وفوجئت ذات يوم بمن يطلبني لمقابلة إبراهيم باشا عبد الهادي رئيس الوزراء. كانت مفاجأة بكل معاني الكلمة، فلم يسبق لأي مسؤول أن طلب مقابلة ضابط في مثل رتبتي. وفهمت أن أجواء السراي ملبدة بغيوم كثيفة، فقد سألني الباشا عما إذا كنت أشعر باستياء أو غضب في أوساط الجيش. دق قلبي بصوت اعتقدت أنه يسمعه. ولكني تمالكت أعصابي حتى النهاية، إذ وثقت من أن اختياري للسؤال لم يكن اختياراً مخططاً أو عشوائياً، بل هو اختيار يجمع بين «الصدفة الأمنية» كما تسميها المخابرات العسكرية، و«التقييم الانضباطي» لضابط أركان حرب، غير أنني في جميع الأحوال، وأياً ما كانت الأسباب، خرجت من اللقاء، وكأنه تحذير أو إنذار.

طبعاً، كانت الأحداث نفسها تحمل في طواياها كل دواعي الحذر.

كانت الاغتيالات قد أصبحت مثيرة للريب والشكوك. اغتيل رئيس الوزراء أحمد ماهر، اغتيل الوزير صديق الانجليز أمين عثمان، وأخيراً اغتيل حسن البنا زعيم الأخوان المسلمين. وتمت الاغتيالات كلها في وضح النهار وفي أكثر الأماكن أماناً.

حتى أنا أصابتني حمى الاغتيالات، وهي ضد طبيعتي وتكويني، فاشتركت في محاولة اغتيال حسين سري عامر رجل الحرس الحديدي للملك والمرشح لرئاسة نادي الضباط. ولم أنم الليل كله مصلياً ألا يكون الرجل قد قتل. وكانت فرحتي غامرة حين قرأت صحف الصباح وإذا به لا يزال حياً.

وكانت انتخابات نادي الضباط فرصة الرجال لإثبات وجودنا في مواجهة القصر.

تذكرنا الضابط الكبير الذي يجمع بين مصر والسودان كما جمع بين شجاعة الاحتجاج على حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وشجاعة القتال في فلسطين. اللواء محمد نجيب. كان ذلك هو الاسم الذي اتخذناه رمزاً للمقاومة، ومعه قائمة من رجالنا، كلهم نجحوا في الانتخابات نجاحاً جعلنا نشعر في العمق بأن الجيش معنا. وجعل القصر يستيقظ أكثر فأكثر.

ولكنه راح يهرب إلى الأمام. دعا إلى انتخابات جديدة، هو يعلم أن «الوفد» سيعود. ولكنه بالتأكيد لم يكن يعلم أن الوفد الذي وقّع على معاهدة ١٩٣٦ هو نفسه الذي سيلغيها من طرف واحد عام ١٩٥٠ وأن هذا الالغاء سيكون شرارة المقاومة الفدائية الرائعة على ضفاف القنال.

رغم جراح الكرامة الوطنية المهدورة عام ١٩٤٢ فقد وقف الناس جميعاً إلى جانب الوفد، أي إلى جانب الكفاح المسلح في السويس والاسماعيلية.

ورحت مع الرجال نسرق الأسلحة والذخيرة من مخازن الجيش ونعطي الفدائيين. ورحنا ننظم البعض منا في خلايا التدريب على القتال، والبعض منا شارك وقاد الكثير من العمليات.

عادت إلينا الروح. خاصة وأن المدنيين تحولوا إلى كتلة من لهب. إلى أعمدة صلبة من النار والدخان. وتحول الانجليز إلى أسطورة هاوية. كانت الضحايا تسقط بالعشرات، ولكن المعنويات تعلو وترتفع لدرجة مذهلة. أين كان هذا الشعب الذي وصفوه بالصبروأحياناً بالخنوع؟ أين الصراع بين الشيوعيين والاخوان ومصر الفتاة؟ كلهم يد واحدة وبندقية واحدة وصوت واحد يهتف لمصر.

هل نستغل الموقف ونقوم بحركتنا؟ اجتمعنا لنجيب عن السؤال، فإذا بالرجال يحولون الاجتماع إلى سؤالٍ آخر مختلف لم يخطر على بالي. انتخبوني رئيساً لهم بالاجماع. لماذا؟ تساءلت لحظة، امتدت بعدئذ إلي ليلة من السهاد والأرق.

كان الاجتماع الثاني أقل هدوءاً وأكثر انفعالاً: ومتى؟ حددنا العام ١٩٥٤ موعداً نهائياً، حتى لا نفسد الحركة الشعبية المتعاظمة ضد الاحتلال. صحيح أن البريطانيين يخسرون، ولكن قواتهم وأساطيلهم كبيرة لا تنتهي. ولا بد من إجلائهم أولاً قبل أن نجتث جذور الفساد. لا أعرف لماذا تراءى لي إبني البكر خالد. دعوته بهذا الاسم تيمناً بأقرب الرجال إلى عقلي: خالد محي الدين. أما عبد الحكيم، فقد سميته بإسم أقربهم إلى قلبي: عبد الحكيم عامر. وتذكرت تحية، الزوجة الحنون التي عرفني عبد الحكيم بشقيقها فكانت القسمة والنصيب.

تدفقت المشاهد غير المترابطة على ذاكرتي، وأنا أحمل في سيارتي الصغيرة الأوستن السوداء بعض الذخيرة إلى رجل من الاخوان المسلمين لتوصيلها إلى أحد معسكرات القتال، وأحمل أيضاً بعض المنشورات التي كتبها خالد وطبعها لدى أحد التنظيمات الشيوعية، بعد أن راجعتها بنفسي. ها أنذا أتذكر خالد حين اصطحبني إلى زعيم شيوعي بهرني منطقه ولغته ووطنيته وقدرته على التحليل الذكي، وحين خرجت سألت خالد: ماذا يعمل هذا الرجل في الحياة غير السياسة؟ أجابني: انه عامل ميكانيكي. لم أخف صدمتي على صديقي فقلت له شبه مستاء: كيف يمكن لمثلك أن يقوده ميكانيكي؟ وضحكنا. كما ضحكنا معاً، حين قلنا للاخوان المسلمين إننا سننضم إليهم فماذا نفعل. أخذونا إلى معسكر للتدريب على إطلاق المسدس. خرجنا ولم نعد.

أوصلت «الأمانات» إلى أصحابها. عدت سالماً. ولكن القاهرة في اليوم التالي ــ ٢٦ يناير ١٩٥٢ ــ لم تعد سالمة.

كانت عاصمة أم الدنيا تحترق.

كم كتب عن «حريق القاهرة» وكم سيكتب. اتهم فيها جميع الناس، بمن فيهم أنا. ليكن، فأنا لست أبرىء نفسي مما وقع، ولكن على نحو اخر ومختلف عن التفسير البوليسي «للمؤامرة» كما دعوها. إذا كان المقصود بالاشتراك في حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ هو المشي في المظاهرات أو التحريض عليها أو الامساك بالمواد المتفجرة وتحطيم دور السينما والملاهي، فأنا بريء من ذلك كله، ولا علاقة لي به. أما إذا كان المقصود هو اشتراك شعب كامل في تقويض نظام كامل للحكم، فإنني بالطبع أحد أبناء هذا الشعب.

ولكن الشعرة رفيعة جداً بين «الجريمة» و«الثورة». وفي حريق القاهرة اختلطت الجريمة بالثورة، للدرجة التي تعذر معها على المؤرخين والأكاديميين والقانونيين أن يحددوا بشكل نهائي من هو المسؤول أو المسؤولون عن حريق القاهرة.

الوطنيون قالوا أن السراي والانجليز هم الذين أحرقوا عاصمة مصر. الشيوعيون أضافوا الاخوان المسلمين وأحياناً «مصر الفتاة». والبعض قال أن «الوفد» متواطىء. وبعض البعض قال أنهم الضباط الأحرار. وأجدني أقول مرة أخرى، ليكن. فالأهم من ذلك كله هو وضع الحدود بين الجريمة والثورة. فليست هناك شرارة واحدة لحريق القاهرة، بل أكثر.

وكنت مع الرجال في أواخر صيف ١٩٤٩ بدأنا ننفض عنا رداء المصادفات والانفعالات والتشرذم، وشرعنا في تكوين الخلية الرئيسية لتنظيم الضباط الأحرار حيث اختاروني رئيساً كما سبق أن أشرت. وكنا نتابع «الشرارات» التي راحت تندلع منذ نهاية الحرب في فلسطين. تابعنا مثلاً انقلاب حسني الزعيم في سوريا، وكان قد نجح في مارس من ذلك العام. كما تابعنا إخفاقات فاروق المتتالية في تنصيب إحدى حكومات الأقلية الدستورية، كذلك تابعنا موجة الاغتيالات الفردية التي شاركت شخصياً في إحداها. وأدركنا أن اختيار الملك للنحاس باشا مجرد محاولة يائسة لامتصاص النقمة الشعبية.

وهي نقمة كانت قد بدأت تطال الريف حيث ملايين الفلاحين المتهمين بالصبر على البلاء، فبالرغم من أن هذا الريف كان احتكاراً أساسياً للوفد والاخوان المسلمين، نلاحظ أنه خلال عام ١٩٥١ وحده وقعت أعنف الانتفاضات في عزب ومزارع الباشوات: البدراوي عاشور. ولي العهد الأمير محمد علي. الأمير يوسف كمال الذي يملك ١٦ ألف فدان من أجود الأراضي، وقد سلط على الفلاحين كلابه الشرسة المدربة. ولم تسلم من التمرد عزبة الملك فاروق في انشاص. وفي عزبة «الباحوط» قتل أربعة عشر فلاحاً. وكان

هذا الحادث الدموي الهائل، حيث قام الفلاحون بإحراق محاصيل الذرة العائدة لأحد الاقطاعيين، من أخطر الشرارات التي تلقيناها حينذاك.

ولكن النحاس بدوره كان يدرك أن الأغلبية الشعبية الساحقة التي جاءت به لن تنسى بسهولة حادث ٤ فبراير الذي حمله إلى الحكم في حراسة الدبابات البريطانية. انه الجرح الوطني الغائر في الصدور. لذلك ما أن أقبل يوم الثامن من أكتوبر ١٩٥١ حتى أطلق النحاس من جعبته السهم الأخير في محاولة يائسة لاسترداد الشعبية الضائعة: «بإسم مصر وقّعت معاهدة ١٩٣٦ وبإسم مصر ألغي معاهدة ١٩٣٦». وبغض النظر عن أن القسم الأول من العبارة لم يكن صحيحاً، فقد كان هذا السطر هو الشرارة التي أطلقت الحرب الفدائية المجيدة على ضفاف القنال، ضد القواعد البريطانية في السويس وبورسعيد والاسماعيلية. وهي الحرب التي شاركنا فيها بالتدريب والتخطيط والتنفيذ. وكنت شخصياً، أحضر السلاح بنفسي من مجدي حسنين في سلاح خدمة الجيش بثكنات العباسية، وأعطي بعضه لأحمد حمروش وعثمان فوزي لتوصيله إلى الشيوعيين، وأعطي بعضه الآخر لعبد القادر عودة وحسن عشماوي لتوصيله إلى الاخوان المسلمين. وكان كمال رفعت يدرب اليساريين وحسن التهامي يدرب الاخوان، وكلاهما يرسل كتائبه بعد ذلك إلى وجيه أباظة لاتصاله مباشرة بوزير الداخلية فؤاد سراج الدين. وقد اشتركت شخصياً في إعداد لغم بحري يسد القناة، ولكن العملية لم تنجح.

كنت متحمساً لاشتعال الكفاح المسلح في القناة، وبالحريات النسبية للتحرك في ظل حكومة الوفد، لمجرد أن يهيء هذان العنصران بالاضافة إلى انتفاضات الريف، مناخاً شعبياً ملائماً لحركة التغيير التي لم تكن قد اتضحت ملامحها التفصيلية في اجتماعاتنا بعد. وبالرغم من أننا لم نتعاطف مع الوفد في أي وقت، فإننا لم نهاجمه في منشوراتنا كما فعل الاخوان المسلمون. كنت أصوغ مع خالد محي الدين هذه المنشورات لنندد بالعرش والاحتلال والفساد العام.

وكنت أدرك أن حاصل جمع ثلاث محاولات يائسة، قد يثير على نحو غير متوقع محاولة الأمل. محاولة امتصاص النقمة الشعبية بتكليف الوفد، كان يأساً من جانب العرش. إلغاء المعاهدة وسماح الوفد بحرب القناة كان هروباً إلى الأمام من حكم التاريخ. كذلك كان إجماع الشعب على مجيء الوفد مرة أخرى محاولة يائسة للخلاص. ولكن الأعمال اليائسة لا تعني المشاركة فيها والترحيب بها أنها طريق الخلاص. لذلك حين همس لي أحد الرجال أنها فرصتنا للانقضاض على الوضع بأكمله، قلت: بالعكس لا زال أمامنا أربع سنوات على الأقل، حتى تنضج الظروف. وأذكر أنني عارضت الرأي نفسه، بعد حريق القاهرة حين

اقترح أحد الرجال أن نؤجل عمليتنا، فقد قلت..

لندع ذلك الآن، فالأهم أنني قبل الحريق بشهر كامل، قرأت في جريدة «التايمز» الانجليزية ما نصه «أن أعصاب الجنود الانجليز قد أصبحت شديدة التوتر، وهم يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فقدت كل قيمة استراتيجية نتيجة الشعور الوطني المعادي». وحذرت الصحيفة البريطانية من تأثير فتوى الشيخ ابراهيم حمروش شيخ الجامع الأزهر الذي أحل فيه دماء الجنود البريطانيين. وعندما نسف الفدائيون المصريون قطاراً كاملاً محملاً بالجنود والذخيرة يوم ١٣ يناير ١٩٥٢ كتبت «النيوزكرونيكل»: يصف الضباط الانجليز هذه المعركة بأنها أعنف موقعة خاضوها منذ الانتداب البريطاني في فلسطين. بينما قالت نيوستتسمان «يبدو واضحاً أن حرب العصابات قد أصبحت مسألة مقررة عند الفدائيين في مصر. ان مستقبل المصالح البريطانية قد أصبح الآن مظلماً.. فإما جلاء مخجل عن مصر، وإما اشتباك عسكري وفترة طويلة من المعارك في ظل الأحكام العسكرية».

في هذا الوقت تماماً نما إلى علمنا أن موفداً من نوري السعيد هو نجيب الراوي قد وصل إلى القاهرة وقابل فؤاد سراج الدين ليقول له إن الانجليز على استعداد لأي حل يحفظ ماء الوجه بشرط وقف القتال، فقال له الوزير الوفدي إنه ليس هناك مصري واحد يجرؤ على إعلان ذلك. عليهم تقرير الجلاء، وعلينا حماية ظهورهم أثناء الرحيل.

كان الشهداء في الاسماعيلية والسويس وبورسعيد يسقطون بالعشرات يومياً. وفي ٨ ديسمبر ١٩٥١ قام البريطانيون بدق المسمار الأول في نعشهم، إذ قاموا في مغامرة انتحارية بهدم قرية كاملة هي كفر أم عبده. كان ذلك بعد المظاهرة التاريخية بحق في ذكرى عيد الجهاد الوطني ١٤ نوفمبر ١٩٥١ حين سار مليون مصري وراء النحاس وشيخ الأزهر والبطريرك ووفود الدول العربية والعسكريين. وكانت هناك عشرة آلاف لافتة كتب عليها «يسقط الدفاع المشترك»، «الوساطة الأميركية خدعة»، «يسقط الاستعمار»، «الموت للخونة».

وفي الخامس والعشرين من يناير ١٩٥٢ كانت القوات البريطانية قد بلغت درجة من الهستريا أن حاصرت محافظة الاسماعيلية وطالبت شرطة بلوك النظام بالاستسلام، وهم الذين لا يملكون دفاعاً عن النفس سوى البنادق القديمة. كانوا حوالي الألف جندي، مع كل منهم حوالي الألف طلقة. ولكن ماذا تفعل المليون طلقة أمام الدبابات والمدافع الرشاشة؟ كان منظراً مخجلاً، كما اعترفت الصحف البريطانية ذاتها في اليوم الثاني، أن يقاتل جيش حديث فيلقاً من الشرطة. ولكنها كانت الشرارة الأخيرة، فقد استشهد سبعون شرطياً مصرياً مقابل أربعين بريطانياً، وسقطت محافظة الاسماعيلية، لتهب القاهرة في الصباح هبة رجل

واحد. خرج طلاب الجامعات وعمال المصانع وجنود بلوكات النظام في عدة مظاهرات توحدت عند باب مجلس الوزراء. وهناك خرج إليهم عبد الفتاح حسن الوزير الوفدي ليجد جمهوراً يختلف عن جمهوره المعتاد، وشعارات لم يسمعها في حياته، حتى أنه انفعل صارخاً «ولماذا لا نطلب السلاح من الروس؟». هكذا سمعت في ما بعد من الذين شاركوا في المظاهرة.

ولكن الذي أعرفه أن هذا اليوم ـ ٢٦ يناير ١٩٥٢ ـ كان محدداً للاحتفال بمضي أسبوع على ولادة ولي عهد الملك. وكان مدعواً للقصر حوالي ستمائة ضابط من الجيش والشرطة. وقد صاحبت الحفل حركة ترقيات مفاجئة.

وفي هذه الأثناء كان جمهور من المتظاهرين يقترب من قصر عابدين، فاصطدمت عيونه بمشهد لا يغتفر: ضابط مصري يعاقر الخمر في وضح النهار مع إحدى الراقصات في صالة بديعة الشهيرة. حينئذ هجم الناس على الملهى وحطموه. وطبعاً، لم يكن ذلك مشهداً مفاجئاً، فيوم ١٥ يناير هجم بعض الشباب على ملهيين وانفجرت داران للسينما. ولكن تلك الأحداث الفردية يمكن نسبتها ببساطة إلى التطرف الديني لبعض المنظمات. أما اليوم فله شأن مختلف. كانت المظاهر «الأجنبية» على طول الشوارع «الفاخرة» المؤدية إلى القصر الملكي، فانفجرت بغتة براكين الثأر من الاحتلال والباشوات. هكذا احترق على التوالي: «تورف كلوب» و«جروبي» سليمان باشا وفندق «شبرد» وبنك «باركليز» ومحلات «شيكوريل» و«شملا» و«عدس» وسينما «مترو» و«ريفولي». كان النهب والسلب هو السمة الرئيسية، وليس القتل. وكان إحراق المباني وليس البشر.

وكانت هناك ظاهرتان لا تخفيان على أحد: ان بعض الأيدي القليلة جداً حملت مواد سريعة الاشتعال، امتدت إلى هذه المؤسسات بين الحين والآخر. والظاهرة الثانية أن حيدر باشا وزير الحربية الذي وصلته أنباء الحريق أثناء الغداء في القصر الملكي، رفض إنزال الجيش. ومن ناحية أخرى كان موقف الشرطة واضحاً إذ سأل أحد الصحفيين الأجانب ـ وهو مرعوب ـ ضابطاً يقف بالقرب من شبرد: ماذا تفعلون؟ أجاب: «لا شيء، دعهم يلهون قليلاً».

إذن، كانت هناك أيد تضيف زيتاً على النار، وكانت هناك أيد تحجم عن إرسال مطافىء الجيش والشرطة. هذا صحيح تماماً. كان إشعال القاهرة يوقف نيران القناة. ولكن احتراق القاهرة، كان يعني في الوقت نفسه احتراق النظام. كان للجوعى والمحرومين والمقهورين والمهانين هدفهم من إحراق كل شيء. وكان للسلطة المتداعية والاحتلال الذي يلفظ أنفاسه هدفهما من الحريق.

كان الحريق الشامل، لا للقاهرة وحدها، بل للنظام بأكمله، صراعاً ملحمياً بين

الارادات المتناقضة. وكان السباق مجنوناً بين اتجاهات الرياح. لقد تغير كل شيء في لحظات، ولم يعد ممكناً التحرك بعد ٢٦ يناير ١٩٥٢ وفق مقاييس ما سبقه من أيام وشهور. نحن الآن في تاريخ جديد كلياً. سارع الملك إلى البطش بحكومة النحاس فأقالها في اليوم التالي مباشرة، وأعلنت الأحكام العرفية، وألغيت انتخابات نادي الضباط.

توقفت الحرب على السطح.

ولكن كل شيء كان قد احترق، لا القاهرة وحدها: الملك والاحتلال وحتى الوفد نفسه. وخلت شوارع القاهرة إلا من القطط والكلاب الضالة. كان النظام قد سقط نهائياً، بعد سقوطه المبدئي حين أبرم معاهدة ١٩٣٦. سقط اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً، لم يعد العمال هم العمال، ولا الطلاب هم الطلاب، ولا الجنود هم الجنود، والفلاحون أعرفهم، والرأسماليون أصبحوا شرائح وفئات لا تعبر عنها هذه «الحكومات» ولا هذه «الأحزاب». كان فراغ الشارع من الناس انعكاساً مدوياً لفراغ السلطة من القدرة على الحكم. البطش لم يعد يجدي. من «اليد الحديدية» إلى «العسكري الأسود» لم تعد الدكتاتورية بقادرة على الحكم، لأن شيئاً خارج إرادتها يحدث أمام العيون كل العيون، ليس الوعي وحده ولا إرادة الناس وحدهم، بل هناك أشياء تشبه قوانين العلم التي درسناها في المرحلة الثانوية: سقوط فلسطين هو سقوط لمصر. غنى الأغنياء وفقر الفقراء هو سقوط لمصر. قواعد أجنبية وأحلاف هو سقوط لمصر. تمزق الأحزاب والمنظمات هو سقوط لمصر.

وفي الحريق الهائل سقطت مصر التي أرادوها، ولم تكن هناك مصر التي نريدها، سقط النظام وغاب البديل.

وكان ذلك هو محور الليالي المسهدة التي أمضيتها مع الرجال بحثاً عن الوطن قبل أن يضيع للمرة الأخيرة. فمنذ السادس والعشرين من يناير ١٩٥٢ كنت أدرك مع الرجال أننا اقتربنا من نقطة الصفر من لقائنا.. مع القدر.

□ □ □

ملاحظات أولى على البلاغ الثالث

عندما اتجه بي من ميدان سليمان نحو الباب الجانبي لـ «جروبي» كنت قد حدست مقدماً كيف ستنتهي بنا هذه الليلة المليئة بغرائب المخلوقات وعجائب الأشياء. همست له بصوت يشي بالتحدي: دعك من هذا المحل، هل تعرف الأتلييه؟ تعال معي. لم أنتظر منه الجواب أو الاعتراض، بل كنت كمن ينفذ سيناريو محفوظاً لي وله، كأن ما يجري ليس أكثر من «دور» لا علاقة حميمة بيننا وبينه.

لم يكن الأمر على هذا النحو في الصباح حين لقيته، وحتى الظهر عندما أوشكت على توديعه. بمجرد أن اصطدمت عيناه بوجهي ضغط على راحتي وقد اتخذ قراراً لا علاقة له بالكلمات: آسف، آسف جداً، لم أكن في القاهرة حين علمت بالخبر، ولكنك تعلمين أنه كان أخي بلا زيادة أو نقصان. هكذا الدنيا. إلى أين أنت ذاهبة؟

لم أفكر قط في أن أتركه. منذ رأيته للمرة الأولى وهو يثير اهتمامي، فما الذي يجمع بينه وبين أبي إلى الحد الذي يبلغ به أن يغازل أمي علناً؟ قال: في الحقيقة لم يكن غزلاً بريئاً، ولكنها رفضتني دائماً رفضاً بريئاً. عرفت والدك منذ كان يوزع الحبر على المطابع، وكنت أعمل مصححاً في إحداها، رغم إنني لا أجيد اللغة مثله هو الذي لم يستكمل دراسته. أما أنا فقد ظللت أعمل وأدرس حتى تخرجت. والحمد لله، سبع صنايع والبخت ضايع، فما الفرق بيني وبين والدك سوى أنه تزوج من امرأة جميلة ومات؟

كنت قد انتحيت به مكاناً قصياً في حديقة الأتلييه الصغيرة فتوقف عن الكلام. كان الصيف رقيقاً والرطوبة أكثر رقة والنجوم زائغة العيون بين أوراق الشجيرات المعدودة. وكان المكان غريباً عليه تماماً، وقد أثار حنقه المكتوم انني أعرف ركناً في القاهرة لا يعرفه. بذل جهداً مؤثراً، ولكنه واضح المعالم العصبية في توترات الأنف والشفتين والنظر الدائم إلى أسفل، حتى لا يسألني أين نحن. طلبت البيرة لنفسي وأشرت لعم أحمد أن يسأله ماذا يريد، ودون تفكير كما أعتقد طلب البيرة أيضاً. وكانت أصوات حسين وإبراهيم وفهمي

وعازر ونوال قد اختلطت في النقاش الليلي المستمر الهدوء والغضب والصراخ والمناجاة. وكمن نفد صبره دفعة واحدة رفع رأسه فجأة نحو المبنى المجاور كأنه يكلم أحداً يطل من النافذة المقابلة: الجميع يحيونك في الدخول والخروج، فهل تعرفينهم كلهم؟ وقبل أن أجيب كان يتابع: متى أتيت هنا لأول مرة؟ وكدت أتكلم حين قال: ومن هم هؤلاء؟ وهل المكان حكومي أم قطاع خاص؟ وقد لاحظت ضجيجاً مماثلاً ونحن قادمون في أول الشارع، فما الحكاية؟

ناديت على محمود وسهى وهما يدلفان من باب الحديقة يبحثان عن مكان. بعد التعريف القصير قلت لهما اننا سنذهب. قالت سهى: ونحن أيضاً، فقد جئنا نسأل عن أخبار نصحي. منذ أخذوه من ميدان التحرير ونحن لا ندري أين هو. والغريب أنه لم يكن يغني في ذلك اليوم. كان واقفاً مبهوتاً أمام «إيزافيتش» يرقب ما يجري بانبهار كما تقول إحسان. لا تذكر هي نفسها سوى أنه قال: القيامة قامت. بعد عشر سنين على اليوم الأسود، قامت القيامة. تحرك الجبل من مكانه، انفجر بداخله البركان فتحرك، كان الزلزال قادماً من القصر العيني وطلعت حرب والشيخ ريحان والتحرير، فتحرك الجبل من أعلى إلى أسفل ومن تحت لفوق، فضاع نصحي. كان واقفاً في حالة ذهول، كما تقول إحسان، وبغتة اختفى. أكله الزحام. لم يكن يغني. سألنا عنه في المستشفيات وأقسام الشرطة، عبثاً. جاءت إحسان بعد ثلاثة أيام لتقول كلمة واحدة: أخذوه.

كانت سهى تتكلم دون أن يطلب منها أحد الاستمرار في الحكاية التي يعرفها الجميع. حكايتها مع نصحي لا حكايته مع الذين أخذوه. كانت وما تزال تعزف على البيانو باقتدار، وكان يستهويه أن يغني وهي تعزف. ولم يكن لديه أي مانع في مضاجعتها وقت الفراغ. وكانت إحسان تفهمه. ولكن سهى لم تفهم إحسان. لم تفهم مثلاً لماذا فعلت ما لم تفعله من قبل. أخذت حقيبة ثيابها وقالت لأهلها بأنها ستقيم مع أم نصحي. وطرقت الباب على العجوز وقالت لها: جئت لأقيم معك طالما ظل هناك. اندهشت المرأة من هذه «الجريئة» وكادت ألا تفتح لها الباب، ولكنها خافت منه حين يعود. كانت تدري أنه لا يعشق في الدنيا سوى إحسان والغناء. ولم تفهم سهى ولا غيرها، لماذا يعشق إحسان التي لا تفتح كتاباً ولا تشاهد معرضاً ولا تزور متحفاً ولا تجيد الرطانة بلغة أجنبية. وكانت سهى في أوقات الراحة تخرج مع محمود لأنه من غير المعقول ألا تخرج مع أحد. ولم يكن محمود بحاجة لإثبات جدارته سواء بمنصبه الرفيع أو بشبابه الدائم الوسامة. وهو رجل قليل الكلام، وقد لاحظ اننا وقفنا طول الوقت وسهى تتكلم، فاقترح أن نشرب كأساً في «الأستوديو»، هذه الشقة الصغيرة التي استأجرها في شارع قصر النيل ليمارس فيها هواية الرسم ويبدو أنه لن يجيده في يوم من الأيام. ولم أرد على وخزة الإصبع في فخذي حين هممنا بالخروج، وكان عم

أحمد يقول لشاعر يعذبه شهرياً في دفع ما عليه من ديون الشاي والقهوة والبراندي: يا بيه الدنيا غليت من زمان مش من أسبوع. العالم اتجنن. طردونا من الجبّانة ولم نجد مكاناً في الحسين. الولد شاف المظاهرة كأنها نازلة من السمـا دخل فيها. أمه صرخت بالصوت الحيّاني. كانت النار والعة برّه وجوّه كانت النار قايدة. مفيش فايدة، مقالهاش سعد زغلول، أنا اللي بقولها يا سعادة البيه. إدفع اللي عليك أحسن ما يهزأك البهوات الكبار. الدنيا تغيرت والأشيا معدن. لكن حديد مش دهب، نحاس مش فضة. يا بيه إدفع اللي عليك أحسن الدنيا برد. لما ولعت الأسبوع اللي فات كانت مصر كلها دافية. لكن طفيت بسرعة، نفسنا قصير، طفوها بمية حمرا، ما هو الدم بقى ميّة، ولا إيه يا بيه، ما تدفع اللي عليك وتصلي عالنبي أحسن. ولكن الشاعر لم يجب بشيء حتى لحظة خروجنا من الباب المواجه مباشرة لمبنى أحد الأحزاب. كان مغلقاً بالشمع الأحمر وقد وقف رجلان في حالة انتباه يائس.

ورغم أن المسافة من شارع كريم الدولة إلى قصر النيل قصيرة جداً إلا أننا اضطررنا لركوب سيارة محمود، أقصد هذا الصالون الجميل المتحرك، فلأول مرة كنت أشاهد التلفزيون الصغير المعلق بالصدر الأيمن للسيارة، وبين المقعدين الأماميين كان التليفون، وفي أقصى اليسار من الخلف كانت الثلاجة الصغيرة وقد فتحتها على الفور فلم أجد شيئاً من البيرة. وكنا أخيراً قد وصلنا.

قال محمود وهو يفتح لنا الباب من جهتي بعد أن نزلت سهى: طبعاً زيارة مفاجئة من غير استعداد، لكن البيت بيتكم. ولم يكن ذلك صحيحاً على الإطلاق، فالبيت ليس بيتنا أبداً، ولا أدري ما هو الاستعداد الذي كان يجب أن يكون أكثر مما أراه. لم تكن زيارتي الأولى لأحد الأركان الثرية، ولكنها زيارتي الأولى لركن محمود. عرفته منذ سبع سنوات، وكنت ما أزال في الثامنة عشرة أول السبعينات، حين جلست على مقهى ريش بمحض الصدفة. شاب جميل ونظيف ويعمل بالقضاء، خجول وصامت أغلب الوقت، لا يتدخل في المناقشات المعقدة ولا يقحم نفسه على أحد. بالقطع لم يبلغ الثلاثين وإن يكن على أبوابها. اختفى بعدئذٍ حوالي أربع سنوات لم يسأل عنه خلالها أحد. كان الناس يذكرونه مضطربين حين يتكلمون عن هذه أو تلك من النجوم التي شوهدت بمصاحبته. كانوا قد بعثوا به إلى فرنسا ليستكمل بعض الدراسات.

كان صاحبي يكبره بكثير. ولم يكن التعارف بينهما واضحاً. وكانت سهى مشغولة بمونولوج داخلي مسموع عن نصحي وإحسان والمظاهرات التي كادت تخرب البلاد من الإسكندرية إلى أسوان. وكان لا بد من أن تقطع الصمت الحذر بأي كلام. واعتذرت أنا وهو عن الويسكي وطلبنا البيرة المثلجة جداً وأية أنواع من الجبنة. وفجأة نظر إلينا محمود قائلاً: هل تصدقون، عندما احترقت القاهرة منذ ربع قرن كدت أحترق معها وأنا في

العاشرة من عمري. كنا نسكن في شارع البستان وإذا بالنيران تشب في البناء الملاصق وتصل إلى الطابق العلوي من عمارتنا، ولكن ربنا ستر، كاد الدخان يخنقنا فعلاً لولا رحمة الله. المهم أن حريق القاهرة الذي لم أره في الشوارع ولا تعيه ذاكرتي هو حادث شخصي بالنسبة لي. وتشاء الظروف بعد ربع قرن أن يحترق بار الفردوس في شارع الهرم الأسبوع الماضي وأنا هناك. ولم تكن المشكلة في النار فقط بل في الناس الذين يحرقون أو يطفئون أو يستجوبون. لقد كنت شخصياً أحد الذين استجوبوهم. شباب صغار لا أعتقد أنهم يعرفون بعضهم، فقد اختلفت لهجاتهم وثيابهم وأساليب تعاملهم. سألني أحدهم وهو يمسك ساعدي: من أين اشتريت هذه الساعة الغريبة؟ وكاد الثاني أن يحطم زجاجة الويسكي فوق رأسي وهو يصرخ: كم ستدفع ثمناً لها؟ وحين حاول الثالث أن يشير إلى سهى قاطعه رابع على درجة مثيرة من التهذيب وهو يقول: اتركوه. لم تكن لهجة آمرة. ولكن الآخرين استجابوا بعد أن أخذوا بطاقة الهوية وتركوا لي كل شيء، حتى السيارة لم تصب بأذى في وقت تراكم فيه الزجاج المكسور كالاهرامات الصغيرة. إنني رجل محظوظ. وأنت؟

انتشل صاحبي نفسه بصعوبة من الصمت والاستغراب وما يشبه القرف، كأنه أفاق من آثار الحلم إلى رحاب الكابوس، فقد كان الويسكي والكونياك والفودكا والعرق جنباً إلى جنب مع الحشيش والأفيون على مائدة واحدة استطالت وتربعت بمساحة الصالون الطويل العريض الممتد من بداية الأرض إلى نهاية المحيط. عندما سمع السؤال «وأنت؟» اعتبره جواباً وهو يلتقط حبات الزيتون المبعثرة حول الكافيار وشرائح السمك المدخن. وكانت سهى قد دخلت الحمام لحظات قليلة وعادت نصف عارية. ثم دخلت الغرفة الوحيدة لحظات قليلة أخرى وعادت عارية. كان محمود أيضاً قد تخفف من كل شيء سوى القميص الخفيف والسروال. وبدأ الفيديو يعرض الفيلم المحبب لدى كافة العاجزين عن ممارسة الحب. والتفت إليّ محمود مستغيثاً: إنها المرة الأولى التي تشرفينا بالزيارة في هذا الأستوديو المتواضع، ولكن هل يعني ذلك أن زيارتك لا تكون إلا برفقة رجل أخرس؟

ضحكنا جميعاً باستثناء سهى التي كانت تغني لفيروز «ليالي الشمال الحزينة» وهي شبه نائمة على ظهرها فوق الموكيت الأزرق. قال صاحبي: لا لست محظوظاً مثلك. أدرك محمود أن الكلام مُوجَّه له فانتبه، وهو يفرغ لي زجاجة البيرة. كان الآخر يكرر: لا، لست محظوظاً مثلك، ففي الوقت الذي كدت أنت فيه أن تختنق من حريق القاهرة منذ ربع قرن، كنت أنا في السجن بتهمة محاولة قلب نظام الحكم، ومع ذلك اتهموني بمحاولة حرق العاصمة. وتشاء المصادفات المجنونة أن يحترق بيتنا في أقصى الصعيد من تطاير عقب سيجارة في الغيط المجاور وأن تحترق أمي فوق السطح وهي تكافح الريح الموقدة، وأن يحجب الأقارب عني الخبر عاماً كاملاً لم يعد فيه أحد متهماً بحرق القاهرة، ولكن الكثيرين بقوا متهمين بمحاولة

قلب نظام الحكم. كان هذا النظام قد انقلب، ولم يكن الذين قلبوه معنا، أما الذين حاولوا فقط واتهموا بذلك فقد بقوا في السجن.

ترك كأس البيرة فجأة وتحول إلى الويسكي، وبدا كما لو أنه لن يعود إلى الصمت. كان الفيلم يصرخ ويغني وينوح ويغمغم، ولكن أحداً منا لم يكن يتابع الأسود المنغمس في الأشقر. كانت سهى تزدرد الأفيون تحت لسانها وهي تحملق في السقف كأنها تستغيث. وكان اللهيب بين ساقيّ بدأ يخمد حين راح محمود يخلع ما تبقى من ثيابه وهو يدندن باسمًا: أنتم في بيتكم ونحن ضيوفكم، والموسيقى تدعونا إلى الصلاة فهلموا. ولكن الصوت المشروخ كان ما زال قادماً من بعيد: لا يا أستاذ، لست محظوظاً مثلك، فأنت لم تحترق وإن اختنقت في الحريق القديم، وأنت لم تسجن وإن حاكموك في الحريق الجديد. وأنت تدري أن الذين حاكموك في بار الفردوس هم الآن وراء الأسوار تحاكمهم أنت، ومن بينهم هذا المغني الذي تتحدثون عنه. صرخت سهى مغلقة العينين: نصحي. هتف محمود وهو يرقد فوق الجسد الممدود: تحيا الاشتراكية. كانت أمعائي تتراقص في عواء ينتظم تدريجياً، يتصاعد، يضطرم، يضطرب بالفوضى الساحقة. ورحت أستدر دموع شفتي ولساني يبتلع فمه بتشنج ظاهر. وكنت قد استويت على جانبي الأيمن، تماماً كما لو أنه «دور» مرسوم لنا في سيناريو علينا تأديته. حتى الشهوة كنت أراها بيننا تتدحرج من صدري إلى بطنه لا أعرف ما إذا كانت تخصنا أم تخص سوانا. وحين تعرينا لم نشعر بالبرد أو الحرارة أو الدهشة أو الاندماج. بالنسبة لي كانت المرة الأولى التي أمارس فيها الحب كحفل جماعي. وكل ما أحسست به هو أنه يجب أن أؤدي «دوري» بمهارة فائقة. وبعد دقائق، لم أكن أرى محمود أو سهى، كما لو أنني معه وحدنا في صحراء نائية أو غابة خرافية. وفي بعض اللحظات كدت أنسى نفسي واستمتع، لولا أنني طالعت في عينيه وأذنيه وشفتيه ما يشبه السخرية وأحياناً الاعتذار أو الشفقة. ولأن دهاليز الجسد تستأثر بعض المرات بحركة الشهوة وتفرض عليها الاستقلال عن المخ، فقد أصررت على مجاوزة المعاني الرابضة بين فتحات وجهه، ورحت أبذل جهداً مبالغاً فيه لاحتواء رجولته، ولكنه هو الذي استوعب أنوثتي في ابتسامة واثقة حين ربت على خديّ بهدوء قبيل الذروة وهو يقول كفى، كفانا. وطبع قبلة على جبيني كأنه يوقع على رسالة انتهت. وكان محمود منزوياً في ركن بمفرده وقد جلس القرفصاء وأغلق الفيديو ووضع رأسه بين راحتيه. وتنهد تنهيدة طويلة قبل أن يرفع عينيه في عيوننا وقد تداخل الكلام مع التنهّد من جديد: إما باحبها موت أو باكرهها عمي، إلا الليلة دي، لا باحبها ولا باكرهها، ولا حاجة خالص. لا أدري ما إذا كان صوت سهى أو صوت من الذي قاطع محمود دون أن يقصد: جربنا الشياطين الحمر والعفاريت الزرق، شيء واحد ما جربناهوش أبداً.. ولم يكمل الصوت كلامه، بل سمعت صاحبي وهو يجرع

كوباً من القهوة الساخنة: ربع قرن بين حريقين، أليس عنواناً رائعاً؟ قال محمود: بل ربع قرن على الثورة، أليس كذلك؟ قال صاحبي: فليرحمنا الله. منذ ربع قرن احترقت القاهرة وحدها، أما هذه المرة فقد احترقت مصر كلها، ومع ذلك لم يحدث شيء. لم يحدث شيء. قبل أن تحترق القاهرة في المرة الأولى بست سنوات كنا نشعل الحلم ونحرق الماضي. كنا بحراً بلا شاطىء. وكنت محامياً وضابطاً احتياطياً وصحفياً هاوياً، ولا شيء على الإطلاق في نفس الوقت. ولكنني رميت نفسي في البحر، كنت وفدياً ويسارياً ومسلماً وكل شيء على الإطلاق. لذلك حاربت في السويس وبورسعيد والاسماعيلية، ثم أخذوني، كما أخذوا صديقكم نصحي. الفرق بيني وبينه أنهم أخذوه من قلب الحريق، أما أنا فأخذوني قبل الحريق بكثير. أعرف جندياً فلاحاً إسمه عوضين يصر أن عيد الثورة المقبل بعد أسابيع سيكون يوماً مهماً، فالأمريكان لم يحلّوا المشكلة والإسرائيليون لم يرحلوا. وربما دخلنا الحرب من جديد. زمان احترقت القاهرة وحدها، أما الآن فقد احترقت مصر كلها، ولم يعد ممكناً سوى الحرب. إنها قادمة لا ريب. هل تذكرون ما كان يجري منذ خمس سنوات فقط؟ طبعاً هناك فرق بين ما حدث في ذلك الوقت وما جرى الأسبوع الماضي. ولكن الحرب هي التي أنقذت الوضع كله في المرة الماضية، وهي التي يمكن أن تنقذ الوضع الآن. الحرب. قال محمود: كنت في باريس حين اشتعلت. أيقظتني كورين من غفوة خفيفة، وهي تصرخ: ألن تشبعوا من الحروب، ألن ترتووا من الدم، قم قم إلبس ثيابك واذهب، لا ترني وجهك مرة أخرى. أما هو فلم يكن في باريس، بل في حي السيدة، عند الحاتي العتيق، يمصمص الكوارع ويتوثب للكرشة، وسيحلّي بلحمة الراس، لولا الزحمة التي انشقت عنها الأرض والراديو أصبح زعيم الحي بلا منازع. ولم يكن عبدالحليم في ذروة مجده، ولكنه بلا شك عبر القناة وقبّل رمال سيناء.

أفقنا جميعاً بالصمت الثقيل. منذ ساعات أعلنوا أن جثمانه سيصل من لندن غداً، قتلته البلهارسيا، قال محمود بتأثر ظاهر. ازداد شحوب صاحبي وهو يعبّ القهوة الساخنة. كم من الجرائم ترتكب باسمك أيتها البلهارسيا. منذ عشر سنوات كان عبدالحليم يأمر الجنود في التاسعة من صباح الخامس من يونيو: اضرب، اضرب. وكانت الحرب قد انتهت من قبل أن تبدأ. ومنذ أربع سنوات لم يكن عبدالحليم يطمح في الغداء أو العشاء أو الإفطار بأحد مطاعم تل ابيب، ولكنه أيضاً لم يكن يطمح في عصير البرتقال تحت الخيمة الشهيرة ولا في استقبال بطل الفضائح الجميلة ولا في التوقيع على دفاتر الأحلام العجوز، أين البلهارسيا إذن؟ ولماذا ماتت أم كلثوم منذ عامين ولم يجرؤ أحد على اتهام البلهارسيا؟ الله يمسيك بالخير يا إسماعيل يا مهدوي، فهم ليسوا حيارى بشأنك بسبب البلهارسيا، وإنما

بسبب التاريخ. أنت تقول أنك في المستشفى منذ تسع سنوات، وهم يقولون أنك هناك منذ سبع سنوات فقط. كأن المشكلة هي تحديد موعد البداية، ولا سؤال عن النهاية. ليس المهم متى سرقوه، فالأهم متى يعيدونه. ليس المهم أين وضعوه، في المستشفى أو في السجن، فالأهم أين سيضعونه إذا خرج. وتتكلمون عن البلهارسيا، وكأنها الإسم المستعار لنا جميعاً.

قال محمود: أو الإسم الصحيح.

قال هو: ليس من شيء صحيح في الوجود الخطأ.

كنا ثلاثتنا قد بدأنا النعاس بالكلمات، حتى أن صاحبي راح يسعل وهو يدفن رأسه في شعري متسائلاً: ولكن لماذا حملوا صورته الأسبوع الماضي، وهو ميت، كما فعلوا تماماً منذ عشر سنوات، وهو مهزوم؟ لـم يكن يوجه السؤال لأحد، وإنما كان يدفن أنفاسه المتهدجة في طيات شعري المتهدل. انفجر ينبوع حنان ملتهب في راحتي وهما تضمان وجهه المتعب بالسهر والمثقل بالتجاعيد والمحنى بهموم الزمن المتقلب. وسألت محمود عن سهى. قال: هل شاهدت الفيلم الذي أنتجوه في إطار الحملة، وعندما ظهرت صورته المسجلة يوم التنحي ضجت القاعة بالتصفيق؟ لقد كلفهـم إنتاجه مائة ألف جنيه، ولكنهم اضطروا لإيقاف العرض بعد أسبوع واحد. سألته عن سهى. قال لعلها نـامت. قلت: إذن لا داعي لإزعـاجها، أردت أن أودعهـا فقط. قال: لعلهـا نامت أو مـاتت. وضحك. قلت: لا تستخدم هذه التعبيرات غير المنسجمة مع أسلوبك في الحياة. قال: لعلها بالفعل نامت أو ماتت. إنني لا أمزح، إنها نائمة كما لو كانت ميتة، أو هي ميتة كأنها نائمة. هكذا رأيتها منذ قليل فلم أشأ أن أزعجها إذا كانت نائمة ولم أشأ أن أزعجكم إذا كانت ميتة.

كان محمود يتكلم كالعقلاء تماماً لدرجة تثير الحنق. ولم أكن أدري ماذا شرب أو دخّن أو فعل، حتى يتحول إلى هذه الحالة الصوفية النادرة الصفاء. ولكن الشيء المؤكد هو أن أحداً لا يعرف إلى اليوم ما إذا كانت سهى في تلك الليلة قد ماتت هكذا فجأة بالسكتة القلبية مثلاً، أم انها انتحرت كما أشيع عنها.

□ □ □

البلاغ الثالث (٢)

مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ كان دخان العاصمة المحترقة يجثم على صدري، حتى أحسست بأنني أوشك ألا أتنفس. أخذت سيارتي ورحت أتجول بطول وعرض القاهرة على غير هدى. كانت الأحكام العرفية قد أعلنت. حشود صغيرة من الجنود هنا وهناك. توقفت أمام إعلان سينمائي لفيلم كاوبوي. الأفلام البوليسية تستهويني منذ الصبا، لا لشيء إلا لأنها تحرف ملكة التفكير مؤقتاً. كالشطرنج تماماً. . أحب مشاهدة أفلام المغامرات. هوايتي الحقيقيـة هي التصوير الفوتوغرافي. هذا الاختراع العجيب المذهل، أساس كل الاختراعات التالية. كنت أعرف أنني لن أدخل السينما هذا المساء رغم حاجتي الشديدة لذلك. ولم أكن أحمل بالطبع ماكينة التصوير رغم أنني تمنيت ذلك.

وعدت إلى البيت.

فاجأتني زوجتي بأنها لم تنم، بل وجدتها في انتـظـاري لتوجه لي سؤالاً لم يخطر لي مطلقاً أنها ستبوح به في يوم من الأيام. قالت لي بعد لحظات من الصمت الثقيل: ماذا ستفعلون؟ تعجبت لدرجة الغضب ربما. لم يحدث قط أن سألتني عن تحركاتي أو سلوكي خارج البيت أو حتى داخله إذا تصادف أنني دعوت بعض الأصدقاء وألمحت إلي أنني لا أريد لأحد أن يقتحم خلوتنا. اكتشفت في عينيها سؤالاً بريئاً، لا علاقة له بما جال في خاطري. أجبتها بسؤال عما إذا كان الأولاد قد ناموا. أدركت على الفور أنني لا أرغب في الكلام.

ولكني لم أنم.

ماذا ستفعلون؟

راح السؤال يتجسد أمامي طيلة الليل والليالي التالية في أشكال وألوان ولغات مختلفة. ولن أنسى في إحدى الليالي أنه تجسم أمامي على هيئة برج بابل الأسطوري، برج شاهق الارتفاع يكاد علوه أن يخترق السماء، وقد تبلبلت ألسنة البشر المقيمين فيه، لم يكن أحدهم

يفهم الآخر، فلكل لهجته أو لغته. الجميع يتكلمون في وقت واحد حتى ارتفعت درجة حرارة الضجيج إلى مستوى الطاقة التي تشتمل عليها قنبلة ذرية انفجرت، وسقط البرج.

واستيقظت.

ماذا ستفعلون؟

كان البرلمان الوفدي الذي حُلّ صباح السابع والعشرين من يناير، ومعه أقيلت حكومة النحاس، نموذجاً مصغراً لبرج بابل. هل أبالغ إذا قلت أن مصر كلها كانت هذا النموذج؟ ولكن البرلمان عرف العجب. كان هناك من نادى بتحديد الملكية الزراعية بخمسين فداناً. أظنه محمود خطاب. وكان هناك من نادى بتقييد حرية الصحافة. أظنه اسطفان باسيلي. وكان هناك من اقترح التصويت على أن فاروق من سلالة النبي. لم أعد أذكر اسم النائب أو النائبين اللذين تقدما بهذا الاقتراح المروع. فاروق المتهم باغتيال أكثر من رجل ليحصل على زوجته أو عشيقته، من سلالة الرسول؟ فاروق الذي لم يكن أي ضابط يجرؤ على إحضار زوجته معه إلى أي حفل ملكي، بسبب سلوكه المبتذل الشائع على مصاطب مصر؟ وأرخى الملك لحيته استعداداً لصدور الفتوى والقانون، أو استعداداً لأن يكون خليفة المسلمين. ترى، من أوحى له بهذه الفكرة الجهنمية؟ كان والده يطمح لهذه الخلافة بإيحاء قوي من الإنجليز لوراثة آل عثمان ولتقويض الباب العالي. لذلك جن جنونه حين أصدر الشيخ علي عبدالرازق عام ١٩٢٥ كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، حيث بيّن بألف دليل أن الخلافة التي يعنيها القرآن لا علاقة لها بالخلافة السلطانية في الآستانة. ها هوذا فاروق يعاود سيرة أبيه الذي لم يكن يتكلم العربية. وها هوذا خالد محمد خالد يكتب «الدين في خدمة الشعب» و «مواطنون لا رعايا» فيعود بالقضية كلها إلى أصلها الحقيقي.

حتى أحمد حسين زعيم مصر الفتاة غيّـر اسم حزبه ومجلته، فأصبح الحزب الاشتراكي وأصبحت جريدة «الاشتراكية». اعتقلوه مع غيره من المئات بتهمة جاهزة هي «حريق القاهرة»، تماماً كما فعلوا عام ١٩٤٦ في ذروة الانتفاضة الشعبية ـ الطلاب والعمال ـ فقد اعتقلوا صفوة الوطنيين والمثقفين بتهمة تفجير قنبلة في سينما مترو. ومن وراء القضبان ظل أحمد حسين يكتب بأسلوبه الاثاري «رعاياك يا مولاي». ولكن. . ماذا ستفعلون؟

نعم، هذا هو السؤال يا تحية، بل يا مصر.

وحملت السؤال إلى صديق من الإخوان المسلمين. كان هناك بين الرجال إخوان مسلمون، ولكنني أحببت أن أسأل مدنياً عريقاً في الكفاح السري ونصف العلني.

قلت أعاتبه: لقد فاجأتني بعض قياداتكم العليا بموقفها من الحرب الفدائية على

ضفاف القنـال. كنت أظن لا فرق بين اغتصاب فلسطين واحتلال مصر، فإذا بكم تبادرون إلى التطوع في حرب لفلسطين، وتتلكأون في حرب السويس وبورسعيد والإسماعيلية.

خلع نظارته السوداء ومشط شعر لحيته، والتمعت عيناه وهو يحملق في كل وجهي قائلاً: ومع ذلك شاركنا في القتال، أليس كذلك؟ أجبت: بل إن بعضاً من شبابكم، من القواعد، انتزعته الروح الوطنية انتزاعاً، أما أنتم في القيادة فقد اتخذتم موقفاً سلبياً على وجه التقريب، حتى لا أقول أنكم كنتم ضد العمل الفدائي. لماذا؟

وراح يجيب بما يخيل لي أنني سمعته من قبل وكدت لا أصدقه: هل كنت تريد لنا أن نؤيد الوفد؟ وهل سيخرج الإنجليز بأوامر النحاس الذي جاؤوا به إلى الحكم منذ عشر سنوات، أم أننا ننسى؟ وماذا فعلت كل التضحيات ومئات الشهداء؟ راحوا هدراً. وها أنت ترى إلى أين وصلنا. البلد خربت. الإنجليز موجودون منذ سبعين سنة ولم يحدث ما حدث. الوفد يريد الفوضى، حتى يجيء إلى الحكم. والشيوعيون يريدون الخراب حتى يعيثوا في الأرض فساداً.

استمعت إليه جيداً حتى «فضفض» بكل ما لديه، وبهدوء شديد قلت: دعنا مما حدث، وإن كنت أختلف معك في بعض ما قلت. هل إلغاء المعاهدة جريمة حتى إذا كان الوفد قد ألغاها، مصححاً بذلك موقفاً مشيناً سبق له اتخاذه عام ١٩٣٦؟ هل مقاتلة الإنجليز جريمة حتى إذا كانت حكومة الوفد هي التي سمحت بذلك؟ على أي حال، دعنا مما حدث. المهم الآن. ماذا ستفعلون؟

باغتني جوابه المنفعل: الله وحده يعلم ويفعل.

قلت: ونعم بالله. وأنتم تناضلون تحت رايته تعالى، فماذا أنتم فاعلون؟ باغتني من جديد وقد عاد عن الانفعال: كما كنا دائماً، هداية الناس، وإعداد العدة ليوم الحق. قلت: إنني أسألك عن يوم الحق، وماذا أعددتم له؟ أجاب: الحق هو الإسلام، والعدة هي القوة. قلت له: لا أختلف معك في منطوق العبارة، ولكني أسألك عن التفاصيل: البلد اليوم كما تلاحظ، في فراغ مخيف. ماذا ستفعلون مع الإنجليز، مع الملك، مع الباشوات، مع الفقر والجهل والمرض؟ أجابني كأنه ينهي النقاش: ليس عندي ما أضيفه على الإسلام والقوة.

وخرجت إلى بيت زميلي عبدالمنعم عبدالرؤوف أحد رجالهم ومن رجال مجموعتنا. بادرته دون مقدمات: إذا خيرت بين ولائك لتنظيمك الأصلي وتنظيم الضباط الأحرار، ماذا تفعل؟ أجابني بعد تردد: تنظيمي الأصلي.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأيته فيها. كان من أفضل الرجال وكنت أشعر دائماً بازدواجية الولاء في صدره. وكنت أعرف أن أخبارنا تصل تنظيمه تباعاً. ورغم أننا جميعاً

اتفقنا بوضوح، على أن يحتفظ كل منا بمعتقداته السياسية كما يشاء، إلا أننا اتفقنا بوضوح أكثر على أن تنظيمنا يلغي تلقائياً أية ارتباطات تنظيمية بأية جماعة خارجه.

وفي يوم آخر توجهت إلى صديق شيوعي لا علاقة له بالعسكريين من قريب أو بعيد. فاجأني بالسؤال: ماذا ستفعلون؟ أجبت بعفوية: جئت لأسألك لا لأجيب، ثم من تقصد بواو الجماعة؟ اكتفى بهزة رأس قائلاً: أنتم الرجال. تجاهلت المعنى وسألت: ماذا ستفعلون أنتم؟

أجاب: شكراً أنك جئت تسألني أنا، فلو أنك ذهبت إلى التنظيم الشيوعي الآخر لضلّلك وخدعك، فهم.. وقبل أن يكمل قاطعته: لا تؤاخذني إذا اضطررت للقول إنني لا أفهم تشعباتكم وانقساماتكم، ولي عليكم بمختلف اتجاهاتكم تحفظات عديدة. تحفظات على الشيوعية نفسها كعقيدة، وتحفظات على الحركة الشيوعية المصرية بمختلف اتجاهاتها. ولكن التحفظ الأكبر الذي يصل إلى حد الإدانة هو موقفكم غير المبرر من حرب فلسطين. ولولا موقفكم الوطني الممتاز في حرب القنال، لما جئت إليك. هل تذكر؟ لقد حللتم الموقف على أساس أنها حرب دينية لا تشتركون فيها، وهي لم تكن كذلك. وبمجرد أن صدر قرار الأمم المتحدة بالتقسيم وافقتم عليه. قاطعني: ولا زلنا، ونتمنى أن يوافق عليه جميع العرب الآن وفوراً، قبل أن يأتي يوم يصبح فيه التقسيم حلمًا مستحيل التحقيق. قلت: أنت تنظر إلى العرب في واقعهم الراهن، ولكن من يدري ما يأتي به الغد؟ إنكم تتكلمون عن الجدل وقوانين الحركة في المجتمع كثيراً، وفي التطبيق تتصورون الأمور ثابتة، أبدية لا تتحرك. على أية حال، هذه قضية سوف يحسمها الزمن بيننا. أما الآن، فإنني أقدر تماماً الدور الوطني المسؤول الذي اتخذتموه في الحرب الفدائية على ضفاف القنال، وأسمح لنفسي بأن أسألكم ماذا ستفعلون بعد كل الذي جرى؟

ابتسم بعد أن خلع نظارته الطبية وأعادها إلى عينيه بعد أن مسح حبات من العرق، وقال: نحن الآن في مرحلة جزر ثوري عنيف ستطول. القمصان الزرق والإخوان المسلمون حرقوا البلد تماماً، بالمعنى السياسي لا بالمعنى المادي فقط. السراي والإنجليز خططوا ولكن التنفيذ كان من اختصاص مصر الفتاة والإخوان. قاطعته بحذر: دعنا من ذلك الآن، المهم.. ماذا ستفعلون أنتم؟ استأنف كأنني لم أتكلم، وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح: يا سيدي، البلد ناضجة لثورة وطنية ديموقراطية، تنجز مهام البرجوازية التي أخفقت في إنجازها عام ١٩١٩. أي أن المطلوب لا يزال هو الجلاء والديموقراطية. ولن يتحقق ذلك بغير جبهة وطنية عريضة تقودها الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي. وبما أن هذا الحزب الذي يمثل تياره الثوري ونواته الصلبة لم يكتمل بناؤه بعد، فإن الجبهة القادرة على التغيير لن تقوم

الآن. ولذلك لا ينبغي أن نقدم قواتنا إلى المسلخ مجاناً. على الكادر أن يتخفى لفترة من الزمن عن العيون، وأن نفسح المجال واسعاً للعمل الديموقراطي كالصحافة والنشر كلما أمكن. إن التغيير حتمية تاريخية، ولكن علينا بالصبر والابتعاد قدر الإمكان عن التهور والأعمال الانتحارية. السجون ملآنة لحد التخمة، والفجر ما يزال بعيداً. ولكن الثورة قادمة لا ريب، فلا تيأس.

لم يكن يدري أن كلماته كانت جرعة مركزة من اليأس. ولكني ذهبت لتوي إلى خالد محي الدين وسألته: إذا خيرت بين ولائك للتنظيم الشيوعي أو تنظيمنا، فماذا تختار؟ لم يتردد في الجواب: لي معتقداتي السياسية التي تعرفها ويعرفها جميع الزملاء، ولكن تنظيمي الوحيد هو تنظيم الضباط الأحرار. وكان الصدق يتنفس من كل حرف في عبارته الواثقة. وارتحت من الأعماق.

كنت قد جئت بأنور السادات إلى المجموعة ذات يوم في أواخر عام ١٩٥١ أي منذ شهور قليلة. وحين قدمته إلى الرجال كانوا يعرفونه من اتهامه في قضية اغتيال أمين عثمان ولطرده من الجيش واعتقاله لما أثير من علاقة له بالنازي، خاصة بعد حادث سقوط طائرة عزيز المصري قرب قليوب. وكان قد اشترك كغيره مع عبدالمنعم عبدالرؤوف في تنظيم قريب من الإخوان المسلمين. لم يعترض عليه أحد من الرجال سوى عبدالمنعم عبدالرؤوف الذي كان رئيسه في التنظيم القديم السابق. قال لي: أنا أعرفه. ولاؤه الأول لنفسه وولاؤه الثاني للأقوى. وصوّت ضد انضمامه. قابلت السادات أثناء عودتي فبادرته: عبدالمنعم عبدالرؤوف تركنا. قال: أحسن. تعال يا ريس نروح سينما. فيلم حربي يعجبك.

كانت أول مرة أسمع فيها أحداً يناديني «يا ريس».

لم تسألني زوجتي مرة أخرى: ماذا ستفعلون؟ ولكن السؤال أصبح شريكي في سباق الزمن. كان يشاركني الطعام والشراب والنوم والأحلام ومشاهدة فيلم واللحظات القليلة التي أمضيها مع الأولاد. وكان السؤال متورماً على شفاه الرجال، ولكنهم لا ينطقون في انتظار «مجهول ما». وحين سألت أحد شباب الحزب الوطني: ماذا ستفعلون؟ قال: فتحي رضوان في السجن، وعلينا أن نكافح للإفراج عنه قبل أن يحاكم. وحين سألت أحد شباب الطليعة الوفدية: ماذا ستفعلون؟ قال: قتل الملك عزيز فهمي ومن واجبنا أن نحمي محمد مندور ليقوم بدوره في تجميعنا من جديد.

وشعرت بدوار.

لم يبق إلا أن أذهب للملك أو الإنجليز أو الحكومة، لأسألهم ماذا سيفعلون.

والوقت ينهش الساعات من جوف الأيام فتطوى الأسابيع شهراً بعد شهر. ولا جواب. أو أن الجواب لن نفعل شيئاً.

وتجسم الوطن أمامي مشهداً خرافياً لمفارقة تجمع بين المأساة والمهزلة. النظام أراد أن يحطم المعبد فوق رؤوس الجميع، فأحرق البلد واحترق. ولكن، ما من بديل. سقطت السلطة التي كانوا يهتفون بسقوطها، ولا أحد يجرؤ على التقدم لبناء سلطة جديدة. ساعة الجد هرب الجميع إلى شعارات وأحقاد وأنانيات، وتركوا الوطن الممزق ينزف على الأرصفة سؤالاً بحجم مصر: ماذا ستفعلون؟

وكنت كمن يسمع السؤال لأول مرة. كنت كمن أفاق فجأة على أن السؤال موجه إلينا كما هو مطروح على الآخرين. وانقشعت عن عينيّ غشاوة من اليأس، وأنا أبتسم صامتاً للمثل الشعبي القائل «اتغدى بيه قبل ما يتعشى بيك». كانت الحكومة قد انتقلت إلى بولكلي والملك إلى رأس التين في شهر يونيو، حيث الاسكندرية ملكة الصيف المتوجة على ضفاف المتوسط.

وفي ١٩ يوليو قررت مع الرجال أن نجيب عن السؤال بعد ثلاثة أيام، وأن نجد الوطن.. سواء أكلنا الوحش الجاثم على أبواب طيبة، أو انتحر.

بين التاسع عشر والثاني والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ثلاث ليالي مسهدة، لم أنم خلالها سوى ثلاث ساعات. كان ما يشغلني حتى الأرق هو ماذا سنفعل لو نجحت خطتنا في الاستيلاء على الحكم.

ولا أدري لماذا رحت بين اليقظة والمنام أتذكر مشاهد من «قصة مدينتين» لتشارلز ديكنز. يقال، إنه وهو الكاتب البريطاني قد ظلم الثورة الفرنسية. ولكن قوة السبك الروائي كما تخيلتها منذ قرأت الرواية في المرحلة الثانوية، جعلتني أعتقد أنه لم يكن ظالماً تماماً. وكنت أعتقد بنفس المقدار أن الثورة بدورها، كانت محقة تماماً. كيف يمكن أن يجتمع الظلم والعدل، الحرية والدم؟

يا إلهي، لم يكن يعنيني من «خطة» الثورة سوى هذه النقطة، سواء نجحنا وتسلمنا السلطة، أو فشلنا وتطايرت أعناقنا تحت المقصلة. الدم. لقد كرهته في ساحة القتال المقدس على أرض فلسطين. وكرهته في الاغتيالات السياسية اللاحقة. ولكن القوى التي تطاردنا في سباق مجنون مع الزمن، لن تتورع عن إراقة الدماء. ليكن، علينا نحن أن نكون الفرملة التي توقف الضخ بأقوى ما تستطيع، دون أن توقف حركة التاريخ.

كنت في الموقف الأضعف بين الرجال في هذه النقطة. لم أكن حتى أستطيع أن أقول لهم كل ما في داخلي من هواجس وكل ما يضطرم في أعماقي من خيالات. كنت أشعر في إحدى اللحظات بأن ما أسميه حججاً ضد الدم هو محض مخاوف شخصية لا يجوز أن أعرضها ـ مجرد عرض ـ على من سيضعون رؤوسهم على أكفهم. لم أكن عادلاً. بل كنت في ذروة العدل. يا ربي. أين الحقيقة، أين؟ كنت أتهم بعض الرجال بالشاعرية والعاطفية والرومانتيكية، وأحذرهم من المشاعر المرهفة القلقة المترددة. والحقيقة أنني كنت أحاور نفسي، أحذرها، أرتطم برواسب ثقيلة من الماضي والحاضر. من الصعيد كنت أحمل بين جوانحي رائحة الثأر. ومن الاسكندرية كنت أحمل عبق المؤانسة والرقة والغفران. من الفلاحين كنت أحمل الحقد على باشوات الأرض، ومن جريان النيل كنت أفهم صبرهم، ومن فيضانه كنت أتحسس معالم الثورة.

أنظر إلى وجه أحد أبنائي، وهو نائم، وأتساءل سراً: ما ذنبه أن يعيش يتيماً؟ وأجيب بحركة الشفاه دون صوت: وما ذنبه أن يعيش بأبوين في لظى الجحيم بلا كرامة؟ أنظر من الشبّاك وأتنهد مع أنفاس السيجارة المشتعلة، فيرسم الدخان في الظلمة الخانقة مشاهد أراها واقعاً ماثلاً، فأرتجف.

أضع يميني على جبهتي وأعصرها عصراً. لو فشلنا، سيحاول غيرنا من جديد، ولو بعد فترة من الزمن. ستستمر المحاولات طالما أن الأوضاع الراهنة باقية، فهي المستحيل، إنها خاتمة الطريق المسدود. يدوم البطش أياماً وأسابيع وربما أشهراً وسنوات. وماذا بعد؟ كيف يمكن أن يخرج الإنجليز والعرش مربوط بسلاسل قواتهم؟ كيف يتخلى الباشوات عن ولي نعمتهم وأراضيهم متصلة بكرسيه؟ وماذا يفعل الجميع ولا همزة وصل بينهم وبين هذه الكتل الشعبية العريضة المتنامية؟ لا . لا يمكن لهذا كله أن يستمر. انتهت الحرب، وتغيرت أحوال الدنيا كلها. هناك بلد جديد يبزغ كقوة يحسب لها ألفُ حساب هي أميركا، تنادي بالحرية للشعوب. أميركا أصبحت أهم من بريطانيا وفرنسا بعد الحرب. صحيح أنني أسمع بين الوقت والآخر أنها ترسم مخططات غامضة في هذه المنطقة التي يدعونها في صحفهم حيناً بالشرق الأوسط وأحياناً بالشرق الأدنى. وأسمع أيضاً عن مؤتمر يالطا بينهم وبين ستالين. ولكنم يعلنون أنهم مع الحرية والمساواة بين الشعوب. بلاد ستالين لا أعرف عنها شيئاً. أعرف فقط أنه وقع معاهدة عدم اعتداء مع هتلر أول الحرب، فأثار ذلك استنكار العديد من الرجال. ولكن ألمانيا خدعته واخترقت الستار الحديدي كما يسميه الغرب. أدهشتني المقاومة البطولية لستالينجراد. وكان الجيش الأحمر أول من دق أبواب برلين. وسقط من الروس عشرون مليوناً من الشهداء. أعرف ذلك كله. ولكني لا أعرف غيره. باستثناء

ما كان يهمس لي به الشيوعيون الذين أختلط بهم وما يؤكدونه لي من مساواة مطلقة بين الناس في الاتحاد السوفياتي، وباستثناء ما كان يصرح لي به الإخوان المسلمون وأعضاء مصر الفتاة من دكتاتورية مطلقة في الاتحاد السوفياتي، لم أكن قد كونت صورة واضحة لما يجري في تلك البلاد النائية الواسعة الصامتة. ولكني كنت أشعر بشيء واحد، هو أن هؤلاء السوفيات لن يعارضوا حركتنا إذا نجحت. قد لا يؤيدونها، ولكنهم لن يقفوا ضدها. إنهم بعيدون عنا، ولا خطر منهم.

ولكني، بالرغم من كل الشكوك التي ساورتني حول مخططات غامضة نسمع عنها همساً لأميركا في الشرق الأوسط أو الأدنى، كان لديّ شعور مبهم بأنهم هؤلاء الأمريكان سيؤيدوننا، لأننا نسعى للخلاص من الاستعمار، وهم كما يقولون علناً مع حريات الشعوب واستقلال الدول.

أما القوات البريطانية في منطقة القناة، فقد وضعناها في حسابنا إذا تحركت.

القضية ليست هنا، ليست في الجانب الأمني، فقد كان رأيي واضحاً كل الوضوح منذ البداية، ويتلخص في نقطة واحدة: وهي أننا لن نقلد الآخرين في محاصرة القصر الملكي والاستيلاء على «العرش». بل سنفعل شيئاً مغايراً تماماً، وهو الاستيلاء على الذراع العسكرية أو العصا الغليظة لهذا العرش، سنستولي أولاً على الجيش والإذاعة. أداة السلطة في القهر، وأداتها في الإعلام. بعدئذ لن يكون أمامنا عائق. تجريد النظام الحاكم من السلاح، هو تجريده مباشرة من الحكم. هذه كلمتي. وتركت تفاصيل الخطة، لزكريا محي الدين والرجال. النقطة الثانية هي أن يكون على رأس الحركة وجه لامع بالرتبة العسكرية والتاريخ المشرف، حتى يقتنع به الشعب ويفهم اسمه الملك. ووثب إلى مخيلتي على الفور اسم محمد نجيب اللواء الذي استقال احتجاجاً على إهانة مصر في ٤ فبراير ١٩٤٢ والذي سجل شجاعة فائقة في حرب فلسطين والذي يجمع في جلده ونسبه مصر والسودان والذي اتخذناه رمزاً للمقاومة في انتخابات نادي الضباط. وكان الموعد المحدد للاتفاق مع نجيب هو الثاني والعشرين من يوليو.

لم يكن عدد الضباط الأحرار في التنظيم كله يتجاوز المائة، وكانت القيادة عشر هذا العدد تقريباً. لذلك كان الاستيلاء على الجيش وتوجيهه وفق خطتنا، هو محور نجاح الثورة أو فشلها. وكان الاستيلاء على الجيش، يعني أولاً وأخيراً القبض على قيادته الحالية، وأصحاب الرتب العالية من كبار الضباط.

لم تكن «الخطة» الأمنية كما أحببت أن أسميها، تحتل حيزاً رئيسياً من تفكيري إلا حين اقتربت اللحظات من ساعة الصفر. قبلها وطيلة الأيام والليالي الثلاث السابقة، كنت في عراك مرّ

مع النفس والآخرين حول ما سنفعله إذا نجحنا. وهو الاحتمال الذي بات مرجحاً في ظني رغم الصراع المجنون مع الزمن، حيث كانت بعض أخبارنا قد تسربت بشكل ما إلى بعض أركان النظام.

كانت أسئلة الرجال تدور حول المشكلات المباشرة: ماذا سنفعل بالملك، والسياسيين والأحزاب، بالقوانين والدستور القائم، بالقوى السرية المنظمة لمختلف الاتجاهات.

وكنت أراها أسئلة صحيحة وعاجلة وسلبية أيضاً، لأنها تنصب على «الهدم» وحده. ولكن أين أسئلة البناء الذي ربما أدت الإجابة عنها إلى وسائل الهدم ذاتها؟ تراءت لي «الوسيلة» في ذلك الوقت وكأنها غير منفصلة عن الهدف، بل كأنها الهدف.

كانت أسئلتي تدور حول الفلاحين والأرض، والاحتلال والأرض، والدوائر المحيطة بنا والأرض. وكانت الثورات السابقة تحاورني في صراع محتدم. لماذا هبت ولماذا خنقت؟ من أشعلها ومن خنقها؟ كيف التهبت وكيف احترقت؟

لم تكن أمامي أرقام ولا كتب. لم تكن أمامي إحصائيات بعدد المدارس والمستشفيات والطرق المعبدة وعدد المصارف وجنسياتها وعدد المصانع وعدد الجامعات وطلابها والمصروفات والأسعار والمحاصيل الزراعية والتوكيلات والشركات ومكاتب الاستيراد والتصدير. لم تكن أمامي كتب في الفلسفة أو الفكر السياسي أو الاستراتيجية. كانت أمامي خريطة لمصر لونت مركزها باللون الأخضر، وجملة الأقطار العربية لونتها بدائرة حمراء، وأفريقيا كلها لونتها بدائرة سوداء، والعالم الإسلامي بأكمله في دائرة زرقاء. وأذكر جيداً أن ابنتي الصغيرة هدى كانت تضيف على الخريطة من الأشكال والألوان ما يجعلها لوحة من الألغاز.

رحت أصل بين هذه الدوائر الثلاث من ناحية، ومصر من ناحية أخرى، بخطوط تقصر أو تطول حسب المعنى الذي أقصده. كان القاسم المشترك الأول هو بين مصر والدائرة العربية، لذلك كان خطاً سميكاً هو الذي يربط المركز بالمحيط. وكان القاسم المشترك الثاني الذي يصل مصر ومحيطها العربي بأفريقيا أقل سمكاً. وكان القاسم المشترك الثالث الذي يصل مصر ومحيطها العربي وأفريقيا، بالعالم الإسلامي في آسيا أقل أقل سمكاً. ورحت أتبين القواسم المشتركة الثلاثة في التفاصيل: الأرض ــ النيل ــ الاستعمار ــ التخلف. ثم أعود وأقول: اللغة ــ الدين ــ الثروات المنهوبة. وأعود أكتب: الجغرافيا ــ التاريخ ــ الاقتصاد ــ التراث النفسي.

دور كالقدر مرسوم على جبين مصر. ودور كالقدر مرسوم على جبين الرجال. ماذا يربطنا حقاً بالقرن العشرين، بالنصف الأخير منه على وجه التحديد؟ هل نحن نعيش في هذا «العصر»، أم أننا بأنماط الإنتاج ووسائل الخدمات وطرائق الفكر والسلوك، نحيا ونموت

في العصور الوسطى، لا نزال؟ ما هو العصر؟ هذه الكلمة الواضحة غاية الوضوح، الغامضة منتهى الغموض؟ هل التخلف هو الطربوش والعمامة والتقدم هو القبعة؟ هل التخلف لقب باشا والتقدم هو كلمة مستر أو مسيو؟ لا. نعم. لا. نعم. بل لا. بل نعم. المظهر والجوهر. مظاهر التخلف غير ظواهره. جوهر التخلف هو القضية. الفقر، والجهل، والمرض. الكرامة والسيادة والعزة. ولا كرامة في حياة الفلاح كما يظن عبدالوهاب في أغنيته «ما احلاها عيشة الفلاح». ولا كرامة للعامل كما كان يغني بحق الشيخ سيد درويش. لا كرامة حتى لأولئك الباشوات المستذلين للأجنبي. أين كانت الكرامة حتى للملك يوم ٤ فبراير ١٩٤٢؟ أين الكرامة في الريف المظلم الخالية أكواخه من المراحيض؟

كانت أسئلتي وساعة الصفر تقترب، تدور حول الوجه الآخر للهدم. سنحذف ونحذف ونحذف، ولكن ماذا سنضيف؟ وكنت أعلم أن الرجال ليسوا من طينة واحدة. الجيش يوحدهم بطابعه، نعم، ولكن الرواسب الثقيلة في الأعماق، تعود فتفرق بينهم. وكم أرهقنا الاتفاق والالتزام بالاتفاق. الاحتلال. الإقطاع. سيطرة رأس المال على الحكم. الجيش الضعيف. الديمقراطية المهدورة. الفساد والظلم الاجتماعي. تلك هي الأهداف التي استطعنا بالكاد أن نجتمع حولها في الليالي الأخيرة. أما الوسائل فقد واجهنا بشأنها حواراً صعباً. وتفاصيل التنفيذ كانت أصعب. وكنا نؤجل كل عقبة تصادفنا بعد أن ننجح. خصوصاً «الديمقراطية السليمة» بين المبادىء الستة، كانت أكثرها غموضاً ومدعاة للاختلاف. كانوا يحسمون الاختلاف بالتأجيل أو يترك الأمر لي. وكنت أتعذب.

كنت أتعذب، لأن النجاح ليس ملكاً لي وحدي، ولا ملكاً لهم وحدهم، هو ملك الشعب كله، وربما ـ من يدري ـ غيره من الشعوب.

كنت أتعذب، لأن ترجمة النجاح سلطة. والنضال من أجل تغييرها شيء، والحصول عليها شيء آخر. كنت أعرف من التجارب والحياة والقراءة، نوازع البشر وغواية السلطة. كنت أعرف وأتعذب. من المشاهد الصغيرة التي كنت أراها أمامي في الجلسات السرية كان قلبي يخفق، وأحياناً يتوجع، بأكثر الهواجس إثارة للخواطر. وكنت أعلم أن ما أوصف به من عناد وطاقة على التحدي ليس أكثر من صورة لعناد كل منهم وطاقاتهم اللامحدودة على التحدي. وكان الإيجابي في ذلك أننا نحتاج إلى كل شحنات العناد والتحدي في مواجهة الغد المثقل بالكوابيس والأحلام.

لم أفاجأ قط بما يمكن أن نتشاجر حوله من نزعات التدين أو اتجاهات التقدم، ولكنني كنت أخشى لحظات الضعف البشري. أي تلك الأمور التي لا علاقة لها بالمبادىء. كنت أتطير منها. صحيح أن الأنانيات كلها تذوب لحظة الحسم عندما يكون السؤال: أن نكون

أو لا نكون. ولكنها تعود بسرعة لحظة النجاح. ومصر بلد الأكثر من عشرين مليوناً والأكثر من الخمس عشرة مديرية، تربطها «الدولة» المركزية حقاً، ولكن في شكل هرمي منضبط انضباط النيل من المنبع إلى المصب. ونحن لن نقلب الهرم رأساً على عقب، فلا أحد يستطيع ولا هو مطلوب. ولكننا سنعيد صياغة الخريطة على جدرانه، سنعيد التسكين في زواياه. سنقيم أكبر أهرامات مصر الحديثة المشهورة بأهراماتها القديمة. فماذا يا ترى سوف يحدث؟

وحين اعتقلني أفراد كتيبة زميلي يوسف صديق، لأنني أحمل على كتفي رتبةالبكباشي، وتركوا عبدالحكيم عامر في حال سبيله لأنه برتبة صاغ، أيقنت أن الحركة نجحت، وأن مسيرة البحث عن الوطن قد بدأت قبل موعدها المقرر فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بساعة كاملة.

□ □ □

«ليالي» العود في كفر الدوار

الأوله آه
والثانية آه
والثالثة آه
. . .
الأوله آه وقالوا لي
والثانية آه ورقصوا لي
والثالثة آه وغنّوا لي
. . .

الأوله آه وقالوا لي أن الثورة اللي حلمنا بيها قامت. . ما كُنّاش بنحلم. يا واد يا مصطفى يا خميس، ما كناش بنلعب. كنا بنضرب الانجليز وننضرب. نضرب الباشوات والبهوات وننضرب. نعمل نقابات نعمل اتحادات وننضرب.

ما أكذبش عليكم يوم ما جه الجيش استغربنا شوية. لكن ما غريب إلا الشيطان، والشيطان هو الانجليز والملك والباشوات. والشباب اللي لابسين كاكي قالوا بسم الله الرحمن الرحيم ضد الشيطان. طيب يا واد يا مصطفى يا خميس دول منا مش غُرَبا، يبقى سلام مربع يا جدعان للِّ طردوا الملك وعازمين على طرد الانجليز، ومين عارف خطوة ويردّوا شرف مصر.

. . .

والثانية آه ورقصوا لي الحبايب لما بدأت الزفة وبان عليه الأمان، عرابي اسم الله عليه رجعلنا من المنفى البعيد، ميت عرابي مش عرابي واحد. هات يا واد يا مصطفى يا خميس، هات اللي عندك من المزامير والمواويل والآيات والأناجيل، هات نقرا ونتمتع بلدنا راجعة لنا بإذن الله.

ست مبادىء يا عيني عليك، كافحنا لكل مبدأ عشر سنين من يوم ما سقط عرابي ودخل الانجليز. ستين سنة مع مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس، بنجاهد ونجاهد ونجاهد. يضربوا الفلاح في دنشواي والتلميذ في قصر النيل والتاجر في الحسين والعامل في شبرا الخيمة. لكن بنجاهد والسلام. نستلف ونجوع ونمرض ونموت، ونجاهد.

. . .

والثالثة آه وغنوا لي يا صعايدة يا بحاروة ياسكندرانية يا سواحلية يا فلاحين يا صيادين يا نجارين يا أفندية جاهزين للجهادية وفاديين إسم مصر. تعالوا نغني ونفرح دا ولا يوم القيامة، يا اللا بينا نقول ونرقص ونغني للأيام اللي فاتت والأيام اللي جايّة، للمرحوم اللي مات من زمان وللولد اللي لسّة ما تولدش. يا اللا نكحّل العين ونِحَنّي الإيد ونزغرد شباب وصبايا. الدنيا هالّة علينا بلاش كذب. افركوا عنيكم واصحوا من النوم. يا اللا بينا يا اللا.

* * *

كان الصوت الأجش يقول «يا اللّا» بخشونة مزورة. كان العسكري قد فتح الباب وفوجىء بأنني نائم. وكانت الأحداث قد مضت بسرعة مثيرة وارتباك يشبه الفوضى. ثلاثة أشهر مضت على قيام حركة الجيش التي أيدناها بقلوبنا وأعصابنا. لن أنسى ذلك اليوم الذي وزعنا فيه شراب الورد على أهل الحارة. وهو نفسه اليوم الذي جاءني فيه محمد البقري ليقول لي أن ضغط الدم الذي يشكو منه قد هبط فجأة وتلقائياً إلى النسبة الطبيعية.

وبعد أن أسمعنا الجميع صوت التأييد الحر، رغب العمال في المصنع أن يسمع الجميع بقية الصوت. إننا مصريون، لذلك كافحنا الاحتلال من قبل أن تولد حركة الجيش. ولكننا أيضاً ديمقراطيون، لذلك كافحنا الدكتاتورية والاستغلال سواء ارتدى جلداً أشقر أو كان جلداً أسمر. وقد أردنا أن نؤكد هذه المعاني في إضراب سلمي شامل لقوانا الحية.

يقودني العسكري بقسوة مزيفة، الصخب الهادر يملأ أذني من الأمس وأول أمس. وأرى من بعيد محمد البقري يساق بشدة ملفقة. كلانا يشعر بأن الآخر قريب فننظر إلى بعضنا في لحظة خاطفة. هذا هو البقري شاب كبقية الشباب وعامل كغيره من العمال. هتف لمصر والديموقراطية فحمله الزملاء على الأكتاف. ولم تخرج الشعارات عن محبة الوطن والذود عن الحرية. حق الإضراب من حقوق الإنسان، مبدأ رئيسي من مبادىء الديموقراطية. محمد البقري كهؤلاء جميعاً الذين أضربوا موقنين من أن الجيش سيفرح بهم وأن حركته المباركة ستستجيب لمطالبهم، أليست حركة الشعب؟

أنظر مرة أخرى إلى محمد البقري والخطى تقترب من بعضها، لا ندري إلى أين، ولكنه لا ينظر إلـيّ. ينظر إلى البعيد البعيد كأنه يستجمع من شتات الذاكرة تفسيراً لما يجري، أو لما سيكون.

ماذا سيكون؟

* * *

بدأنا كل شيء بعلم الإدارة وبتنظيم دقيق. اخترنا جميعاً أعضاء اللجنة التي ستقود الإضراب. حدّدنا علنا أهدافه ووسائله. أهداف لا تخرج على المبادىء الستة المعلنة لحركة الجيش في تطبيقها المرتجى على الطبقة العاملة المنزوفة الدماء. ووسائل لا تخرج عن الإضراب السلمي.

وبدأ الإضراب سلمياً فعلاً..

وفجأة

بـرزت عناصر لا نعرفها ولا نعرف حتى ما إذا كانت من صفوف العمال أم من خارج هذه الصفوف. وجوه لم تعتدها عيوننا ولم تألف نشاطها المحموم وأيديهـا تمتد بعصبية مثيرة إلى الآلات والماكينات، تحطمها وتزايد علينا في الشعارات. انقلب الإضراب السلمي الداخلي رأساً على عقب إلى مظاهرة تخريبية إرهابية.. فبعد تحطيم المصنع كان الخروج إلى الشارع لتحطيم المحال التجارية. وبعد الهتاف ضد أرباب العمل تطور الهتاف ضد الجيش.

وهكذا أفلت الزمام.

* * *

أراك يا محمد يا بقري، أراك الآن بجانبـي، ولكني أراك في الأمس أيضاً محمولاً على الأعناق تحذر من المخربين وتنذر المندسين وتشير على المتسللين. أسمع صوتك وقد بحّ من أن أعداء العمال هم الذين يحطمون المصانع والمتاجر، وهم الذين يهتفون ضد أصحاب المصانع والضباط. أسمعك جيداً. الآن أيضاً أسمعك وأنت صامت، صمتك المرير أبلغ صيحات الحزن.

* * *

حزننا جميعاً، فما أن أفلت الزمام حتى نجحت المؤامرة.. انطلقت رصاصات الشرطة فانبثقت الدماء، ولم يعد أمام «السلطة» سوى الاستنجاد بالجيش.

ولم يكن قد مضى أكثر من ثلاثة أشهر، على الثورة، حين خرج عدلي لملوم بالسلاح يضرب السلطة في عقر دارها فلم يكن نصيبه سوى السجن.

ولم تكن الأشهر الثلاثة نفسها قد مضت حين كنت أنا مصطفى خميس وزميلي محمد البقري من عمال مصانع كفر الدوار نُساق هكذا إلى مشنقتين منصوبتين في ساحة البلدة.

* * *

الأوله آه وقالوا لي دي حركة مباركة
والثانية آه ورقصوا لي العِدَا
والثالثة آه وغنوا لي العوازل:
الحركة اللي ابتدت بدم العمال
ما تخلناش نخاف على دمّنا.

□ □ □

البلاغ الثالث (٣)

الجمهورية المصرية
مكتب رئيس الوزراء
٢٦ ـ ١٠ ـ ١٩٥٤

طيلة الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية، تزاحمت على مخيلتي أحداث هذا العام المثير في حياتي، وربما حياة مصر كلها. وكانت الأحداث تستدعي بقوة لا ترد، ما سبقها من تفاصيل العامين السابقين. وبالرغم من أنه كان ما أيسر الذهاب إلى العاصمة الثانية بالطائرة في نصف ساعة، فقد رغبت في السفر بالسيارة على الطريق الزراعي حتى أشاهد بعيني ما يجري فوق الأرض. ولست خيالياً حتى أتصور أن القانون يترجم على الطبيعة فور إصداره. خاصة وان عبودية الفلاح في بلادي ذات تاريخ عريق. لذلك لم ادهش حين قيل لي ان أحد أبناء الاقطاعيين في الصعيد خرج بالسلاح ليواجه الضباط المكلفين باقتطاع الأراضي الزائدة عن حيز الملكية المقررة في القانون. لم ادهش، لأن المعركة الأولى التي صادفتنا مع النظام القديم، لم تكن طرد الملك أو تحييد القوات البريطانية أو تهدئة القلق عند الأجانب. وإنما كانت معركتنا الأولى هي الإصلاح الزراعي.

لقد تساهلت معنا قوى النظام القديم من مصريين وإنجليز كما تساهلنا نحن معهم في كل ما يخص «الشكل» الخارجي للثورة، حتى بدونا أمام قطاعات عديدة من الوطنيين أنفسهم ولبعض القوى «الثورية» أيضاً في الداخل والخارج، كما لو كنا مجموعة من الضباط الانقلابيين الذين يحافظون على الأوضاع القائمة بقوة السلاح والدكتاتورية العسكرية. من حيث الشكل تقابلنا مع القوى القديمة في منتصف الطريق، فخرج الملك فاروق كما لم يحدث في أية ثورة أخرى بشكل تكريم. على يمينه علي ماهر باشا رئيس الوزراء الذي اخترناه واسطة العقد وجيفرسون كافري السفير الأميركي. كان الأول يعني لنا في الخطوة الأولى

تحييد الرجعية المحلية، وكان الآخر يعني لنا في الخطوة ذاتها تحييد القوى الاستعمارية. وظلت بلادنا من الناحية الدستورية «ملكية» احد عشر شهراً يحكمها مجلس وصاية على العرش، الأمر الذي لم يحدث في التاريخ كما أظن. وهو أيضاً الأمر الذي أثار الالتباس التاريخي من سوء الظن والفهم لحركتنا عند قطاعات من الشعب والقوى التقدمية في الخارج.

طبعاً، كانت هناك أمور أخرى، كالقمع الدموي لإضراب عمال كفر الدوار بإعدام العاملين خميس والبقري. وشخصياً كنت ضد الاضراب، ولكني بالمقدار نفسه ضد الاعدام. وبذلك كان صوتي وحيداً في مجلس قيادة الثورة. الغالبية العظمى كانت ضد الاضراب ومع الاعدام. والأقلية الدنيا ـ يوسف صديق وخالد محي الدين ـ كانت مع الاضراب وضد الاعدام. وقد حكم عبدالمنعم أمين بالاعدام ووقع محمد نجيب على الحكم الذي نفذ على نحو همجي لا تقره التقاليد المصرية العريقة. وهكذا شاعت صفة «الفاشية» عنا في أوساط الشيوعيين والليبراليين على السواء، وكذلك كان تقييم السوفيات وبلدان المعسكر الاشتراكي.

ولم يكن أحد يدري اني شخصياً كنت السبب في خروج الملك سالماً، واني غداة نجاح الثورة وقفت بوضوح وحسم إلى جانب الديموقراطية كشكل للحكم الثوري. لم يكن معي من جميع الرجال سوى يوسف صديق وخالد محي الدين ومحمد نجيب. ولكني اكتشفت في وقت مبكر الفرق الجوهري بين ديموقراطية نجيب وديموقراطية الآخرين. كانت ديموقراطية نجيب تعني أن الثورة هي الخلاص من الملك وحاشيته، تماماً كظن قوى النظام القديم والقوى الاستعمارية. وان وجوده رئيساً للجمهورية وبقاء كل شيء بعدئذ كما كان هو غاية المراد. كان معذوراً، فهو لم يكن أحد الضباط الأحرار ولا يعرف بالضبط ماذا نريد. وكانت ديموقراطية صديق ومحيي الدين تعني إفساح المجال للشيُوعيين لتحقيق مكاسب سياسية طالما حرموا منها. لذلك كان اللقاء بين نجيب وخالد محيي الدين في عنوان الديموقراطية وحده. أما يوسف صديق، الرجل الذي أنقذ الثورة من هلاك محقق، حين بكّر بالتنفيذ ساعة كاملة قبل ساعة الصفر، فقد استقال لأنه هو الآخر لم يرَ منا سوى المحافظة على الملكية والقمع الخشن لحركة العمال. واستمر خالد محيي الدين على مضض، أو على أمل أن التحالف مع نجيب يمكن أن يكون الحل المرتقب.

تقابلنا إذن في منتصف الطريق مع القوى القديمة في ما يخص «الشكل». وحين وصلنا إلى بدايات الجوهر كان الصدام عنيفاً. وكانت البداية هي قانون الإصلاح الزراعي. اجتمع كبار الفقهاء وعلماء القانون وقالوا: لا. اجتمع كبار السياسيين من مختلف الأحزاب للمرة

الأولى، وهم الذين لم يلتقوا في حياتهم أبداً وقالوا: لا. وكان علينا أن نختار بين لائهم والعودة إلى الثكنات، ومن ثم لا نكون فعلاً غير قوى انقلابية لتثبيت الحكم القديم، أو نستمر في الثورة.

ولم يكن الاختيار من الناحية النظرية صعباً.. فلقد اخترنا منذ أعددنا أنفسنا للتغيير وحين قمنا به. ولكن المشكلة لم تكن على هذا النحو من البساطة، فالجماهير التي هتفت بحماس للحركة، لا تعرفنا. انها تعرف النحاس باشا، وتعرف محمد نجيب أو النحاس باشا الجديد. وأذكر جيداً أنني حين خطبت في شبين الكوم مفتتحاً «هيئة التحرير»: على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل، كان التصفيق من رجال الإدارة والموظفين عاصفاً. ولكني حين نزلت مع بعض زملائي وركبت السيارة الجيب لم أجد حولنا إلّا بعض الصبية الذين يحدقون فينا بعيون فضولية لا أكثر. لم يكن أحد يعرفنا، فضلاً عن أن الحماس العاطفي المشهور عن المصريين، لم نجده. كان الحماس للشعارات والأفعال لا للرجال الذين يرتدون الكاكي.

رغم ذلك فقد أفادنا إلى أقصى الحدود انحياز نجيب وصديق ومحيي الدين لاختيارنا الأول: الإصلاح الزراعي. كنا جميعاً، نحن أعضاء مجلس قيادة الثورة والصفوف الأخرى من الضباط الأحرار، صفاً واحداً يسَّر لنا حسم الاختيار إلى جانب الفلاحين. وانهدم الجسر الأول بيننا وبين الوزارة المدنية من الفقهاء الدستوريين وكبار الباشوات من إقطاعيين ورأسماليين. هؤلاء الذين لم ينزعجوا كثيراً حين أعلنا الجمهورية يوم ١٨ يونيو **١٩٥٣** وظنوا انهم بذلك تخلصوا من شبح الملك كشريك في السلطة، وانه قد آن الأوان للانفراد بها. كانوا قد توجسوا شراً في سبتمبر من العام الماضي حين أصدرنا قانون تحديد الملكية الأول بمائتي فدان للفرد الواحد.

لذلك لم ادهش حين عرفت ان عدلي لملوم خرج في المنيا شاهراً سلاحه على الضباط المكلفين بنزع الالف الأفدنة من حوزته. ولم يكن **٢٣** يوليو **١٩٥٢** هو أسعد أيام عمري، بل كان ذلك اليوم الذي مددت فيه يدي بصك ملكية خمسة أفدنة لأحد الفلاحين المعدمين.

ورغم هذه السعادة الغامرة، كنت أعلم أن ثغرات القانون واسعة، وان ثغرات الذمم أوسع، وان رواسب القرون تضغط على كاهل الفلاح المصري بالعديد من التقاليد والعادات المضادة للتقدم والمعادية لمصلحته. كنت أعرف مثلاً أن كثيراً من الاقطاعيين سيبيعون آلاف الأفدنة لأقاربهم من غير الملاك بيعاً صورياً. وكنت أعرف أيضاً أن كثيراً من الموظفين المكلفين بتنفيذ القانون سوف يرتشون أو يرتعدون ويتساهلون في الهروب من التقيد ببنوده. وكنت أعرف كذلك أن كثيراً من الفلاحين لن يتخلوا عن «أسيادهم» القدماء.

لذلك حين مرت بـي السيارة على الطريق الزراعي من القاهرة إلى الإسكندرية، بعد عام كامل على الإصلاح الزراعي، لم أكن أحلم بأن التغيير وقع وان الفلاح قد أصبح أسعد المصريين. ولكنني شاهدت الكرامة تعود إلى الإنسان تـدريجياً وان العزة تملأ نفسه. ومن هنا تخيلت العبارة الأولى بن الخطبة التي سألقيها اليوم «ارفع رأسك يا أخي، فقد مضى عهد الاستعباد».

ولكن وخز الجراح والهموم يعربد في القلب والعقل بشتى المشاعر. فالخطوة الأولى التي هدمت أول الجسور مع القوى المحلية القديمة، رافقتها خطوة ثانية هدمت أول الجسور مع القوى الجديدة. كان جلاء الإنجليز مطلباً تراثياً نضالياً لدى المصريين، وكان من الأسباب الجوهرية لقيام الثورة. فالكرامة الوطنية لا تستعاد بغير جلاء الأجنبـي أولاً. لذلك دخلنا في مفاوضات مع الانجليز، مهّدنا لها وواكبناها باستئناف الأعمال الفدائية في قواعدهم بمدن القنال، بعد توقفها مع حريق يناير ١٩٥٢. ولعلني شخصياً المسؤول عن مجرى المفاوضات ونتائجها التي فهمت انها لم تعجب غالبية المصريين. كان بقاء أي إنجليزي ولو في ثياب مدنية لأعمال فنية مرفوضاً في عمق الأعماق المصرية. ولكنه كان وارداً في بنود الاتفاقية. وكان التذرع بأي عدوان يقع علينا أو على جيراننا لمعاودة التدخل المسلح على أرضنا مرفوضاً في عمق الأعماق المصرية. ولكنه كان وارداً في بنود الاتفاقية. وكانت هذه البنود هي أقصى ما استطعت استخلاصه من البريطانيين في ظل أوضاع عربية ودولية غير ملائمة. وأيضاً في ظل يقين مطلق بأنه حين يختتم جدول الانسحاب البريطاني أعماله عام ١٩٥٦ بجلاء آخر جندي للاحتلال، فإن مصرياً واحداً لن يسمح له بالعودة أياً كانت الذرائع.

ولكن الهمس المتداول في الكواليس الدولية حول أحلاف عسكرية في الشرق الأوسط على وشك القيام، دفع الكثيرين إلى تفسير اتفاقية الجلاء من وجهها السلبـي. ولم يتصور أكثر الناس تفاؤلاً أن وجهها الإيجابـي، وهو انجاز الجلاء نفسه، سوف يصد أي احتمال للاشتراك في أحلاف أجنبية.

غير أن ذلك كله لم يكن مجدياً، لأن انقسامات حادة وعميقة وقعت في مجلس قيادة الثورة، بعضها بشأن الاتفاقية، وبعضها الآخر والأكثر أهمية وحسمًا لمجرى الأحداث، كان بسبب نظام الحكم.

كان نجيب قد اكتسب شعبية هائلة، بسبب سِنّه وأسلوبه في مخاطبة المواطن العادي وارتباطه الوثيق بالقوى السياسية القديمة، خصوصاً الاخوان المسلمين، وبسبب انه بدا طول الوقت أمام الناس كما لو انه بالفعل قائد هذه الثورة، وحتى بالنسبة لنا، فقد تنازلت له عن رئاسة مجلس قيادة الثورة، واخترناه بالإجماع رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء بناء على

طلبه. وكان الطلب يعني له السيطرة على الجيش والمدنيين معاً. ولو ان الشعب استفتي حينذاك لاختار نجيب بغير شك رئيساً للجمهورية. ولكن الوجه الآخر للحقيقة أيضاً هو انه في تلك اللحظة تماماً كان سيصفي الثورة من جذورها. لا أقصد انه سيصفينا نحن، بل مجموعة الأهداف التي من أجلها قمنا بحركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

كيف ذلك؟

لقد تمكن نجيب بشعبيته وصلاته بالقوى القديمة أن يوهم الناس بأنه رافع لواء الديموقراطية، واننا مجموعة من الشباب المتهور المتعطش للدم. وكان ذلك كذباً نلمسه يومياً في اجتماعاتنا أو في القرارات التي يصدرها دون علمنا أو مشورتنا أو في الاجراءات التي يتخذها أو في توقيعاته على الأحكام بالسجن أو الاعتقال أو الاعدام أو الطرد من الخدمة. كانت بعض هذه الأمور بموافقتنا أو موافقة أغلبيتنا لحماية الثورة من الانقلابات العسكرية المتتالية والتي كادت تنجح. وكان بعد أن يوقع القرار يذهب إلى السجن ليفتح باب الزنزانة عن أحدهم، ممن جاءت له بشأنه توصية، فيبدو للناس حامياً للديموقراطية ونحن الجلادين. وكانت بعض الأمور تمضي بدون موافقتنا أو حتى معرفتنا أصلاً بها.

وشاهدت الثورة أمامي تتقوض، فلو ان نجيب انتخب رئيساً، فلسوف يبقى عدة أسابيع فقط، تثب فوقه بعدها قوى النظام القديم تحت راية الجمهورية. ومن هنا، بالضبط، وقعت أزمة مارس الخطيرة هذا العام. أوهام نجيب بما فيها جنون العظمة تضافرت مع مثالية خالد محيي الدين وأخلاقياته النادرة، وكاد هذا التحالف المضاد لكل منهما في النهاية، أن يسبب كارثة في القوات المسلحة وكارثة أخرى في الشارع. لذلك وافقت في إحدى اللحظات مخلصاً ويائساً، أن يتسلم نجيب وخالد السلطة والمسؤولية، ونعود نحن إلى الثكنات. لم أكن أستطيع أن أتصور انقساماً دموياً بهذا الحجم في صفوف الجيش والشعب.

كانت المشكلة، كما أعتقد، أن الحق معنا وبعض القوة، ولكن الشارع والرأي العام ليس معنا على الإطلاق. ولكن الحق استطاع أن يجند بعض الشارع، كما ان بعض القوة استطاعت أن تجند الرأي العام. اعتقلنا نجيب واستقال خالد محيي الدين.

هانذا الآن رئيس الوزراء، في يميني اتفاقية للجلاء مغضوب عليها، وعلى يساري شارع تساوره الشكوك في ديموقراطيتنا، وبالكاد يحفظ بعض أسمائنا ويرى بعض صورنا. وذات مرة كنت أركب الجيب مع بعض الرجال، فإذا بأحدهم يلكزني في كتفي صائحاً: هل تسمع ذلك الفتى المعلق على سلم الترام؟ كان ممسكاً بأوراق ينادي عليها بصوت أعياه التعب: بتوع الثورة، الصورة بتعريفه. أي بخمسة ملليمات. وابتسمت، فلم يكن هناك من مشتر.

وابتسمت أيضاً حين دخلت السرادق الضخم الذي أعدته لخطابي «هيئة التحرير» بميدان المنشية بالإسكندرية. كان السرادق حاشداً. ولكني لاحظت أن الشوارع إليه كانت خالية إلاّ من رجال الشرطة وعيون الأمن السري. اتجهت إلى المنصة محيياً الجماهير، وجلست أستمع إلى آي من الذكر الحكيم. وقف قبلي أحد المسؤولين يقدمني إلى المواطنين. ثم وقفت لأتكلم.

.. وفجأة انطلقت، على بعد أمتار قليلة، ست رصاصات في اتجاهي، كان صاحبها يهتف «الله أكبر».

حين عدت هذا المساء بالقطار كانت مصر كلها تهتف من حنجرة واحدة «عاش جمال عبدالناصر، يسقط الاخوان المسلمين». وللمرة الأولى كان وصولي من محطة القاهرة إلى بيتي وسط الكتل الكثيفة من شعبنا الطيب.. إحدى المعجزات.

□ □ □

ملاحظات أخرى على البلاغ الثالث

لم يخطر على بالي قط أنني وصديق أبي قد حضرنا في إحدى ليالي العام الماضي جريمة قتل. . فبالرغم من أن الطبيب الشرعي قد أكد في تقريره أن سهى قد ماتت لتعاطيها كمية هائلة من الأفيون، وبالتالي فلا مجال لغير أحد احتمالين، إما أنها انتحرت أو انزلقت إلى الموت صدفة، إلا أن الشائعات التي ملأت نوادي القاهرة وكادت تستقر في ضمير الرأي العام هي أن محمود قتل سهى.

لم يتقدم أحد ببلاغ إلى النائب العام، سواء من أسرة سهى أو من غيرها، ولم يكتب أحد في الصحف التي نشرت النعي ما يفيد الاشتباه في ملابسات الوفاة. ولا ندري أصلاً من هم الذين زرعوا الإيحاء في الصدور بأن ثمة جريمة وقعت، وما هي مصلحتهم في ذلك، وكيف خلقوا هذا التيار الكاسح من الشكوك في شخص محمود باعتباره القاتل. لا الشرطة بحثت عنه ولا النيابة اتهمته ولا المحكمة حكمت عليه، ومع ذلك فالعيون والأصابع والهمسات تشير إليه في كل مكان بدءاً من العمارة التي يسكن إحدى شققها الفاخرة وانتهاء بمكتبه في الإدارة التي يعمل بها مروراً بالشارع والنادي والكابريه. . وكل مكان، حيث الجميع يسمونه القاتل. لا يتلفظون إسمه، وبعضهم لا يعرفه، ولكن الحكاية انتقلت بسرعة البرق من فم واحد أو أفواه معدودة إلى ما لا يحصى من الآذان.

وكان من الممكن لمحمود أن يصاب بالجنون، لو أنه أدرك سبب ابتعاد الناس عنه وتجنبهم التعامل معه منذ ماتت سهى، فالحقيقة أن أحداً لم يجرؤ على مفاتحته بالأمر، حتى أقرب المقربين الذين سمعوا الحكاية للمرة الألف لم يحاولوا مصارحته بأن هناك شكّاً يحوم حول الظروف التي ماتت فيها سهى، وأن هذا الشك يكاد ينحصر فيه، وأن ما جرى هو جريمة قتل. سأل الأصدقاء والمقربون أنفسهم: لماذا يقتلها وكيف؟ ولما طردوا الهواجس من المخيلة فضلوا ألا يخبروه بما يقال. أما هو فقد فسّر التباعد المريب من جانب معارفه

وزملائه بأنه الجو السياسي الذي يستلزم الحذر هذه الأيام، خاصة وأن الأحداث تلاحقت على نحو لا يصدق. هزّات توالت على أرض مصر كأنها عامرة بالزلازل ومكبوتة البراكين منذ آلاف السنين، وفجأة تفجرت نقائض الجغرافيا والتاريخ والإنسان والطبيعة دفعة واحدة، بدأت مع الحريق الهائل في منتصف الشهر الأول من العام الماضي، إلى الحرب التي تنبأ بها عوضين ولكن في الخط المعاكس لنبوءته، إلى السلام الذي لم يتنبأ به إسماعيل المهدوي. وعندما قابلت صديق أبي كان كل شيء فيه قد تغير خلال سنة واحدة لم أره خلالها رغم أننا تواعدنا على اللقاء المستمر. لم أصدق أنه هو، إذ يبدو لي أن قامته قصرت وأنه نحل ونحل ونحل لدرجة تشبه التلاشي التدريجي، أما شعره الأبيض فقد بدأ رحلة الجلاء السريع، وغارت عيناه حتى توارت في الداخل خلف حجاب باهت من الرموش الميتة. وخيل إلـيّ أنه لا يستطيع المشي ولكنه يتحامل على نفسه بجهد واضح. عانقت ذراعه بحنان إلى أول مقهى صادفناه. قاطعني وهو يبتسم بإعياء: أما زلت شجاعة في زمن جبان يخشى فيه الرجال أنفسهم ارتياد المقاهي؟ اتخذت مجلسي في مواجهته لاتأمل عينيه الخابيتين وهما تلمعان بين الحين والآخر بفكرة تائهة يهم بالنطق بها ثم يبتلع الكلمات بتنهيدة صامتة. قلت له: تعال نتكلم في السياسة طالما أنه ليس في جعبتنا غيرها. قال: كلا، بل في الجعبة الكثير. مثلاً، هل من المعقول أن يكون محمود قتل سهى في تلك الليلة اليتيمة؟

لم تأخذني المفاجأة تماماً، ولكني تفاجأت بأنه هو أيضاً، يعرف. وسؤاله يحمل في طياته الجواب. كأنه يميل إلى التصديق. بل هو أقرب إلى الاقتناع بأن محمود قتل سهى. قال لي: لا تحسبي الأمور دائمًا بالكمبيوتر ولا تقولي إننا شهود الليلة، فمن منا لم يكن ثملاً، من منا كان يقظاً وفي كامل قواه العقلية؟ قلت: وإذن؟ أجاب: وإذن فلا أحد منا يملك النفي أو الإثبات. كل شيء ممكن، ونقيضه كذلك. كدت أصعق. شُدَّت أعصابي لبرهة ثم تراخت. تراخت أيضاً معنوياتي. لا أفهم لماذا لم أتصور أبداً أنه هو أيضاً يكاد يصدق، بل لعله يحرضني على التصديق قبله ليصبح آخر الذين صدقوا. باغتتني فكرة ضربت رأسي في العمق ولم أفق من هول جاذبيتها إلا بعد أن نطقت بها عفواً ودون تروٍّ: ما رأيك في زيارة محمود؟ ارتبك وكأنه لم يسمع السؤال، كأنه لم يفهم، كأنه لم يقبل، كأنه لم يرفض، كأنه لم يقل: هيا بنا. وفي هذه اللحظة تماماً انشقت الأرض عن عازر ونوال. قصة الغرام العلنية وسط الأنواء السرية والعواصف المدمرة. بادرني عازر بالتحية وحاولت نوال أن تتعرف على صاحبي، وقلت بشوق عارم للتحدي الأجوف: إننا ذاهبان إلى محمود في زيارة مفاجئة دون علم مسبق ولا استئذان، هل تأتيان معنا؟ تضايقت نوال من اللهجة اللامبالية، وعلق عازر بلهجة محايدة: ألا نتأكد فقط من وجوده، ربما لم يكن في الاستوديو، ربما لم يكن في مصر كلها، قلت بلهجة

واثقة: الوقت الذي سنمضيه في البحث عن تليفون غير معطل، نستطيع فيه الوصول على أقدامنا، فالأستوديو ليس بعيداً.

لم يكن محمود هناك. ولكننا في طريق العودة لمحنا سيارته في شارع جانبي قريب من صالون «الشاي الهندي»، وبإجماع ضمني دخلنا المحل العتيد. لم يكن محمود هناك. وإنما كانت هناك إحسان، لم تكن وحدها، لمحتها نوال بسرعة في ركن بعيد، وكان الضوء الشحيح يسمح لنا برؤية الشعر وجانب من الوجه لا يخطىء. همست نوال بصوت مبحوح لا يقدر على الصراخ: إنها هي، فمن هو؟ لم يكن نصحي قد عاد من عند الذين أخذوه، فمن يكون؟ وبلغ فضولي الذروة فاتجهت وحدي بخطى سريعة قصيرة إلى حيث يجلسان، وما أن رمقتني إحسان بدهشة ومحبة حتى قفزت من مكانها تحتضنني وتقبلني وتقول: إجلسي هذا فتحي أخو نصحي، ثم قدمتني: طبعا تعرفها الصحفية المشهورة، فردد الفتى: طبعا طبعا، من لا يعرفها. لم أجلس وقلت لها إن معي آخرين وسوف نلتقي حتمًا في وقت آخر. التفتت إلى الخلف، وهي تقول: من معك، من. . آه. . عرفت. . عرفتهم، تعالوا جميعاً، ولكنني وددت أن أراك على انفراد. قلت لها: ربما الليلة، إذا بقيت أنت هنا، وإذا تفرق أصدقائي بعد قليل، اتركيها للظروف. قالت: لا، لو لم أرك الآن لبحثت عنك، هناك ما لا يحتمل تركه للظروف. وسمعت نوال كما لو أنها تناديني، فاستأذنت إحسان بسرعة وعدت لأجد أصحابي جميعاً في حالة انفعال. قلت لهم أن الشخص الذي معها هو شقيق نصحي ويبدو أن لديه أخباراً. قال عازر بتأنٍ ووقار لا يتناسب مع عمره أبداً: تعالي نشرب بيرة في «لابّاس» وسأقول لكم الأخبار.

كان ذلك مفاجئاً لي تماماً، لأن عازر شاب بعيد عن الفن والفنانين والصحافة والصحفيين والسياسة والسياسيين، هو مهندس الكتروني يجامل البنت التي يعشقها بارتياد الأماكن التي تهواها. ونوال أيضاً مهندسة، ولكن مهندسة ديكور في التلفزيون، فهي تعرف المثقفين والأدباء والراقصين والمطربات، وتحب الأماكن التي يقضون فيها سهراتهم بدءاً من مقهى الفيشاوي في سيدنا الحسين إلى صحارى سيتي في الهرم مروراً بالنايت اند داي في سميراميس. حتى السهرات الخاصة جداً في البيوت فإنها لا تتردد في قبولها إذا دعيت إليها. وكان عازر في البداية مصدوماً بهذه السهرات والبيوت والمنتديات. لقد تعرف عليها في مبنى التلفزيون أثناء مراقبته لبعض الأجهزة الدقيقة في التمثيلية التي كانت تهيىء لها الديكور. وقد لفتت نظره من الوهلة الأولى بجمالها الأسمر الوديع وعينيها الزرقاوين الصافيتين. كانت تركيبة جمالية متناقضة الألوان، فشدت انتباهه نحوها على الفور. وهو أيضاً لم يكن واحداً من «أهل الكار» الذين لا يدري المرء ما إذا كان التمثيل يمتد إلى حياتهم الخاصة. وهي،

كما يقول عنها دائماً بحب دافق، تثير الغيظ، لأنها تكره الأفكار والعواطف والسلوك الذي يميز الفنانين، وإن عشقت الجو الذي يعيشون فيه. لذلك كان عليه أن يغشى أماكن وأن يتعرف على أشخاص بعيدين كثيراً عن اهتمامه، وإذا كانوا مشوقين للآخرين، فهم بالنسبة إليه يبعثون الملل.

شخصياً كنت بالغة الحماس لعلاقة عازر ونوال رغم حساسية موقف العائلتين، ورغم المناخ العصبي الذي تعيشه البلاد منذ سنوات والذي لم يعد يسمح بهذه الإشارات الرمزية الجميلة في حياتنا البليدة. عازر جرجس ونوال حمدي؟ ولم لا؟

وكنا قد دخلنا «لابّاس» وقد سقطت فوق رأسي الضحكات. نوال تقول أنهم فكروا في هدم «لابّاس» ولم يفلحوا، فيقول عازر: ولكنهم فكروا في هدم سميراميس ونجحوا. ويقول صاحبي المخضرم: أنتم هكذا لا تتكلمون إلا عن الهدم والحرق والتحطيم وتتركون البناء، تنسون أن كل متحف هدموه أقاموا مكانه بناية فاخرة أو محلّاً لبيع الأحذية القادمة تواً من روما، أو متجراً للثياب القادمة فوراً من باريس، أو صالوناً للحلاقة بأحدث الأجهزة التكنولوجية المستوردة من الولايات المتحدة. قولوا لي، كم مصرياً ومصرية كانوا يدخلون متحف محمد محمود خليل أو قاعة اخناتون، وكم مواطناً ومواطنة كانت تعنيهم دار هدى شعراوي أو فيللا أم كلثوم؟ يا ناس فكروا بالعقل وكفانا تشنيعاً ومهاترات. لم نفهم ما إذا كان يتكلم ساخراً أم جاداً، فقد كانت اللهجة محايدة يشوبها القرف، ولا تحمل مغزى الترجيح هنا أو هناك.

ولكنن كنت شغوفة بالأخبار التي وعد عازر بأنه سيقولها لنا وتتصل بإحسان أو بنصحي أو بهما معاً. فغر فاه على آخره وهو يقول: يا عبيطة، من أين لي بمثل هذه الأخبار، وإذا كانت هناك أخبار فإحسان صديقتك وستقول لك كل شيء. قلت: على أية حال، إنها تنتظرني. التفتت نوال نحوي بحدة تقول: ولماذا لا تأتين بها؟ قلت: إحسان في العادة لا تغشى هذه الأماكن إلا برفقة نصحي، ومع ذلك سأحاول. قبل أن أهم بالوقوف بادرني صاحبي: ولكن يبدو أننا نسينا محمود. لقد انشغلنا كلنا فجأة ودون دعوة بالبحث عنه، ثم توقفنا كلنا فجأة أيضاً ودون سبب عن البحث، بالرغم من أن سيارته قريبة من هنا، ومعنى ذلك فهو قريب من هذا المكان. وأدار وجهه نحوي بعصبية ظاهرة وهو يقول: ولقد كنت صاحبة الاقتراح بزيارة محمود والآن أنت مهتمة أكثر بإحسان، فما الحكاية؟ شعرت بهزة داخل أحشائي أنه غاضب. وأنه غاضب ربما لأسباب لا تمت لمحمود بصلة. لم أغادر المقعد وكأنني قررت شيئاً. سألته بحيادية لا تحتاج مني إلى تكلف:

كيف تفسر أنه عندما احترقت القاهرة فقط أيام زمان سقط النظام بأكمله بعد ستة أشهر، وعندما كانت مصر كلها تحترق أول العام الماضي سقط وزير الداخلية سهواً، لأنه لم ينتبه لعشرات الجثث في الشوارع ولا إلى مئات العدسات والميكروفونات الصغيرة مع المراسلين الأجانب؟

كانت العيون التي تسمعني بدأت تتأفف من همساتي ذات الرنين الصاخب والعالية الضجيج في هذا المحل الراقي نسبياً وسط العاصمة. وكانت الثقة التي تصوغ سؤالي لا تتبادل الثقة مع الجواب المطروح، إذ قال: لقد تغيرت الدنيا، في أيامكم أصبحت الأمور أكثر يسراً. منذ ثلاثين عاماً كانت الهدنة بيننا وبينهم قد تمت باتفاق تداولوا بشأنه عبر الوسطاء بين الغرف المتجاورة في فندق بإحدى الجزر القريبة والجميلة في المتوسط. الهدنة تعني أن الحرب مستمرة. منذ عشرين عاماً كانت بلادنا قد صارت إقليمين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب تحاصر الهدنة وتحرر الحرب. منذ عشر سنوات كانت الجامعات والمصانع قد خرجت على الخطوط الحديدية المرسومة في الخرائط، وقامت بسد الطرقات في وجه الرمال القادمة من الصحراء وفي وجه المياه القادمة من البحر الأحمر والأبيض والميت والنيل الأبيض والأزرق ونهر بردى ونهر الكلب ودجلة والفرات. ولم تعد الجامعات والمصانع منذ ذلك الوقت، لم تعد إلى الثكنات، بقيت في الشوارع تسد الطرقات. ولكن رمال الصحراء ومياه البحار والأنهار حطمت كل الحواجز النفسية والجسور الجوية، فأضحينا نلاقيهم وجهاً لوجه بعد خمس وثلاثين دقيقة، ولم نعد بحاجة إلى وسطاء بين الغرف في فندق وبإحدى الجزر الجميلة، فالوسيط تنازل وأمسى شريكاً ومضيفاً لكلينا في أجمل بقاع الدنيا. أنا رجل عجوز شاهدت ما جرى منذ ثلاثين ومنذ عشرين ومنذ عشر سنوات وما يجري الآن، والحق أقول لكم أنكم تعيشون في زمن أكثر يسراً. ولكن أين محمود، أين؟ لقد عشنا في زمن الاغتيالات والفوضى والكسل، أما أنتم فعشتم زمن الإعدام والنظام والعمل. في الماضي كان يوماً واحداً من حكم النحاس باشا يشفي كل أمراضنا، أما الآن وفي آخر العمر ها هوذا السكر يأكلني أكلاً في عام واحد رغم أنف «مبادرة السلام» وديموقراطية كامب ديفيد. ولكن أين محمود، أين؟

قلت إنني سأذهب إلى إحسان فالشاي الهندي على مبعدة خطوات من هنا، ولكن عازر استوقفني وهو يوجه كلامه إلى الآخر الذي راح يتوجع من طقم الأسنان غير الملائم تماماً: هل تسمح لي بالاعتراض قليلاً؟ نعم في زمانكم كانت هناك اغتيالات، ولكنها أصابت عملاء الانجليز والسراي. وفي زماننا إعدامات بحكم محكمة ولكنها من تصيب؟ في زمانكم كانت الفوضى، تقول، لمجرد أنها كانت عصابات سرية من الوطنيين المتطرفين، ماذا

تسمي إذن الذين يقتلون اليمين واليسار والوسط من مختلف صفوف الشعب؟ منذ أقل من ربع قرن قام أحد أخوالي مع آخرين باعتقال البطرك بأسلوب الإنقلاب العسكري، ولكن الحكومة أفرجت عن البطرك وقبضت على خالي، سجنوه ثلاث سنوات وخرج ليجني أرباحاً هائلة من التجارة. والأن، بعد أربع وعشرين سنة، ما زال يفكر بعقلية الإنقلاب الذي فشل ويمكن أن ينجح. نوال لا تتذكر وجه والدها لأنه مات وهي بعد طفلة، ولكنهم قالوا لها أنه عاد من كفر الدوار مغموماً ذات يوم يتقيأ باستمرار لأنه شاهد بعينيه حفلة إعدام لعاملين طالبا بحق الإضراب. كان العاملان في المصنع الذي يعمل فيه معاوناً إدارياً، وقد أعدم العاملان في ساحة البلدة أمام الناس، فسقط والد نوال مغشياً عليه، وبعد عودته إلى القاهرة بساعة واحدة مات.

وجاء الصوت المشروخ من داخل الكهف القديم: أنت تتكلم في السياسة أكثر من اللازم، حسبتك مهندساً الكترونياً وإذا تماديت فعاشقاً للفن والجمال؟ تخضبت وجنتا نوال وهي تومىء إلـيّ: إذهبي وهاتي إحسان، وقد تجدين محمود في طريقك، ولنسهر الليلة في ريش. قلت: ريش، صعب، بدأت المضايقات المرسومة حتى يطفش الشباب منها، وقد نجحت المطاردة فعلاً باتفاق محبوك بين المباحث وصاحب المقهى. فكروا في مكان آخر حتى أعود. قال صديق أبـي بنغمة اسيـانة: سأودعك لأنني متعب ولن أستطيع السهر. وأشار على عازر وهو يغتصب ابتسامة شاحبة: أخشى عليك أن تتهمك الحكومة بعضوية إحدى الجماعات الإسلامية، وأخشى عليك أن تقتلك إحدى هذه الجماعات.

قال ذلك ونهض من مكانه ليرتفق ذراعي إلى الخارج. ولأنه متوجه إلى ميدان التحرير في محاولة يائسة لركوب تاكسي فقد مشيت معه وكأنه أبـي فعلاً أو جدي، وليس ذلك الرجل الذي غرقت معه حتى القاع منذ سنة واحدة فقط. توقف فجأة ليمسك إحدى يديّ بين راحتيه وهو يقول: يكفي، عودي أنت، ولكن فكري معي إلى أن نلتقي، لماذا يقتل محمود سهى، وكيف قتلها في حضورنا، إنني أكاد أجن.

هرولت في العودة إلى إحسان. لم يكن فتحي هناك. وكانت تقرأ في إحدى المجلات مسلسلاً سياسياً تحت عنوان «أطول سنة في تاريخ مصر» قلت لها: ما الحكاية، أصبحتم جميعاً أيها اللامبالون مهتمين فجأة بالسياسة والتاريخ وأفعل التفضيل. عازر الصامت الأبدي نطق فجأة. وأنت أيضاً صرت تفتحين هذه الصفحات التي لم تفكري يوماً في قراءتها. ماذا حدث؟ قالت إحسان وشعرها الأسود المنساب حول وجهها المتورد الهادىء يغريني بالنظر في عينيها الشديدتي السواد: صفحات التسلية فقدت عنصر التشويق والإثارة. صفحة الجرائم أصبحت معروفة ومكررة وتدعو للسأم بدءاً من الاختفاء اليومي للأولاد والبنات وليس

انتهاء بقتل الأزواج والزوجات والحموات والأمهات مروراً بالاغتصاب والاختلاس والرشوة وبقية الجرائم الثانوية. صفحة الوفيات أمست قائمة يومية بأخبار السكتة القلبية والسرطان وانفجارات المخ. صفحة الإعلانات ثلاثة أرباعها مصايد للأسماك الملـونـة، شبـاك ملغومة لاختطاف أصحاب النوايا الحسنة وأموالهم القليلة، جمعيات وهمية لبيع الأرض والبناء وشركات مزورة للرهن والقروض و. . .

وقاطعتها: المهم، عندك أخبار؟ ابتسمت بوداعة وهي تحتج: لازم أكمل جوابي على سؤالك، فأنا بدأت أقرأ في السياسة بصراحة لأنها أكثر تسلية من صفحات التسلية وأكثر إثارة من صفحات الجرائم وأكثر تشويقاً من الموت المفاجىء في صفحات الوفيات وأكثر تنشيطاً للمخيلة من صفحات الإعلانات. خصوصاً وانني أقرأ عن أشياء لم نرها ولم نعشها. هذا المسلسل مثلاً يكتبه أحد المؤرخين الذين اشتهروا بالكتابة المستمرة ضد اليهود والتأكيد المستمر على أنه ليس هناك يهودي غير صهيوني، أما الآن وكما تعلمين فقد أصبح أكثر شهرة بالدفاع عن الصهيونية لا عن اليهود. وهذا المسلسل الجديد يكتبه عن اتفاقية الجلاء مع الانجليز وحادث المنشية وإعدام «الأخوان» واعتقالهم وضرب السنهوري في مجلس الدولة وخروج العمال لتأييد فريق ضد فريق من الضباط وحوادث أخرى كثيرة يستخلص من رصدها أن ذلك العام الذي وقعت فيه كان أطول الأعوام في تاريخ مصر.

قلت لها: ليس المهم أن يكون أطول الأعوام أو أقصرها فهذا مجاز بلاغي عديم القيمة، والأهم ربما كما كان يقول نصحي كثيراً لو تذكرت جيداً، أنه كان العام الفاصل بين مرحلتين في تاريخ مصر، كان خطاً حاسماً كما يقال. أخبريني عن نصحي. كنا نبحث عن محمود حين لمحتك نوال. .

قالت إحسان: محمود؟ ألا تعرفين أخباره فعلاً؟ قلت: أعرف شيئاً واحداً، وهو أن الجميع يتهمونه سراً بقتل سهى. وأعرف شيئاً آخر هو أن سيارته قريبة من هنا، وهو ليس هنا ولا هناك. قالت إحسان: هيا بنا من هذا المكان. وقمنا معاً لا أدري إلى أين. لم أقل لها أن عازر ونوال في «لابّاس». شعرت أنها تحتاجني وحدي. قالت وهي تشير إلى الفترينات المرصعة باحدث منتجات ديور ونينا ريتشي وإيف سان لوران: نصحي ليس في السجن، أتسمعينني جيداً، هذا مؤكد لنا الآن بشكل قاطع. إما أنه هرب فجأة لتوقعه الاعتقال بسبب مظاهرات الانتفاضة، أو أنه مخطوف. لم نفكر في حكاية الخطف هذه إلا بعد أن تلقى فتحي رسالة بغير توقيع أنه من المحتمل أن يكون نصحي محتجزاً لدى إحدى «الجماعات» الدينية في الصعيد. وهو احتمال لم يخطر على بال أحد. وقد جاءني فتحي ليسألني عما إذا كان

من المفيد تسليم الرسالة للنيابة. وقد رفضت ذلك، فلربما كانت المباحث نفسها هي صاحبة الرسالة.

سألتها وقد اتضح لي أننا نتجه إلى بيت أم نصحي: والاحتمال الآخر أنه هرب، ولكن لماذا يهرب، من أي خطر؟ وكيف اختفى فجأة وسط الحشود الكثيفة، وكان يقف إلى جانبك أمام «إيزافنش»؟ وضعت رأسها على كتفي فوق الفرشة النظيفة في غرفتها الصغيرة، تنهدت ولم تنطق بكلمة. اندست في حضني أكثر وكأنها تريد أن تهرب هي الأخرى بين ضلوعي. ولم أعد أسمع صوتها هل هو غمغمة أم تنهد أم شهيق النوم وزفيره أم مشروع بكاء. ووجدتني أبسط راحتي على شعرها وجبهتها وكأنها ابنتي. قلت لها: ماذا عن محمود؟ استوت في رقدتها وكدت أشعر أنها تدفعني دفعاً لاحتوائها وقد تمددت إلى جانبها ورأسها في صدري وفوق ذراعي. همست بحشرجة: محمود يعرف ماذا يقول عنه الناس. احتمل في البداية. ثم أقبلت «المبادرة» فأيدها، وازداد عنه الناس بُعداً. احتمل أيضاً وقاوم. وأقبلت اتفاقات كامب ديفيد فأيدها كذلك. وهجره الجميع، فهرب هو الآخر من الناس ومن نفسه. تحاشى النظرات الصارخة في صمت: القاتل، تحاشاها بالسفر المستمر وإدمان المخدرات ومعاشرة البغايا. هكذا عرفت منه هو شخصياً حين جرؤت ذات مرة وطلبته في التليفون. ثلاث ساعات متصلة من الكلام، لم أقاطعه. بعدها لم أعد أعرف عنه شيئاً، أي شيء. بعضهم يقول أنه جنّ وأنه يقيم في مستشفى للأمراض النفسية. وبعضهم يقول أنه سافر سراً إلى الخارج وأنه يقيم مع سيدة يهودية صديقة قديمة في باريس.

وكانت أنفاس إحسان تتردد بانتظام في أحشائي حين كانت يداها تلتفان حول خصري بقوة كأنها تستغيث، وكنت أنا أعبث بخصلاتها التي استطبت رائحتها ورحت أدس أنفي بينها وأشمها بشغف أرهق بعض العروق في عنقي، ثم تدحرجت شفتي إلى عينيها المسبلتين ووصلتا إلى شفتيها كأنها المستقر.

كان الوقت بعد منتصف الليل بقليل حين خرجت من عند إحسان، وأبواب السينما مفتوحة للخارجين، وباعة الصحيفة المطبوعة مبكراً يلاحقون زبائن البارات والمقاهي المتأخرة. وقبل أن أدلف إلى التاكسي الذي توقف فجأة اشتريت الجريدة من الولد الصغير، ولم أطوها كعادتي. رحت أخطف عناوين صفحاتها واحدة فواحدة حتى انتهيت إلى صفحة احتلت فيها إحدى الصور ثلاثة أعمدة. كانت جثة محمود وقد انتحر بعدة رصاصات في صباح اليوم الذي انتهى منذ لحظات.

□ □ □

البلاغ الثالث (٤)

الجمهورية المصرية
مكتب الرئيس
٢٥ ـ ١٢ ـ ١٩٥٦

لا أدري كم من الوقت قطعت السيارة الطريق الصحراوي من القاهرة إلى بورسعيد. ولكنها كانت تنهب الطريق بالسرعة القصوى. وددت لو ذهبت في الطائرة. هو عيد الأعياد في حياتي، أقصد في حياة تلك المدينة الباسلة. كنت أعشق ستالينجراد من الكتب والسينما، فإذا ببورسعيد تضرب أمثولة العصر الجديد في المقاومة والبطولة والشهادة. هو عيدها إذن، بعد جلاء آخر جندي أجنبي من منطقة القنال. هو عيد قناة السويس إذن، ولكنه عيد بورسعيد، رمز الدم.

في الصباح كتبت إلى محمود فوزي مندوبنا الدائم في الأمم المتحدة، أن يأخذ في اعتباره أمرين: الأول أن اسرائيل سوف تتلكأ في الانسحاب من قطاع غزة، فليدرك العالم أننا سنستأنف القتال لو حدث ذلك. والأمر الثاني، هو أن التعويضات التي نطلبها من المعتدين ليس المقصود بها أنهم سيدفعون لنا قرشاً واحداً، وإنما الهدف هو تبرير تأميمنا المقبل والقريب جداً لكل المصالح الأجنبية في بلادنا. لم يكن تأميم القناة سوى المدخل الرئيسي لتمصير كافة الشركات والبنوك الانجليزية والفرنسية والبلجيكية وما كان أعظم في الخفاء.

بعد أن أبرقت بهذا المعنى إلى نيويورك، يبدو أنني غفوت قليلاً، رغم استعجالي للمرافقين إلى بورسعيد. غفوة لم يشأ أحد أن يوقظني منها، لأنهم يعرفون أنني لم أنم خلال الشهور الأخيرة أكثر من ثلاث ساعات في اليوم الواحد. وأنني أحياناً لم أكن الاطلاق.

كيف أنام، وقد تلاحقت الأحداث بوتيرة مذهلة، بالاضافة إلى أن الأمر كله كان مفاجئاً لي. نعم، كنت أتصور أن ما أقدمت عليه في ٢٦ يوليو الماضي حين وقفت في ميدان

المنشية نفسه ـ الذي كدت أقتل في ساحته منذ عامين فقط ـ أصدر قراراً جمهورياً بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية، أنني سأؤلب على مصر كل قوى الغرب والاستعمار. ولكن الحقيقة أنني لم أتصور قط احتمالات التدخل العسكري السافر، فضلاً عن الوقاحة الانجليزية الفرنسية في التواطؤ القذر مع اسرائيل. وحين طلعت فوق سطح منزلي منذ أقل من شهرين لأرى بعيني ما يجري في الجو، هالني أن أشاهد طائرات كانبرا البريطانية هي التي تقوم بالغارة. في اللحظة نفسها شعرت بعطش حارق. وحين نزلت إلى الطابق السفلي داهمتني رغبة متصلة في التبول. وفي المساء قال لي الطبيب أنني أصبت للتو بمرض السكر. وهكذا أضيف سبب جديد لطرد النوم من الجفون، وتحديد حجم ونوع الأطعمة التي كنت مقلاً فيها بطبيعتي. تكفيني دائمًا، بغير ريجيم، قطعة الجبن المصرية البيضاء وشريحة اللحمة والسلاطة الخضراء وكوب من عصير البرتقال. وهي الأصناف التي كانت تزعج الموائد البروتوكولية في البلدان الأجنبية التي أقوم بزيارتها. ومن هنا كنت أعزف عن تلبية أغلب الدعوات إلا في الضرورة القصوى.

وقد لاحظت تغيراً محسوساً في سلوكي بعد إصابتي بمرض السكر. كنت قادراً أكثر الأحيان على كتمان الغضب، ولكن الانفعال صار يفلت مني رغمًا عني في ما بعد. رغم ذلك، أعتقد أنني استطعت كبح جماح نفسي في ذروة المعارك حين جاءني صلاح سالم يقول ما لم يدر بخلدي مطلقاً أنني سأسمعه من إنسان في يوم من الأيام، فكم وكم من أحد الرجال الذين شاركوا في صنع ٢٣ يوليو؟ قال لي أمام بعض الزملاء: لقد ضحيت بما فيه الكفاية، وبقيت تضحية واحدة وأخيرة لإنقاذ الوطن والشعب. قم وسلم نفسك للسفير البريطاني، فهم لا يريدون من هذه الحرب المدمرة سواك.

ومن المفارقات المحزنة أنه قبل ذلك بساعة واحدة جاءني من يمثل باشوات الزمن القديم ليقول كأنه مقدم على فداء تاريخي: اننا على استعداد لتسلم السلطة منك رغم قسوة الظروف. وسوف نضمن حياتك أنت وزملاءك حتى تغادروا البلاد في سلام، ونقوم نحن بمفاوضة بريطانيا وفرنسا.

كان من الطبيعي أن أسمع هذا الكلام من الباشا وأن أطرده من مكتبي على الفور، فقد ظننته جاء كما كان الوضع عام ١٩٥١، ليشارك برجاله في جحيم الحرب، وإذا به يعود كالذين يمثلهم إلى حقيقتهم دون سواها: التسليم والاستسلام. ولكن أن يأتيني أحد الرجال ويقول لي ما يشبه هذا الكلام، فقد كانت صدمة شخصية مروعة.

طبعاً، من الناحية الدستورية، لزميلي وغيره كل الحق في الغضب، ولكن ليس لأي منهم أي حق في اليأس، والمواطن العادي في غرفة النوم وبسكاكين المطبخ وبزجاجات مولوتوف

من النوافذ يلقيها على أقفية جنود الاحتلال. من حق الجميع أن يغضبوا، لأنني في الحقيقة لم أخبر أحداً بما أعتزم فعله إلا يوم خطاب التأميم في ٢٦ يوليو الماضي. لم أخبر أكثر من ثلاثة أشخاص من بينهم محمود يونس الذي كلفته بالتنفيذ حين يسمع مني كلمة السر وهي تكرار اسم «ديلسبس» أثناء الخطاب ثلاث مرات. ويقال أنني كررت اسم هذا الفرنسي الذي شق قناة السويس ست عشرة مرة.

لم أخبر أحداً، لأنني أيقنت من جس النبض أن الغالبية سترفض هذه «الجرأة» أو «التسرع» أو «التحدي» خاصة وأن اتفاقية الشركة العالمية لقناة السويس كانت ستنتهي بشكل طبيعي عام ١٩٦٨ فلماذا الاستعجال؟ كان هذا التساؤل حين كشفت لمجلس الوزراء عن تفكيري حول حق مصر في خمسين في المائة من أرباح القناة، اسوة بالنسبة التي تتقاضاها الدول البترولية عن النفط. رفضوا الاقتراح، فماذا سيكون موقفهم إذا بادرتهم بأن حقنا الحقيقي هو استرداد القناة مائة في المائة؟ لذلك لم أخبر أحداً ومن حقهم أن يغضبوا، ومن حق أحدهم على الأقل، أن ييأس وينهار. ولكن ليس من حقه على الاطلاق أن يدعوني والبلد كلها إلى اليأس والانهيار. رغم ذلك، كظمت غيظي وأشفقت على صلاح، وخرجت إلى الأزهر ــ كان اليوم جمعة ــ لأصلي مع الجماهير المتدفقة كفيضان النيل، ولأخطب من فوق المنبر صارخاً من عمق الأعماق: سنقاتل، سنقاتل، ولن نستسلم. كنت أصرخ في الحقيقة بوجه صلاح سالم وبوجه الباشا معاً، بلسان هذه الملايين المتأججة بالنيران ضد المعتدين.

في ذلك اليوم اتخذت عدة قرارات أثارت بعض زملائي: أولها تسليح الشعب على الفور. كان هذا البعض يخشى استغلال الموقف من جانب فريق ما يقوم بانقلاب. ولكني وسط الطوفان البشري المتلاطم في الأزهر، آمنت على نحو صوفي لا يناقش، أن هذا الشعب العظيم من حقه أن يحمي وطنه بذراعه، وأنه ليس من حقنا أن نخشى هذه الذراع إلا إذا كنا نستحق ضربتها. وكان القرار الثاني هو البدء في الاستعدادات لحرب عصابات طويلة المدى، نتخذ لها مقرين أساسيين أحدهما في طنطا بدلتا الوجه البحري والآخر في أسيوط بصعيد الوجه القبلي.

كان الموقف العسكري صعباً ومريراً وضاغطاً على كل الأعصاب. ورغم أنني مسؤول عن قرار الانسحاب من سيناء حتى لا يحاصر الجيش من الشرق والغرب، فقد كان التنفيذ بطيئاً وسيئاً للغاية، كما أن غفلة سلاح الجو أضافت المزيد من الكوارث.. لولا تنظيم القوات الشعبية والحرس الوطني. يومها أيقنت أن هناك اثنين على الأقل يجب إخراجهما من القوات المسلحة: أقرب الأصدقاء عبد الحكيم عامر الذي أصبح رجلاً سياسياً وبعيداً عن

تطور الحروب، وصدقي محمود. ولكن ذلك لم يكن ممكناً حينذاك. في غمرة المعركة لم يكن هناك وقت لأية محاسبات. وبعدها كانت نشوة النصر حاجزاً دون أي حساب.

رغم أنه كان نصراً سياسياً فقط، ولا مجال لفخر العسكريين، فالدماء الغزيرة التي روت الأرض على نحو منقطع النظير، كانت دماء الشعب أساساً، وحتى دماء الشهداء من القوات المسلحة كانت في غير موقعها الصحيح وبسبب حسابات خاطئة وعقليات غير متطورة.

وكانت دماء الشعب هي الاطار الشامل للصمود حتى النصر، فالانذار السوفياتي كان مهمًا ولكنه وصل آذان المستعمرين بعد تسعة أيام من الصمود. أما الضغط الأميركي على بريطانيا وفرنسا واسرائيل، فقد أدى مهمته في انسحاب المعتدين، ولكن الحسابات الأميركية ذاتها ووراءه كانت مشبوهة.

كانت العلاقة بين مصر وأميركا قد اتخذت مجرى بالغ السوء يصل إلى درجة الصدمة الموجعة لآمالنا المبكرة أو المتسرعة في هذه القوة العظمى البازغة والتي تنادي علناً بالحرية للشعوب. لذلك كنت قد فكرت منذ نجاح الثورة في الاعتماد على الولايات المتحدة لتنفيذ أحد المبادىء الستة، الخاص بتكوين جيش قوي. وأرسلت فعلاً علي صبري إلى واشنطن للبحث في إمكانيات إمدادنا بالسلاح. ولقد بادر الأميركيون إلى مساعدتنا بإرسال بعض القطع الصالحة لفض المظاهرات. كذلك، فقد فكرت منذ نجاح الثورة في الاعتماد على الولايات المتحدة لبناء السد العالي، فبادر الأميركيون إلى الوعد بالمساعدة، ثم أعلن دالاس تصريحه الشهير ــ وسفيرنا أحمد حسين في مكتبه ينتظر الموافقة المكتوبة ــ أن الاقتصاد المصري لا يتحمل هذا المشروع الخيالي.

في ضوء هاتين النتيجتين الحاسمتين فهمت معنى التدخل الأميركي لمصلحتنا في الظاهر إبان معركة السويس. والحقيقة هي أن الولايات المتحدة كانت تعد نفسها لقطف ثمرة نصرنا باحتلال المواقع التي كانت للاستعمار القديم، ولكن بوسائل الاستعمار الجديد.

كان الأميركيون يريدون من مصر شيئين لا ثالث لهما: الأول هو الصلح مع اسرائيل، والثاني هو الدخول في حلف «لملء الفراغ» في الشرق الأوسط كما دعاه أيزنهاور حرفياً. . في ما بعد، ليقطع الشك عندنا في أن أميركا ترغب تماماً في مساعدة مصر الأميركية، لا مصر المصرية فضلاً عن مصر العربية.

وكان الصلح مع اسرائيل بنداً رئيسياً في جدول أعمال كل مسؤول أميركي قابلته بعد نجاح الثورة. وكان ذلك يدهشني إلى حد بعيد، لأنني لم أكن أفهم لماذا يقحمون هذا الموضوع على مباحثات تعني بمصالح الدولتين والشعبين. كنت أفهم أن أميركا هي أول دولة

اعترفت باسرائيل، ولكن اشتباك المصالح الاستراتيجية بين واشنطن وتل أبيب في الشرق الأوسط لم يكن على درجة عـالية من الـوضوح والتفصيـل. كانت كلمتـا «الاستقرار» و «السلام» من المفردات اللامعة في قاموس كل دبلوماسي أميركي قابلته. وحين جاءتني صور الغارة الاسرائيلية على قطاع غزة في فبراير ١٩٥٥، أدركت أكثر من أي وقت مضى أن لا سلام ولا استقرار لأمد يطول في هذه المنطقة من العالم.

وحين أيقنت أن أميركا لن تعطيني سلاحاً أدافع به عن بلادي، توجهت إلى مؤتمر باندونج وفي ذهني البحث عن مصدر آخر للسلاح. والطريف أن هذا المصدر أوحى لي به جون فوستر دالاس نفسه على مائدة العشاء في زيارته للقاهرة. سألني يومها لماذا أرفض الحلف الإسلامي مع تركيا وباكستان والعراق وايران؟ وأجبت: ولماذا أقبله؟ إن التحالف الأول الذي يعنيني هو التحالف العربي. قال: والخطر السوفياتي؟ أجبت وأنا أبحث بعيني في أركان المكان من قبيل المداعبة: أين هو؟ إن الاتحاد السوفياتي على بعد آلاف الأميال من حدودنا، وليس له رصيد استعماري في بلادنا. ومع ذلك، فأنا ضد الأحلاف الأجنبية أياً كان لونها. أما إذا كنت تقصد الشيوعية فلا خوف على مصر منها في ظل الثورة. دعني أقول لك، إن سياساتكم هي أكبر المحرضين على اعتناق الشيوعية في البلدان الفقيرة، حيث تشجعون القهر والفقر بالأنظمة «المتعاونة» معكم حتى لا أستخدم تعبيراً آخر.

لا زلت أذكر كيف جحظت عينا دالاس من محجريهما خلف نظارته، وهو يستمع مأخوذاً. في تلك اللحظة برقت في مخيلتي فكرة: ولماذا لا نتسلح من السوفيات حقاً؟ ووجدتني أردد السؤال الذي جرؤ الوزير الوفدي عبد الفتاح حسن أن ينطق به في غمرة حماسه أمام المظاهرة الهائلة التي دقت أبواب مجلس الوزراء يوم استشهاد شرطة بلوكات النظام في الاسماعيلية بالمدافع البريطانية، واحتراق القاهرة.

وفي باندونج همست للزعيم الهندي نهرو بالفكرة، فدفعني إلى مقابلة الزعيم الصيني شو ان لاي ومفاتحته في الموضوع قبل طرحه على السوفيات. وكانت العلاقات الصينية السوفياتية في ذلك الوقت تسمح بمثل هذه الوساطة التي تكللت أخيراً بالنجاح، حين طلب السفير السوفياتي في القاهرة بعد شهر واحد أن يقابلني في أمر هام، وإذا به يخبرني أن الطلب المصري مقبول، وأن بعثة عسكرية مصرية تستطيع القيام بزيارة إلى تشيكوسلوفاكيا سراً للبحث في التفاصيل.

كان واحداً من أسعد الأيام، وكان واحداً من أيام الحرب الباردة حيث لم يكن سهلاً على دولة كبرى أن تغامر بتسليح بلد كمصر. وكان الأهم أن الاتحاد السوفياتي أخيراً، اقتنع بأن ما جرى في مصر ثورة وليس انقلاباً أو دكتاتورية عسكرية.. كما أسمتنا المنشورات

الشيوعية المصرية والعربية والأجنبية حيناً من الزمن. ولكن مسيرة الثورة من الاصلاح الزراعي إلى الوقوف بوجه الأحلاف الغربية، جعلت السوفيات المشهورين بالبطء في الحساب، يغيرون موقفهم. غير أن ما رافق المسيرة ذاتها من إعدام العاملين خميس والبقري وإلغاء الأحزاب، جعلني أحياناً أقرأ في البيانات الشيوعية نفس ما أقرأه في الصحف والاذاعات الغربية.

والحقيقة هي أن الأحزاب القديمة كانت جزءاً لا ينفصل عن جوهر النظام القديم. ولم تكن قضية فلسفية مجردة. بل كان وجودها يهدد في الصميم بحرب أهلية بين المصريين. وكم طلبنا من كل الأحزاب تطهير نفسها ففهمت التطهير تغييراً للوجوه لا للمبادىء. وإنصافاً، لم يكن تغيير المبادىء ممكناً. وقد تعلمت من رفضهم للإصلاح الزراعي أنهم سيرفضون بعدئذ كل شيء. طبعاً كانت هناك أحزاب صغيرة كمصر الفتاة والحزب الوطني، ولكن استيعابها في «هيئة التحرير» ثم «الاتحاد القومي» كان ممكناً، وهو الاطار الذي تصورت أنه يحول دون الصراع الدموي بين الطبقات، وإن لم يكن حزباً. أما الشيوعيون فقد كان عملهم سرياً قبل الثورة، وبعدها هاجمونا بأعنف الأوصاف. أما الاخوان المسلمون فقد أرادوا اغتيالي والتخلص من الثورة كلها. لذلك كانت هناك سجون ومعتقلات، وأحكام إعدام على بعض قادة الأخوان المتورطين حتى العنق.

ولا شك أن تجاوزات قد حدثت، فللسلطة غوايتها، والمسافة بين القرار والتنفيذ هائلة. ولم أكن لأستطيع أن ألجم الشهوات الضيقة وحدي في بلد تعداده راح يزيد بمعدلات مثيرة، وبيروقراطية لها تقاليد عريقة. نعم، وقعت أخطاء فادحة، ولكن لا علاقة لها بالصورة التي رسمها الغرب ولا بالصورة التي رسمها الشرق.

وأخيراً جاءنا هذا السلاح الذي قاتلنا به في معركة السويس. قبله لم يكن لدينا سوى «الخردة» من مخلفات الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن ممكناً للسر أن يبقى سراً للأبد، على وكالة المخابرات المركزية، بل لعلها عرفت بأمر الصفقة التشيكية ــ كما سميناها ــ من براغ ذاتها. وقامت القيامة الأميركية علينا وعلى الروس معاً. هددوا حتى اللحظة الأخيرة بأنهم سيحاصرون بحرياً السفن القادمة إلى موانينا والمحملة بالسلاح. ولكن مناورة سوفياتية في عرض البحر ألغت الفكرة.

وكان خالد محيي الدين الذي استقال منذ عامين قد اختار سويسرا ليقيم منها جسور الاتصال الهامة التي أسهمت بنصيب وطني في إنجاز الاتفاق. وكان هذا الصديق هو نفسه الذي أمدني بمعلومات دقيقة عن العدوان، لم نأخذ بها، حصل عليها في باريس، وأثبتت

الحوادث أنه كان على حق. لذلك عاد خالد إلى القاهرة وأصدرت له جريدة «المساء» ليعبر فيها اليساريون عن آرائهم.

كان همي الأكبر هو بناء السد العالي. عنوان الاستقلال الحقيقي، والمشروع الذي سيزيد رقعة الأرض الزراعية المحدودة لمصر، ويروي الأرض بنظام الري الدائم، ويولد الكهرباء ليضيء الريف المظلم. كان سد أسوان فكرة قديمة تطويها ملفات الحكومات المتعاقبة ومضابط مجلس النواب. ولكنه بالنسبة لي، كان استكمالاً حتمياً للإصلاح الزراعي. كان الفلاح والأرض محور أرقي الدائم.

ولكن أميركا التي رفضت تسليحنا وفوجئت بالاتجاه شرقاً للتسلح لم تفهم ما قلته لمبعوث أميركي: ان هوية السلاح هي هوية اليد التي تحمله، فالسلاح السوفياتي يصبح مصرياً بمجرد وصوله إلى اليد المصرية. ولكنهم كانوا يفكرون في الصلح مع اسرائيل. أميركا هذه رفضت أيضاً المساهمة في بناء السد العالي. وقد أبلغني همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة بعد ضربة غزة أنه التقى بن جوريون وقال له: مصر بلد مسالم، وعبد الناصر لا يريد سوى أن يبني وطنه، فقال له الثعلب الصهيوني حرفياً: وهذا ما يخيفني بالضبط.

أي أن تمويل السد العالي كالحصول على السلاح تماماً، يعني كلا الأمرين عند الأميركيين ابتعاد الصلح مع اسرائيل.

لذلك كله أكرر أن التدخل الأميركي لمصلحتنا في المعركة كان تدخلاً مشبوهاً، ولكننا انتهزناه للدرجة القصوى.

ويعود الفضل في النصر إلى عاملين: دماء الشعب المصري ومقاومته البطولية، والموقف العربي الذي تمثل في إقدام مجموعة من الضباط القوميين في سوريا على قطع أنابيب النفط، وفي الوقفة الاستثنائية التي وقفتها الشعوب من المحيط إلى الخليج.. خاصة شعب الجزائر الذي رأى حينذاك أن العدوان من أحد جوانبه كان انتقاماً فرنسياً من مساعدة مصر لثورته التحررية.

والأهم أنني حين رحت ظهر اليوم أمسك بالعلم المصري وأقبله بين راحتي قبل رفعه على سارية بورسعيد، أحسست بحرارة الدموع ترسم عليه كلمتين جديدتين كلياً كالرؤيا: عروبة مصر.

□ □ □

على الربابة يا أبو زعبل

اسمي شهدي عطية الشافعي

كنت والرفاق نتنوي الاحتفال بذكرى مرور عامين على الغياب المروع للرفيق اللبناني فرج الله الحلو حين قيل لنا أن «الترحيل» غداً من سجن الاسكندرية إلى سجن أبي زعبل. أمضينا ليلة مرهقة في التحضير للغد المجهول أو المأمول. ترى، ماذا ينتظرنا حقاً؟ أتخيل وجهه دائماً، وهو يخترق الحدود المزورة من لبنان إلى سورية. وطالما أن التزوير أصاب الحدود، فلماذا ينجو جواز السفر؟ وعندما دخل الشام بعد قيام الوحدة لم يعد «هو». لذلك حين قتلوه أقسموا أنهم لم يقبضوا على فرج الله الحلو أبداً، وليس صحيحاً أنهم وضعوا جثمانه في حامض الكبريتيك حتى تحلل نهائياً ولم يعد له وجود. كان فرج الله الحلو صاحب الجثمان المذبوح المحترق، ولكنه لم يكن صاحب الهوية المزورة التي دخل بها دمشق. لذلك فهم حين أقسموا كانوا صادقين، ذلك النوع من الصدق الأكثر شراً من الكذب، صدق الجريمة مع نفسها.

من فرج الله الحلو المواطن اللبناني الشجاع نستمد الشجاعة والإصرار، فالطريق طويل. ولكن يجب ألا نخطىء الهدف. لست أفهم معنى للقبض علينا في ليلة رأس السنة الجديدة، العام الماضي ١٩٥٩. فعبدالناصر هو القائد الذي لا ينازعه أحد، شخصاً كان أو إيديولوجية. بطل شامخ في تاريخنا الوطني. أخطأ بعضنا في تقييمه ولا زال. ولكن البعض الآخر سرعان ما صحح الخطأ، لأننا كنا نعرفه. كان يطبع عندنا منشورات الضباط الأحرار. ولكن يجب الاعتراف بأن إنجازاته فاقت كل توقعاتنا وأحلامنا. نعم، لقد تجاوزنا.

تظهر لي بغتة عينا ابنتي الصغيرة، كم اشتقت إليها. كم أوحشتني زوجتي وشوارع القاهرة. ولكن شوارع لندن تبدو في الأفق. هناك في صدر الشباب اكتشفت عالماً جديداً،

ولكن مصر كانت كياني فعدت إليها وقد أكسبتني التجربة زاداً لا ينضب. عدت إلى تعليم الإنجليزية في الصباح، وتعليم الاشتراكية في المساء.

كانت الاشتراكية عندي ولا تزال هي الوطنية، والوطنية عندي هي الاستقلال والديموقراطية. وكان عام ١٩٥٦ عندي هو عيد الأعياد، عيد الاستقلال وعيد الديموقراطية. تأميم القناة كان استقلالاً تحققت فيه ديموقراطية السلاح. وزعت الدولة ملايين القطع من السلاح على المواطنين ولم تخش انقلاباً، بل استردت عرق العمال والفلاحين الشهداء في حفر القناة. هذه هي الاشتراكية التي تطورت بالإصلاح الزراعي وتمصير البنوك. يستحيل على هذه السلطة الناصرية إلا أن تكون اشتراكية. في أقل القليل هناك مجموعة اشتراكية في قمة السلطة على رأسها جمال عبدالناصر.

وإذن، فمن يستفيد من حبس الاشتراكيين، ومن الذي خطط لهذه الحملة الغريبة على الوطنين والديموقراطيين. هذا هو السؤال الذي يؤرقني. أعرف استفزازات «المعارضين» منا، وأعرف سوءات فهم «المعارضين» لنا. أما نحن فنؤيد، القمة الاشتراكية في السلطة تعرف أننا نؤيد. فكيف حدث ما حدث؟ كيف يقتلون محمد عثمان في مباحث طنطا أثناء استجوابه؟ ليس من مجموعتنا، ولكن اغتياله على هذا النحو البشع خلال التحقيق أمر لا يصدق. أما مصرع الطبيب فريد حداد فلا يبارح مخيلتي منذ أبلغنا به في سجن الاسكندرية. هو الآخر ليس من مجموعتنا. لكن أهالي شبرا لن ينسوا هذا الملاك اللبناني الأصل الذي كان يعالج الفقراء مجاناً ويشتري لهم الدواء. هذا العربي الذي أصر أمام الجلاد يونس مرعي على القول «أنا مصري» كلما طلب منه القول أنه روسي. أنا مصري. ويأخذ ضربه على البطن. أنا مصري. ويأخذ ضربه على الظُهر. أنا مصري. ويأخذ ضربه على الرأس، فيسقط وقد أسلم الروح. ما هذا الذي يجري في بلادنا، وقد أيدنا الوحدة بين مصر وسورية مع الإشارة إلى نقطتين: مراعاة الخصائص النوعية للقطرين، والديموقراطية.

ونصحو في الفجر استعداداً للسفر. بعضنا لم ينم. أما أنا فلا أعرف هل نمت أم كنت صاحياً طول الوقت. كل ما أذكره أنني فركت عيني مبتسماً في وجه حبيب إلى القلب، صغيرتي التي تعودت أن أهمس لها كل صباح بصوت لا يسمعه رفاق الزنزانة: صباح الخير يا روح قلبي. هذا هو جيل عبدالناصر العظيم. جيل السويس وباندونغ والسد العالي. جيل الاستقلال والاشتراكية والوحدة. لا يعرف كم عانينا. أحمد الله على أنني منذ ثلاث سنوات أصدرت «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٥٦» ليعرف بناتنا وأبناؤنا أمجاد عرابي وسعد زغلول وجمال عبدالناصر، وأهوال الإنجليز والعرش والإقطاعيين. ليعرفوا

عظمة ثورة يوليو. لا بأس من أننا نعاني الآن كأفراد بعض الشيء. ولكن الملايين تربح كل يوم.

لا بد وأن نغير من برنامجنا وأسلوب عملنا. لا أريد أن أضغط على الرفاق أكثر مما فعلت. توصلت إلى إقناع الغالبية بأن هناك مجموعة اشتراكية في قمة السلطة، بعد صراع عنيف. وهي قناعة لا زالت طازجة تحتاج إلى التثبيت والترسيخ كل لحظة قبل تطويرها. والمجموعات الأخرى تساعدنا من حيث لا تقصد حين يتطرف بعضها قائلاً إن السلطة تمثل الاحتكاريين. أين هم؟ أين هذه الاحتكارات في بلد متخلف ومستقل حديثاً كمصر؟ وطبعاً، كان المنطق البسيط المترتب على هذا التحليل المتطرف هو المناداة بإسقاط عبدالناصر. تحت وطأة السجن والبعد البعيد عن الشارع وحركة الحياة، كان البعض يبررون بطولتهم بهذه الشعارات. ومن ناحية أخرى كان التسامي على الأوجاع الشخصية وتطرف الآخرين عاملاً مساعداً على تثبيت النقيض، على دعم تحليلنا الوطني لاشتراكية عبدالناصر. ولكنه في الوقت نفسه لم يكن دافعاً إلى تطوير هذا التحليل إلى ما أهمس به لنفسي وحدها بين الحين والآخر: إذا كنا نؤمن في قراراتنا بأن هناك مجموعة اشتراكية في قمة السلطة، وبأن عبدالناصر هو قائدنا، فلماذا التنظيم المستقل؟ لم أجرؤ على طرح الفكرة أبداً على أي رفيق، ولكنها كانت تلح علي إلحاحاً متصلاً منذ فاتح أنور السادات محمود العالم بهذا الأمر قبل حبسنا بأشهر معدودات. قال له: حلّوا الحزب يا محمود. أجابه رفيقنا: ليس هذا من صلاحياتي. وبدلاً من السيارة الفارهة التي أوصلت محمود إلى بيت السادات، عاد من هناك في الفجر سيراً على الأقدام. كان محمود على حق كمناضل منضبط. ما كان يمكن للفكرة ذاتها أن تناقش في تلك الأيام. ولكنها الآن قناعتي الخالصة دون أية ضغوط أو شروط. لن أبوح بها لأحد. ستظل كامنة حتى ينضج المناخ اللازم لمناقشتها.

كان الطريق إلى «أوردي أبو زعبل» مسلياً ومشبعاً بالتفاؤل. ولم لا ؟ كل الدلائل تشير إلى أن الإفراج قريب. إن إجراءات البيروقراطية التي تظهر الأمور كما لو كنا سنمضي سنوات ليست أكثر من مظهر الدولة. أما السياسة فشيء آخر. نعم، إن الذين قتلوا خميس والبقري في كفر الدوار هم أنفسهم الذين قتلوا زملاءنا من المجموعات الأخرى منذ أسابيع أو شهور. ولكن ما علاقة هؤلاء بالمجموعة الاشتراكية في قمة السلطة. إنه تراث الدولة القديمة التي لا يمكن تغييرها بين ليلة وضحاها. وهو أيضاً استفزاز تلك المجموعات للحكومة دون مراعاة للصعاب التي تخوضها. سقط حلف بغداد. ملأنا الفراغ بدلاً من ايزنهاور. ألا يكفي هذا للقول بأن عبدالناصر قائد وطني؟

ولكن ما ذنبنا نحن؟ كان السؤال يخطر بسرعة دون تمهل. كانت الأغاني الخارجة من

أعماق الرفاق تحذفه، تشطب عليه بقسوة. ساعات طويلة والخناجر لا تتوقف، ملؤها الأمل. يا لهذه الوجوه النضرة التي قاومت العهد الملكي وانتصرت. لم تنحن. كفاحها مسطور في الحواري والأزقة والمصانع والحقول والجامعات، بالدم. يكفي أن الثورة قامت. نعم، لقد انتصرت يا سلامة موسى. يكفينا قيام الثورة. وما يجري بيننا وبينها من سوء تفاهم، الزمن كفيل بمحوه وغسل الجراح. الثورة صاعدة. ونحن معها. لذلك من الحتمي أن تفرج عنا في أقرب وقت، فنحن جنودها.

يبزغ وجه ابنتي في الأفق كنوارة متلألئة بوجهها الجميل وشعرها المنساب، وأتذكر وقد أصبحت مفتشاً للغة الإنجليزية في التعليم التجاري أنني رأيت فتاة تشبهها تماماً ولكنها في السابعة عشرة من عمرها. سألتها عن اسمها. قالت لي نوارة. لم يكن اسم ابنتي. ولكني تمنيت أن أراها في هذه السن، ترى ماذا ستكون. ماذا ستختار في المستقبل. على أية حال سيكون مستقبلها هو الأفضل.

نحن في يونيو ١٩٦٠ والصيف القائظ يتجه بنا مع الرياح الحارة نحو الصحراء. قطعت تفاؤلي لحظة صورة وجه لم أر صاحبه أبداً. وجهان لا واحد. فمنذ ستة أشهر عرفنا أن مناضلاً يدعى علي الديب (٢٨ سنة) من عمال شبرا الخيمة مات في السجن من الدوسنطاريا بلا علاج، وأن مناضلاً آخر هو المهندس رشدي خليل (٣٠ سنة) مات من الحمى. واقتحمت ذاكرتي فجأة قصيدة شعبية لشاعر مناضل هو محسن الخياط تناقلتها الشفاه من سجن إلى سجن، تقول:

مستقتلين
ولا عمرنا نرمي السلاح من يدّنا
نضحك لأيام الجراح اللي ارتوت من دمنا
واحنا كده
من صنع أوجاع الجياع المحرومين من شعبنا
واحنا كده
من صنع أهوال النضال عد السنين من عمرنا
نبدر حياتنا ع الطريق
ترويها أيام الضنا
تطرح هنا، لا جلادين
ولا سفاحين
حيغيروا طعم الكفاح من بقّنا

طعمه الجميل زيك يا نيل
والشمس رامية شعرها ورا ضهرها
زي الغدير اللي انسكب منه الذهب
وأنت تسيل. . وأنت يا نيل
تاخد وتدي أرضنا

اقتحمت هذه الأبيات مخيلتي دون أن أرددها، هكذا فجأة حين فوجئت والرفاق قبل أن نصل إلى بوابة السجن بحفلة استقبال من نوع مثير، فقد انتظرتنا ثلة من العسكر طلبوا منا أول الأمر أن نخلع ثيابنا كلها وأن نجلس القرفصاء وأيدينا على رؤوسنا المنحنية بين أرجلنا. ثم راحوا ينادون علينا واحداً واحداً ليجري عارياً إلى المكان الذي وضعت فيه الثياب وسياط الخيالة تلهب جسده حتى يصل منهوكاً مدمى. وعلى البوابة يبدأ التحقيق بالشوم (العصى الغليظة). كان اللواء همت هو الذي استقبلنا وأدار الحفل السريع السابق على «التحقيق» حيث كان ينتظرنا الضابط حسن منير:

لم يكن الضرب عادياً بأي مقياس. كان الأمر يبدو كما لو كان الجنرالان في «وليمة» دموية. وقد أفقت لحظة على الصوت الأنثوي للواء همت، ولكن مجزرة التحقيق أذهلتني عن وعيي، فقد كان استقبالاً مغايراً لكل أحلامنا التي تاقت إلى الإفراج. وقلت في سري أنها مؤامرة ضد الثورة، ضد عبدالناصر شخصياً. ولكن صلابة الرفاق في تلقي الضرب استولت على كل تفكيري. كان التحقيق بسيطاً، هو أن يستنكر الواحد منا هويته، أن ينكر نفسه، أن يقول مثلاً أنه امرأة أو أنه روسي أو أشياء أخرى من هذا القبيل. وكان الجميع يرفضون، إما بالصمت وإما بالجواب الصحيح، فيزيد الضرب والإدماء حتى يغيب المرء عن الوعي فيشدونه إلى الداخل حيث التومرجي أمين حاضر لحقنه وإفاقته وإرشاده إلى الزنـزانة أو العنبر.

وجاء دوري. قبلها بلحظات لا أدري لماذا تخيلت صعود جاجارين إلى الفضاء الخارجي. كان الحدث فذاً من شهور قليلة. سرعان ما طرحت الخيال جانباً وأنا أسمع الضابط يذكرني باسمي. لم يسألني كالآخرين، بل قال باقتضاب: بقى أنت بقى شهدي عطية. . عَلَم حضرتك. . قول أنا مرة. لم أرد. توالى الشوم على جسدي. تكرر السؤال. لم أرد. قلبوني على ظهري. انهمرت العصي الغليظة على صدري وبطني. لم أعد أسمع السؤال. رحت أسمع موسيقى خافتة قادمة من بعيد. ارتفع صوت اللحن أكثر وأكثر لدرجة لم أعد معها أسمعه. رحت أبصر فيلمًا بطيئاً. أسرعت الصور حتى لم أعد أرى. خدر ناعم يتسلل من البحر. أسبح بفرح. . أسبح وأرقص. أسبح وأغني ولا أصل إلى الشاطىء

أبداً. أغوص في العمق. أرى الحيتان تزغرد بلقياي. أسماك القرش تصلي وأنا أغوص في العمق. لا تصل إلـيّ كلاب البحر، فقد كنت أغوص وأغوص والضفادع على الجانبين ترتل بصوت شجي:

بلدي يا بلدي وأنا نفسي أروّح بلدي
يا عزيز عيني السلطة خدت ولدي

وفجأة رأيت أمامي محمد عثمان وعلي الديب ورشدي خليل وفريد حداد يردون على نشيد الضفادع بكلمات لمحسن الخياط يخاطب بها عروس البحر قائلاً:

مدّي إيدك ليه.. في المنفى البعيد
مدّي إيدك ليه.. من بين الحديد
وافرديها
واحضني بنورك جروحي
قبل ما تميل بروحي
للغروب.

ثمة وجه بعيد كان هناك ينصت، وقد جحظت الدهشة من عينيه وهو يراني. كان وجه فرج الله الحلو.

□ □ □

البلاغ الثالث (٥)

الجمهورية العربية المتحدة
مكتب الرئيس
٢٨ ـ ٩ ـ ١٩٦٢

«دولة تحمي ولا تهدد، تصون ولا تبدد» لم يبق منها سوى الاسم.

مضى عام كامل على أسوأ أيام عمري. ربما كان أسوأ أيام مصر وسوريا. ربما كان أسوأ أيام العرب. لم أحزن على ما كان، بل على ما سيكون.

لا أدري، لماذا يئن قلبي اليوم تحت أثقال هائلة من اللون الأسود. رغم أن مجرى الأحداث في بلادي يحتفل بألوان أخرى. لا أقول انها وردية، ولكنها ألوان الفرح على أية حال. التأميمات الواسعة خلعت جذور اليأس من صدور الطبقات الشعبية. القطاع العام أصبح نواة حقيقية لأخطر تحول اجتماعي في الشرق الأوسط، بل في تاريخ هذه المنطقة البائسة من العالم. العمال يشاركون في الأرباح وإدارة المؤسسات. المصانع في كل مكان: من كيما في أسوان إلى مجمع الحديد والصلب في حلوان. حلم الأجيال في السد العالي يتحول تدريجياً إلى واقع أجمل من الأسطورة. الطلاب يتعلمون مجاناً في كل مراحل التعليم. الإصلاح الزراعي يتوسع ويتعمق في الأرض والفلاح والمحصول. مائة فدان فقط للأسرة كلها هو الحد الأقصى للملكية بدلاً من مائتي فدان للفرد الواحد، دون أية احتمالات للتلاعب والتهرب. الجمعيات التعاونية. الإيجار سبعة أمثال الضريبة. والجيش من أبناء العمال والفلاحين والموظفين الصغار، يزداد عدداً وعتاداً واستيعاباً للأسلحة المتطورة. الاتحاد الاشتراكي صيغة جديدة أكثر جذرية من الاتحاد القومي. خمسون في المائة من مقاعد المؤسسات الشعبية والتشريعية للعمال والفلاحين. والميثاق الوطني يستعيد المثقفين إلى حظيرة الثورة بعد طول تردد. وزارة للثقافة. مسرح قومي للعاصمة ومسارح للأقاليم. مؤسسة

سينما في العاصمة ودور الثقافة الجماهيرية في الأقاليم. مؤسسة للنشر ومراكز ثقافية مصغرة للقراءة والمحاضرات في بقية مدن الجمهورية.

ألوان لا حصر لها من الفرح، كألوان الطيف في قوس قزح. ولكني أطلب اليوم منذ الصباح الباكر أن يتركوني وحدي، أن يعزلوا مكتبي عن العالم، فلا تليفون أريد ولا زيارات ولا بروتوكول. لست هنا. ربما أستطيع أن أنام، فالهواجس الملحاحة لم تدعني أنام منذ أمس. لم يكن هناك ما أزعجني. ولكن ما أن انتصف الليل حتى وجدتني على غير عادتي ألقي بالصحف والتقارير جانباً، وأغلق صوت الراديو، وأدخل في عراك قاس مع النفس لا أدري مصدره. كل ما أدريه انني فتحت إحدى الرسائل وإذا بها من فتاة سورية تقطن مدينة حلب. تقول انها استطاعت ذات يوم منذ عامين أن تصافحني يداً بيد. وانها تظن أن يدي ما زالت ممدودة إليها. وهي تحتاج إليّ في هذه اللحظة لأحل لها مشكلة شخصية، وقد ارفقت نسخة باهتة من الصورة التي تحتفظ بها، لمشهد استثنائي في دمشق.

دمشق؟ وعجبت من تاريخ اليوم الذي يشير بالتداعي إلى نظيره منذ عام مضى. أسوأ الأيام كان، ولكن ماذا سيكون؟ ليكن كل ما قيل كان صحيحاً.

لتكن «نقابة الملوك» أو الشركة الخماسية هي التي أعدت الانقلاب تضرراً من إجراءات التحول الاجتماعي وتطبيق الإصلاح الزراعي. ولتكن وكالة المخابرات المركزية قد خططت للانقلاب لأنها استشعرت من دولة الوحدة خطراً على مصالح الغرب. وليكن الملك سعود أنفق إثني عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية ليضرب التجربة الجديدة، كما اعترف لي بنفسه حين جاء إلى مصر لاجئاً. يومها سألته: هل صحيح انك أنفقت تسعة ملايين جنيه في العملية؟ فأجابني ومرارة الخجل تنطق في عينيه: بل إثنا عشر مليوناً للأسف يا سيادة الرئيس. ليكن.

ليكن كل ذلك صحيحاً، وأكثر.. فقد وجدت نفسي بين حجري الرحى، حين أحسست أن الاتحاد السوفياتي أيضاً ضد الوحدة، وبالتالي دول المعسكر الاشتراكي. وهي البلدان التي تبني معنا السد العالي والمصانع والقوات المسلحة. وهي أيضاً البلدان ذات التأثير الواضح على الشيوعيين العرب الذين يلعبون دوراً سياسياً واضحاً في المشرق، ولكنهم الآن ضد الوحدة. يلتفون حول عبدالكريم قاسم في العراق. يرفعون شعار الاتحاد أو الفيدرالية. لافتات تعدد الأحزاب.. إلى آخره إلى آخره.. ولكن النتيجة واحدة. أهداف الاستعمار وإسرائيل تختلف، ولكن النتيجة واحدة، كنا بين فكي كماشة جهنمية: الشرق والغرب ضدنا. وأدركت على الفور انه من «الممنوعات الدولية» أن تقوم وحدة بين العرب. أدركت أيضاً أن اللقاء غير المبرر للوهلة الأولى بين الشرق الاشتراكي والغرب الاستعماري

حول ولادة إسرائيل وبقائها، مصدره الحيلولة الاستراتيجية دون قيام دولة عربية كبرى بقيادة مصر.

لم أتألم لأن زعيًا شيوعياً هرب ليلة التوقيع على الوحدة، بقدر ما آلمني أن زعيًا قومياً وقّع عريضة الانفصال. كان هو نفسه الذي جاءني مع الضباط الوحدويين ملحاً في إنجاز الوحدة على الفور.

ليكن ذلك كله صحيحاً، حتى انني كنت وحدي الذي وافق على الوحدة، ومعي الشعب العربي في مصر. كان زملائي جميعاً في مجلس الرئاسة متأرجحين بين طلب التأجيل للدراسة، أو التريث عاماً على الأقل، أو الرفض الكامل. وقد طلبت منهم التفويض على مسؤوليتي المطلقة في اتخاذ القرار. كانت هذه المرة الثانية التي أنفرد فيها بقرار خطير يمس المصير الوطني. المرة الأولى كانت تأميم قناة السويس. والمرة الثالثة كانت التأميمات الواسعة للشركات والمؤسسات والمصانع ذات الرأسمال الخاص، والمرحلة الثانية كذلك من الإصلاح الزراعي. لم يوافق أبداً كمال الدين حسين والبغدادي وحسن إبراهيم على هذه الخطوة. سبق لهم جميعاً بعد انتصار السويس أن وافقوا على تمصير الشركات الأجنبية. واجهتهم بأحد مبادىء الثورة الستة: القضاء على احتكار وسيطرة رأس المال على الحكم. واجهتهم أيضاً بأننا أنشأنا المؤسسة الاقتصادية ومجلس الانتاج ودعونا القطاع الخاص للمشاركة في أعباء التنمية. وضعوا أموالهم تحت البلاطة، وأحجموا عن أية أعباء. لا مفر من التأميم إذن. لم يقبل زملائي. السادات صمت. زكريا اعترض بأدب ولكنه أضاف انه سينفذ قرار الرئيس. الآخرون قدموا استقالاتهم.

تكرر المشهد في «المؤتمر الوطني للقوى الشعبية». كنت قد طلبت تشكيله من ممثلين لكافة قطاعات الشعب. من الناحية الشكلية جاءت الأجهزة بممثلين تتوفر فيهم الصفات المطلوبة بيروقراطياً. وجدتني أمام الثورة المضادة وجهاً لوجه. هل يمكن أن يكون الشعب نفسه ثورة مضادة، أم ان هؤلاء لا يمثلونه؟ ام ان الأجهزة.. آه، ماذا أقول؟ وجدتني داخل المؤتمر زعيًا للأقلية، زعيًا للمعارضة. وبمقتضى الديمقراطية كان يجب عليّ أن أستقيل، أن أتخلى لكمال حسين أو البغدادي.

وجدتني في موقف مشابه تماماً لأزمة مارس ١٩٥٤. إما أن تستمر الثورة أو أتنحى. وكان ذلك «معروضاً» عليّ بصورة من الصور، ولكن من جانب أقرب الأصدقاء. كان عبدالحكيم غداة الانفصال قد أعد العدة للانقلاب. كان قد استطاع بعد تحفظاتي على ما جرى في معركة السويس عسكرياً، أن يقيم حاجزاً ضخمًا بيني وبين القوات المسلحة. لعلني مسؤول بعاطفتي أنني لم أتخذ حينذاك القرار الكبير بإقصائه عن الجيش. كان ذلك ممكناً

حين ارتبط الانتصار باسمي. ولكني تركته. أما الآن، فقد تغيرت الأمور كثيراً. أصبح مركز قوة، هي القوة العسكرية. التعيينات الأساسية في الجيش تتم دون علمي. التنقلات. الترقيات. الامتيازات. وحين حاولت غداة الانفصال أن أقلِّص هذه الصلاحيات وهذا النفوذ، كان جميع أعضاء مجلس الرئاسة معي. ولكنه لم يحضر. غاب عبدالحكيم عن الاجتماع. اتُّخِذَتْ القرارات اللازمة. ذهبت بنفسي لأبلغه بها. ثم عدت إلى زملائي لأطلب إليهم إلغاء القرار. فوجئوا. ذهلوا. تهامس بعضهم ان «العاطفة» تغلبت على العقل، وأن «الصداقة» هي السبب. لم يكن ذلك صحيحاً. كان العكس هو الصحيح. كان عبدالحكيم في بيته وقد التف حوله جميع رؤساء الوحدات. كانت ساعة الصفر للانقلاب. يقبضون عليّ وينتهي الأمر، او ان اعترف لعبد الحكيم بشرعية مساوية كأن يكون نائباً أول وألّا أتدخل في شؤون القوات المسلحة. لم أقل لزملائي ان الانقلاب قد تم. لم أقل لهم انني أناشدهم إلغاء القرارات الخاصة بعبدالحكيم اتقاء لمذبحة دموية شاملة. لم يقف هؤلاء الزملاء معي في التحول الاجتماعي، أما عبدالحكيم ففعل، وكأننا أقررنا اتفاقاً غير مكتوب، وهو ان الجيش له والشارع لي. لذلك حين وجدتني زعيمًا للأقلية في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، لم أستقل، كنت موقناً بـأنني أمثل الأغلبيـة خارج المؤتمـر من الإسكندرية إلى أسوان. وكنت موقناً بأن الجيش لن يتحرك.

تلك كانت المساومة التاريخية التي جاءت ثمرة الانفصال ومقدمة لما سيكون.

وما سيكون هو الذي يؤرقني اليوم في الذكرى الأولى للانفصال، رغم ألوان الفرح التي تغمر البلاد. هذا الفرح الذي يقرأه البعض في الميثاق الوطني ويقرأه البعض الآخر في «تقرير لجنة المائة» الذين اشترطوا الموافقة على الميثاق بوضع تحفظاتهم المكتوبة موضع الاعتبار. وهي تحفظات مثقفي الثورة المضادة من أساتذة جامعات وكتاب ومفكرين وتكنوقراط. ومن المفارقات أن تسعاً وتسعين واحداً منهم وافقوا في النهاية على الميثاق. كانوا شجعاناً طول الوقت في الدفاع عن مصالح الطبقات والقيم القديمة. وكانوا جبناء، فناوروا بالموافقة على أن يلحق تقريرهم بالميثاق. وكان الشجاع الوحيد من البداية إلى النهاية هو الكاتب خالد محمد خالد. كان منطلقه مختلفاً عن الجميع، وهو إيمانه العميق بالليبرالية دون أن ترتبط مصالحه بأي من الطبقات القديمة. انه ظاهرة. في العهد الملكي كان ثائراً من أجل العدل الاجتماعي، وكان ثائراً على الجمود الديني وضد الاخوان المسلمين، فطرده الأزهر من «هيئة كبار العلماء». ورداً على كتابه العظيم «من هنا نبدأ» كتب محمد الغزالي «من هنا نعلم» فاتهمه بأقسى الاتهامات. ولكنه لم يعبأ، فكتب في المراحل الأولى من الثورة يخاطبنا «حتى لا تحرثوا في البحر» و«هذا.. أو الطوفان» ثم «الديموقراطية أبداً».

وقف خالد محمد خالد في لجنة المائة ليقول لي بصوت لا يرتجف «إنني أستمد نصف شجاعتي منك يا سيدي الرئيس، ولكن ثق من أنه إذا لم يعارضك سوى عشرة سأكون واحداً منهم وإذا لم يكن هناك سوى خمسة سأكون واحداً منهم وإذا لم يكن هناك سوى إثنين سأكون واحداً منهما، وإذا كان هناك واحد فقط يعارضك فسأكون أنا هذا الواحد». وقد فوجىء خالد محمد خالد بجميع المعارضين يرفعون أيديهم في النهاية موافقين فلم يرفع يده. ولكنه نظر إلى المنصة والقاعة قائلاً: «لقد عارضتموه في العدل الذي أوافقه عليه، وها أنتم توافقونه على تأميم الديموقراطية حيث أعارضه».

كنت أسمع عن خالد محمد خالد الكثير. ولكن أهم ما عرفته انه كان يحرر عموداً يومياً في «الأهرام» تحت عنوان «لله والحرية». كان ذلك في الخمسينات. ورغم أنه لم يكن قط شيوعياً، فإنه حين مات ستالين كتب مقالاً بعنوان «طبت حياً وميتاً يا رفيق». وفي عام ١٩٥٧ كتبت الأهرام تصف خروشوف بأنه القيصر الجديد، فكتب هو رداً في تعليقه اليومي يختلف مع هذا الوصف. ولم ينشر التعليق، وطلبت منه الصحيفة مقالاً بديلاً فاعتذر قائلاً: بيني وبينكم هذا المقال، اما أن ينشر أولن أكتب في الأهرام على الاطلاق. ولم يكتب، رغم انه كان يتقاضى مائة وخمسين جنيهاً شهرياً على هذا التعليق.

أثناء انعقاد المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، كان يطبع كتاباً عنوانه «في البدء كانت الكلمة» يطالب في خاتمته بالإفراج عن اليمين واليسار. كان هناك مئات من الاخوان المسلمين والشيوعيين في المعتقلات والسجون. وكان يرى أن الحرية هي أثمن رأس مال للكائن البشري. وقامت الرقابة بمصادرة الكتاب. ولكني بعد أن سمعته في المؤتمر شجاعاً حتى اللحظة الأخيرة، طلبت أن يزورني في البيت. أمضينا أربع ساعات في حوار متصل. لم يكن يربط بين الحرية ومضمونها الاجتماعي. كان ضد الأحزاب القديمة ولكنه مع تعدد الأحزاب. كان ضد الصحافة القديمة، ولكنه مع الملكية الخاصة للصحف. كان ضد الطبقات القديمة، ولكنه ضد هيمنة الدولة. كان ضد التطرف الديني ولكنه مع الإصلاح الديني.

ولم نتفق. ولكني أمرت بالإفراج عن كتابه فوراً. لكم تذكرت هذا الرجل مراراً. نحن مختلفان. ولكني تذكرته كثيراً. يختلف من زوايا عديدة عن توفيق الحكيم الذي أحببته دون أن أراه منذ قرأت له «عودة الروح» وحاولت تقليده. وحين هاجمه أحد النقاد عام ١٩٥٧ في جريدة «الجمهورية» أمرت بوقف الهجوم وإهدائه قلادة الجمهورية. ولكني حين أرسلت إليه بعد الانفصال أن يأتيني لنتناقش، اعتذر بحجة واهية. لم أفهمه. كتب عام ١٩٥٩ ــ كخالد محمد خالد تماماً ــ عن الحرية في مسرحية «السلطان الحائر» بين السيف

والقانون، فهمت الإشارة وقلت فلتمثل. هل نخاف النقد؟ في العام نفسه كتب نجيب محفوظ روايته «أولاد حارتنا» عن العلاقة بين الدين والعلم والاشتراكية، وقد أثارت في «الأهرام» حفيظة الأزهر فقلت: ليكتمل نشرها في الصحيفة ولتمنع من النشر في كتاب.

كنت أفهم تماماً أن غياب المثقفين الشيوعيين في السجون يؤرق الضمير الثقافي لليبراليين. وكنت ألمس مضاعفات غيابهم في علاقاتنا بالمعسكر الاشتراكي وبعض قوى الثورة والتحرر في العالم. ولكني في هذا الصدد أحب أن أقول أمرين: أولهما، انه ليس صحيحاً أن موقف الشيوعيين المصريين من الوحدة هو السبب في اعتقالهم، فقد استمروا عاماً كاملاً بعد الوحدة مطلقي السراح. ثانياً ليس صحيحاً أيضاً أن موقفهم حينذاك كان سلبياً من الثورة، فقد كانوا يسموننا في ذلك الوقت بالثوار الوطنيين.

ولكن الذي حدث انهم في الثامن من يناير ١٩٥٨ وحدوا صفوفهم في حزب واحد بعد طول تشرذم. وحين كنت أسمع كلمة «تنظيم» كنت أضع يدي على مسدسي. فقد آمنت بأن التنظيم الجماهيري الواسع لمختلف طبقات الشعب الوطنية يحول دون الصراع الدموي. وقد طلبت من أنور السادات أن يناقش أحد قادتهم في صورة حل الحزب الشيوعي الجديد، فاعتذر له الرجل بأنه لا يملك صلاحية الحوار في مثل هذه القضية. والذي حدث أيضاً هو تطور الأحداث في العراق وقد بدأت حين كنت في عرض البحر قادماً من يوغوسلافيا فعدت إلى موسكو لأطلب من السوفيات موقفاً إلى جانب الثورة في بغداد، ثم وقفت في دمشق أحذر القوى الاستعمارية والرجعية من المساس بثورة العراقيين.. هذه الأحداث انتهت بتحالف مضاد لدولة الوحدة يقوده قاسم والشيوعيون، الأمر الذي ترك أثره على تفكير وعواطف الشيوعيين المصريين.

ولا شك أن تجاوزات مؤسفة وقعت داخل السجون والمعتقلات، وكنت أعلم ببعضها صدفة. وحين علمت بمصرع شهدي عطية الشافعي طلبت من النائب العام التحقيق. ولكني خلال العام الأخير وبرفقة التأميمات والتحليلات الشيوعية الجديدة لها، حاولت المستحيل مع زملائي للإفراج عن المسجونين، غير أنني لم أستطع ذلك إلا لعدد محدود.

على أية حال، كان موقفهم من «الانفصال» مفاجئاً. كانوا بالطبع يذكروننا بالديموقراطية واحترام الخصائص القطرية، ولكنهم وقفوا ضد الانفصال بكل حزم. وطالب بعضهم بإنهائه عسكرياً. وهو الأمر الذي رفضته من اللحظة الأولى. وأذكر أن شاباً من حمص جاءني يقول: لو انك أخذت أول طائرة إلى دمشق، لانتهى الانفصال في لحظات.

ولم يكن ذلك صحيحاً على الاطلاق. لم يكن التدخل العسكري سيفيد، ولا ذهابي شخصياً. فقد كان الانفصال ثمرة عادلة لمجموعة هائلة من الأخطاء المتراكمة، بدءاً من

صيغة الاتحاد القومي الذي ضم الاقطاعي والفلاح، الرأسمالي والعامل، وليس انتهاء بصيغة عمل الأجهزة. وكانت خطيئة الخطايا هي تولي عبدالحكيم عامر أمر هذا البلد، وما استدعاه ذلك من إبراز للحساسيات الإقليمية واضمحلال القواسم المشتركة.

هذه العناصر شكلت الثغرة الواسعة التي نفذت منها القوى الأخرى: الأميركية والشعوبية والرجعية المحلية. ولكن الحقيقة لم تكن فقط فصم عرى أول وحدة عربية في تاريخنا الحديث، بل كان الهدف هو إسقاط النظام في القاهرة. ولا أدري ما إذا كانت خطة عامر الانقلابية غداة الانفصال جزءاً من المؤامرة الكبرى لاسقاط القاهرة، ام ان الأمر كله كان جنوناً شخصياً. كانت هناك ظواهر حتى في ظل الوحدة ومن داخلها، لإسقاطي. وحين صدر البلاغ رقم واحد للانفصاليين كان عليّ حماية القاهرة بدلاً من أية محاولة مستحيلة.. في دمشق.

دمشق. يا أعظم المدن التي لم تنفصل عن دمي.

«دولة تشد أزر الصديق وترد كيد العدو» لم يبق منها سوى الاسم؟

كيف تدق ساعة العمل الثوري؟

وفجأة يقول الخبر الأخير ان «الثورة» قامت في صنعاء.. آخر الأخبار، وآخر الأحلام. البرقية السرية يطالبني فيها الثوار بالتدخل إلى جانبهم، أنا الذي لم أتدخل في دمشق الدولة الواحدة المجاورة، أنا المثخن بالجراح من العراق في أقصى المشرق إلى الجزائر في أقصى المغرب. منذ ثلاثة أشهر فقط خلعوا بن بللا. أعطت مصر كل شيء وتلقت الطعنات العربية من الخلف والأمام والجانبين، فهل نتدخل في اليمن؟

وإذا بالآلام الوحشية التي داهمت ساقيّ منذ عام تتمدد في خلايا الأعصاب كمضاعفات لمرض السكر، وتثقل قدميّ كأنهما أصيبتا بالشلل. وأنادي على من في البيت بصوت مبحوح، فتدخل تحية مهرولة. أتهالك على نفسي قائلاً بقلب مكسور: أنا عطشان.

وكان الماء أمامي طول الوقت.

□ □ □

بكائية على ناي كمشيش

قلت لشاهندة: إنه صباح جميل، والفلاحون مصممون على تأسيس الجمعية التعاونية الجديدة، بلا مشكلات من التجار ولا عقبات من الإدارة.

قالت بصوت أنهكه السهر: أنت تحلم، فالمشكلات تأتي من البحر والعقبات من الهواء. لا أحد يدري ماذا يدبر الفقي؟

فوجئت، وقلت: أي فقي؟ ما خلصنا والحمد لله. أما زال الكابوس جاثمًا؟

أرخت رأسها قليلاً لتهمس: كلهم فقي، حتى من هم ليسوا من عائلة الفقي، الفقهاء كثيرون والناصريون قليلون، صدقني.

قلت بجزع حقيقي: ماذا جرى لك، أنت تهذين، لماذا كل هذا الحزن؟

لم تكن شاهندة زوجتي فقط. كانت رفيقة الأيام المرّة، تسهر الليالي حتى الفجر. لم يعد ما بيننا وبين عائلة الفقي مجرد انحياز من جانبنا للفلاحين. ولم تعد علاقتنا بالفلاحين مجرد انحياز فكري أو عاطفي. كان المصير بالفعل لا بالمجاز قد أصبح واحداً. أضحت الأرض المصادرة من عائلة الفقي أرضنا. أو هي كانت أرضنا المنهوبة وعادت بعد طول اغتصاب.

قال لي قريبهم من بعيد: مالك ومال الفلاحين، خذ نصيبك وامض. الحاج الكبير يهديك السلام وعشرة آلاف. قلت له: السلام عليكم ورحمة الله وعشرة آلاف بركة. دعني في حالي، الله يستر عليك.

قالت أخته لشاهندة: زوجك يعشق الفقر؟ أجابتها حبيبتي: بل يعشقني. قالت الأخرى: وإذن؟ أجابت شاهندة: كل سنة وأنت طيبة بسّ أخوك غلطان. قولي له أشكر ربك أن صلاح حسين أعطاك عشرة آلاف بركة، ففي لحظة لا يعلمها إلا الله تتحول بركاته إلى لعنة. قالت الفتاة وهي تختفي عن الأنظار: الله يلعنكم، ترفسون النعمة.

سألتني شاهندة: أين أنت؟ لقد سرحت أم أن النعاس يغالبك؟ فيم تفكر واللي كان كان؟

قلت: لا أفكر في الفقي، أفكر في قريبه الضابط الكبير وشريكه رئيس مجلس الإدارة، والمقابلة المثيرة التي حكيت لك تفاصيلها.

قالت: يا رجل، إنس هذا الموضوع. واسألني ماذا حلمت هذه الليلة؟ هل تصدق، لقد حلمت بشخص لم أره. رأيت صورته في الجرايد من زمان وأكاد لا أذكر تفاصيلها. إنه عدلي لملوم.

صحت بدهشة: لملوم؟ لقد مات.

قاطعتني: هكذا كنت أظن، ولكنه في الحلم كان حياً، وسعيداً، يركب حصانه محيياً الصفوف على الجانبين كأنه عائد من الحج. وكأنه يعرفني ترجل حين رآني، وصل إلى النقطة التي كنت فيها بجانب الترعة. كانت معه دبلة ذهبية أشبه بخاتم الزواج. مدَّ لي يده في صمت. تحولت الترعة إلى قناة يمكن عبورها. نظرت خلفي وقفزت إلى الجهة الأخرى ورحت أجري وأجري وأجري حتى أعياني اللهاث والمطاردة، فقد كان هو الآخر يسرع الخطى بالجواد الجامح ورائي حتى سقطت على الأرض واستيقظت.

كان قلبي يخفق مع كلمات شاهندة وكأن الحلم حقيقة، وحين توقفت عن الكلام كان وجهها ينضح بالعرق. قلت لها: حمد لله على السلامة. أحاطت عنقي بذراعيها وقبلتني هامسة: ماذا بك؟ أنت غير طبيعي. ماذا يقلقك في لقاء الضابط والمدير. الأول من الضباط الأحرار، والآخر من القطاع العام، كلاهما منا وعلينا.

قلت: منّا؟ لا أدري. علينا؟ ربما. ربنا يستر. ربنا يستر. ألف مصنع والسد العالي والآتي أعظم.

قالت: عدلي لملوم في الحلم، لم يكن يدري أن مزيداً من الأرض أعطيت للفلاحين، وأن مزيداً من الإصلاح..

لم أدعها تكمل. وضعت يدي على فمها. قلت: لعله يدري. والأهم أنه تقدم للزواج منك.

ضحكت بصوت عال.

ضحكت أنا كذلك، بصوت مبحوح، أجوف. وقلت: حضرة الضابط كان لابس ملكي. تذكرت بصعوبة أنه من الضباط الأحرار. قال لي: ولا يهمك، الشركة شركتنا وزيتنا في دقيقنا والسوق عال والاشيا معدن.

وأشار إلى رئيس مجلس الإدارة قائلاً: البيه عارف كل حاجة.

تكلم البيه: يا أستاذ صلاح، إحنا محتاجين لك، لكفاءتك وجهدك وذكائك وعلاقتك

الطيبة بالفلاحين. بالنسبة لعائلة الفقي ما تفكرش كثير، ما حدش يقدر يعاكسنا، لأننا أهل. آه. إحنا أهل، مراتي من عيلة الفقي، قرايب يعني.

قبل أن ينفتح فمي عنوة، استدار نحو الضابط الكبير، قائلاً: ومن محاسن الصدف أن ابنه هيتجوز بنتي. ما بقاش غيرك.

كدت أصرخ، ولكن صوتي خرج هادئاً عكس ما ظننت: غيري؟

أجاب بهدوء أكثر: فعلاً، لازم نتلم كلنا ايد واحدة، ما حدش في الساعة دي يقدر علينا. والعين ما تعلاش على الحاجب. إحنا عايزينك تشتغل معانا مستشار قانوني يعني. الشركة زي ما انت شايف تعاونية، لمساعدة الفلاحين بالتقاوي والكيماوي والذي منه.

قاطعته: ما عندنا الجمعية التعاونية، إيه لازمة الشركة دي؟

قال: يا راجل، شركتنا مش جمعية تعاونية ولا هي قطاع خاص. إحنا حنتعاون مع القطاع العام ونحصل على أذونات الاستيراد.

قلت: استيراد؟

قال: نعم، لأن الكيماوي في بلاد برّة أحسن، والتقاوي كمان، الدنيا اتغيرت.

قلت: أنا آسف، ما عنديش فلوس أشارك بيها في المشروع ده.

قال: الاتحاد الاشتراكي هيقوم بالواجب، ما لكش دعوة أنت.

قلت: الاتحاد الاشتراكي؟ إيه علاقته بالشركات والاستيراد والكيماوي؟

قال: المشروع كبير قوي، بس أنت وافق.

كنت دائخاً فلم أوافق على شيء. لم أفهم أي شيء. دارت رأسي كالساقية المهجورة. رأيتني ثوراً معصوب العينين. كانت المقابلة كابوساً عبثياً أكبر من طاقتي على التحمل.

تنهدت شاهندة وهي تحملق في وجهي كأنها على وشك أن تداعبني، لكنها تمتمت: أنت مريض يا صلاح، كل مرة تحكي لي الحكاية فتضيف إليها وتحذف منها كأنها تتجدد كل يوم حتى أنني بت لا أعرف الأصل من مجموعة الصور التي يخلقها ذهنك المكدود. لو أنه كان حلمًا كما هو شأني مع عدلي للموم لهان الأمر. الحلم يتمدد وينكمش على هواه، يضيف ويحذف من نفسه بنفسه. أما المقابلة الحقيقية التي وقعت لك فماذا أقول عنها؟ لقد اتصل بك الصديق الكبير وقال لك قابلهما، فكلاهما موثوق. وبالتالي فالمشروع مشروعه أو هو على الأقل يعلم به، فماذا جرى؟ الشكوك تطاردك بلا معنى، كمطاردة للموم لزوجتك على الجسر.

فجأة رحت أغمغم بلحن موجوع: يا شاهندة وخبريني. وظللت أدندن بموال لم يكتبه

أحد، حتى خرجت من البيت وكان البرد قاسياً، يقال لم يحدث مثله منذ الحرب العالمية الأولى، ويقال إننا في أوائل هذا العام قد حصلنا على الدفء المستحيل بعد زيادة الطاقة الكهربية في الريف عما كانت عليه منذ سنة واحدة. انتهت الخطة الخمسية الأولى، فماذا يخبىء لنا العام الجديد؟

وسمعت صوت جهنم يخترقني، يفترشني، يغمر جسدي بالحرارة القصوى. يبدو أنني أنام. نشوة تسري كالخدر. كأنني في حمام سباحة، أغطس وأسبح وأطفو. كأنني أعانق شاهندة، أطارد الملوم، أدق رأس رئيس مجلس الإدارة، والضابط يختفي عن الأنظار. يختفي بعيداً.. بعيداً.. آه.. بعيداً.

* * *

يا شاهندة وكفّنيني
بالدم.. دم الحسين
...
جتلوني يا بنت عمي
الفُقَهـا والـمُدَرا والعَسْكَر
...
يا شاهندة وسلّميلي
عالمنجل.. بدمع العين
...
طعنوني يا اخت الرجال
من ضهري بألف سكين
...
يا شاهندة وخبريني
عا الجاتل والجتيل
مصر قامت مصر نامت
كله مكتوب عا الجبين
كمشيش فاقت وفاتت
كله محسوب بالسنين
...
يا شاهندة

□ □ □

البلاغ الثالث (٦)

الجمهورية العربية المتحدة
مكتب الرئيس
١١ ـ ٦ ـ ١٩٦٧

أضع مسدسي على الكومودينو إلى جانب الفراش، وأحاول عبثاً أن أنام. منذ خمسة عشر عاماً لم أتذكر المسدس. انني وحيد. وحيد ونفسي حزينة حتى الموت. ما جرى لا تصدقه غير كوابيس الموتى. كل ماجرى. نقائض يوم القيامة. الهزيمة المروعة. الشعب المروع. الصديق المروع. كل، كل شيء. ماذا جرى؟ يا إلهي. المهم ماذا يجري. ولكن ما يجري هو امتداد لما جرى، أم رد فعل، أم ماذا يا أهوال الجحيم. وحيد أنا حتى الموت. نعم، معي تلك الملايين التي حطمت الكمبيوتر في أكبر عواصم العالم. تلك الملايين التي أقامت أكبر حاجز بشري عرفه التاريخ يحول بيننا والاستسلام. أين هي من وحدتي التي لا تقهر؟ انها نائمة الآن مقرورة العين سعيدة بما آلت إليه الأمور. تتوهم أحلامها أن الأمور انتهت فعلاً بعودتي عن الاستقالة. لا تفهم أنني أحاول بشق النفس تجميع نصف فرقة تدافع عني، تحميني، لا من اسرائيل ولا من أميركا، بل من أقرب المقربين وأصدق الأصدقاء. ساعة صفرهم هي الليلة. وكما فعلت في مارس ١٩٥٤ قلت لهم: ليأت شمس بدران رئيساً للجمهورية، وهو وزير حربية الهزيمة. كان قلبي الموجوع يئن في صمت. كانت تلك الوخزة اللعينة التي اخترقت نخاع الظهر مساء الخامس من يونيو، ولم أخطر بها الطبيب، قد بدأت تثقب صدري بين الحين والآخر بما يشبه الابر.

لم يوافق عبد الحكيم على الاستقالة إلا إذا كانت استقالتنا معاً. وقد فعلت منذ يومين بما رأيته حقاً للشعب عليَّ وواجباً مني نحوه. وقع الزلزال المباغت الذي لم ترصده رادارات أقوى دول العالم. كنت أرى في قبول شعبي لاستقالتي رحمة بي، وكنت على استعداد مطلق

لما هو أبعد، راضياً بقدري ومصيري. يبدو أنني كنت أبحث عن الوطن وأحرث في البحر، وإلا فما معنى كل الذي حدث؟ كنت قد وطنت نفسي على المثول أمام أية محاكمة، لإحساسي العميق والطاغي بأنني مسؤول عما حدث، سواء كنت قد شاركت في صنعه أم لا. الأهم أنه حدث، سواء فهمته أم لم أفهمه بعد. حددت في استقالتي اسم زكريا محيي الدين، وهو الرجل الصادق مع نفسه ومعي والذي كان على وشك السفر إلى واشنطن ثاني أيام الحرب. كأنهم أرادوا إذلالنا بمناورة قذرة حين طلبوا إلينا التفاهم المباشر وضبط النفس، وحددنا معاً السادس من يونيو ليسافر زكريا ويتدارك الموقف المتفجر. لذلك حددت اسمه في خطاب التنحي، ليكمل ما لم يكن قد بدأه بعد. ليس من سبب آخر. وكم حزنت حين هجمت الجماهير بالقرب من بيتي على محمد فايق لظنها أنه زكريا فمزقت له ثيابه، ونجا منها بأعجوبة. والمفارقة أن بعضاً من مكاتب الاتحاد الاشتراكي في هذا الوقت نفسه كانت قد شرعت في رفع صورتي وتعليق صورة زكريا محيي الدين مكانها.

ولكني الآن وحيد، فالجماهير قامت بأسطورتها التي أوقفت نواميس الكون مؤقتاً. لم يفهم عبدالحكيم. رفض أن يفهم. كأن شيئاً لم يحدث. رفض أن أبقى ويذهب هو. راح يجمع فلول رجاله لينجز ما لم يستطع تحقيقه عام ١٩٦١. ومرة أخرى أحاول للحظة نسيان أن حياتي مهددة لأتساءل: لماذا يحدث ذلك دائماً، لماذا يقع الانفصال الذي أسقط دولة الوحدة، فيكون عامر مستعداً على الفور لإنجاز الانقلاب بمحاولة إسقاط النظام في القاهرة؟ لماذا تقع الهزيمة التي أسقطت عملياً هذا النظام، فيكون عامر مستعداً على الفور لإنجاز الانقلاب الذي يقدم البديل؟ وما العلاقة بين الانفصال والهزيمة؟ ولماذا يكون عامر دائماً هو القاسم المشترك؟ أطرد الأسئلة التي تقتحم مخيلتي كالجراد المتوحش. أطرد الذباب الأسود الذي ينقر حبات العيون. إنني مسؤول، ولكنني أيضاً وحيد.

منذ عامين فقط جرؤت على اعتقال زميلي كمال الدين حسين في الاستراحة الملكية بالهرم عدة شهور، لأنه علم بمحاولة الاخوان المسلمين عام ١٩٦٥ لاغتيالي ولم يبلغني. عرضوا عليه رئاسة الجمهورية في حال نجاحهم، فاعتذر ولم يبلغ. اعتقلته، وهو الرجل الذي قدم لي استقالته بمحض اختياره حين اختلف جذرياً مع مسيرة الثورة. اختلف مع التأميم ومكاسب العمال والفلاحين. اختلف مع قرار التدخل في اليمن. اختلف مع العلاقات بالمعسكر الاشتراكي. اختلف مع الافراج عن الشيوعيين. وكان في ذلك متفقاً في الرأي مع البغدادي حيناً، وحسن إبراهيم حيناً آخر. ولكنهم لم يفكروا قط في القيام بانقلاب. كانوا أمناء لعهدنا الباكر أن من يختلف ينسحب بهدوء. أما عبد الحكيم الذي لم يختلف في كافة الاجراءات، فإنه هو الذي حاول ويحاول الآن، القيام بالانقلاب.

وباستمرار تقع المحاولة غداة حدث بحجم يوم القيامة، سواء كان الانفصال أو الهزيمة. انني حائر حتى الجنون.

أكثر من ذلك أنني لن أنسى أن هؤلاء الرجال الذين تخلوا نتيجة قناعات ومصالح عن مسيرة الثورة، هم أنفسهم الذين سارعوا إلـيّ منذ الساعات الأولى للحرب يعرضون أنفسهم في أي موقع فداء للوطن، كما لو كنا عشية ٢٣ يوليو ١٩٥٢. كنت أعرف خطاياهم واحداً واحداً، ولقد أمسكوا بأرفع المسؤوليات ولم يتمسكوا بها حين كان يحدث التناقض بين عقائدهم ومصالحهم من ناحية واستمرارية الثورة من ناحية أخرى. أما عندما كان الخطر يجثم كالوحش على صدر الوطن، فقد أقبلوا كالنسور.

ربما كانت مشكلتي أن يسارياً تخلى مبكراً وأن يمينياً تخلى ولو بعد حين. ووجدتني بعدها وحيداً حتى العظم. فالسادات والشافعي لا يتحليان بأي قدر من ايجابية اليسار أو اليمين في الصدام أو التخلي. انهما باقيان هكذا بالموافقة أو الصمت أو اللامبالاة أو البقاء الرمزي لاستمرار ٢٣ يوليو. لا يضران ولا ينفعان. لذلك، فأنا وحيد. أما عبد الحكيم فهو مركز قوة منفصل لا أملك إزاءه أية قدرة على الفعل. بل لعلني في غياب تنظيمي الخاص، لا أملك أداة تحمي النظام سوى الجيش الذي يملكه هو في حقيقة الأمر. كانت السلطة في السنوات الست الأخيرة برأسين. وباستثناء القرارات الحاسمة ذات الطابع المصيري، لم يحدث قط أن انفردت بأي قرار. أقل من أصابع اليد الواحدة تلك القرارات التي اتخذتها وحدي وعلى مسؤوليتي الكاملة، هل أكرر تعدادها: تأميم القناة، الوحدة مع سوريا، التأميم، الحرب. ولم أتخذ قرار الحرب إلا بعد مشاورات تفصيلية مع عامر الذي أقسم لي بأنه «جاهز». ورغم ذلك فإنني لم أتخذ قراراً بالحرب بالمعنى التقني لهذا المصطلح، ولكني اتخذت قراراً بإغلاق خليج العقبة بعد المعلومات المؤكدة من السوريين والسوفيات بأن اسرائيل حشدت وتحشد قواتها على الحدود السورية. ولم نطلق الرصاصة الأولى حسب الطلب المشترك من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة والأمم المتحدة وجميع أصدقائي من زعماء عدم الانحياز. غير أنه يتضح لي الآن، وبعد فترة بالغة القصر، أنه حتى لو كنا أطلقنا الرصاصة الأولى، فالنتيجة لم تكن لتتغير. لم تكن هناك مفاجأة. كانت الأجواء متوترة إلى الحد الأقصى. وفي اليوم الثالث من هذا الشهر قلت للجيش والشعب إن الحرب على الأبواب بعد يومين على الأكثر. لا. لم تكن هناك مفاجآت. كانت المفاجأة داخل الحدود لا خارجها. كنا دولة من ورق، وتنظيماً من نسيج العنكبوت.

أروع السنوات الأخيرة كانت ثلاثاً، بين ١٩٦٢ و١٩٦٥، كان الخيار الاشتراكي والاتحاد الاشتراكي. كان القطاع العام والمرحلة الأولى من السد العالي. كانت الخطة الأولى

للتنمية التي بدأت مع أوائل الستينات. كانت العلاقات المثلى مع المعسكر الاشتراكي رغم أن الشيوعيين المصريين بقوا في السجون والمعتقلات حتى عام ١٩٦٤. كانت الولادة المدهشة لتيار عدم الانحياز. كانت عودة التيار القومي إلى سوريا والعراق. وكان خلع بن بللا يحز في صدري ويملؤه بالهواجس والشكوك، ولكن الدنيا من حولي كانت تحتفل بانبثاقة الفجر. ثم جاء سقوط نكروما ليزيد عدد الوخزات وليلطخ السماء الصافية بالسحب المكدرة، ولكن الدنيا من حولي كانت تمطر بالوعود.

ورغم أنني كنت قد قرأت بيان الثورة المضادة وجهاً لوجه في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، إلا أن الميثاق الوطني صدر والاتحاد الاشتراكي تكوّن. وكنت أعرف أنه لن يسمح للقوى القديمة بغزو البناء الاجتماعي الجديد، خاصة إذا استطعنا تشكيل جهازه الطليعي من صفوة المناضلين عن الاشتراكية. وأقبل تصاعد معدلات التنمية ليفصح أكثر وأكثر عن أننا نمضي في الطريق الصحيح.

وكانت هذه المتغيرات تفعل فعلها في المسجونين والمفرج عنهم من الشيوعيين. كانت تصلني التقارير من داخل الأسوار بصفة منتظمة عن تطور خلافاتهم إزاء ما يحدث. وصفنا بعضهم أننا اشتراكيون. وتنازل بعضهم الآخر عن وصفنا بممثلي الرأسمالية الاحتكارية وقالوا أننا بورجوازيون وطنيون. حسناً، ثم تطورت الأمور خطوة جديدة. نادى بعضهم علناً بحل التنظيمات. وعارض البعض الآخر في تردد ظاهر. وكتب الذين في الخارج كلاماً يطمئن وتحليلات تنطوي على مؤشرات أكثر ايجابية. وعلاقاتنا مع السوفيات تتطور ومع الولايات المتحدة تتدهور، لدرجة حرماننا من القمح. أمر السوفيات سفنهم القادمة من كندا في عرض البحر بالتحول إلى ميناء الاسكندرية وإفراغ جميع الشحنات للشعب المصري. رغم ذلك خضت في دائرة الحكم صراعاً عنيفاً للإفراج عن المسجونين. كانوا يخشونهم أحياناً لأسباب مبالغ فيها. كان شعار «لا اشتراكية بغير اشتراكيين» قد بدأ يصل إلى أذني وآذان غيري. وقد فهمته الغالبية من الضباط الأحرار الذين انخرطوا في الحياة المدنية ــ بالقطاع العام أساساً ــ على أنه إتهام لهم بأنهم ليسوا اشتراكيين. ولكني تمكنت قبيل منتصف عام ١٩٦٤ من الافراج عن جميع المعتقلين اليساريين، وأفسحت لهم المجال في التعبير عن أنفسهم في الثقافة والاعلام وبعضهم في الاقتصاد. وزارنا خروشوف في مناسبة وطنية تاريخية، هي إتمام المرحلة الأولى من السد العالي بمشاركة الاتحاد السوفياتي. وقد استقبله الشعب على نحو دفعه للبكاء كالأطفال. وبعد هذه الزيارة التي قلدني فيها وسام لينين ودعاني بالرفيق، أقيل من منصبه.

ولكن الشيوعيين أقدموا على مبادرة هي الأولى من نوعها في تاريخ الحركات الشيوعية

ربما في العالم كله، إذ أعلنوا حل تنظيماتهم وطلبوا الانضمام كأفراد إلى الاتحاد الاشتراكي.

وفي هذا الوقت نفسه، تقريباً، قام الاخوان المسلمون بأبشع مؤامرة في تاريخهم، إذ أعدوا أنفسهم لانقلاب مسلح يبدأ باغتيالي ومن معي فوق منصة كنت سألقي منها خطاباً. وكان جهازهم السري قد استطاع تخزين السلاح وتدريب المتآمرين على نحو متقن غاية الاتقان. ولولا إبلاغهم الأمر الذي عرفناه بوسائلنا، لكمال الدين حسين، لنجح انقلابهم بغير شك. وقد اضطررنا لاعتقال العشرات منهم إضافة للذين كانوا يمضون فترات الحكم عليهم في قضية ١٩٥٤، وقد حاكمتهم المحاكم الشرعية وأصدرت بعض أحكامها بالاعدام.

وبدا الأمر للكثيرين كما لو أننا أفرجنا عن الشيوعيين على حساب الأخوان المسلمين. ولم يكن الأمر كذلك أبداً. فلو لم تكن هناك خطة انقلاب من جانبهم لما قبضنا عليهم.

ولكني مع بداية عام ١٩٦٥ أيضاً بدأت أرصد على نحو غائم بعض الملاحظات: إن ثمة خللاً ما في القطاع العام لا يوازن بين الإنتاج والاستهلاك، ولا بين الكم والنوع، من أين مصدره؟ ان ثمة خللاً في التنظيم السياسي لا يوازن بين تعريف الميثاق للعمال والفلاحين والواقع البشري لهم في مستويات التنظيم المختلفة، وكذلك الجهاز الطليعي الذي لم يتحول قط إلى أداة تثوير واكتشاف للكادر الاشتراكي. إن ثمة خللاً في البنية الاجتماعية ذاتها، فالقوى الطبقية القديمة تكاد تختفي، ولكني أحدس بنمو سرطاني لمراكز قوى طبقية جديدة داخل القطاع العام نفسه والجهاز البيروقراطي للدولة.

ورحت أصرخ بأعلى صوت في الدوائر الضيقة للتنظيم الطليعي، في الدائرة الأوسع لمجلس الشعب والمؤتمرات القومية للإتحاد الاشتراكي: هناك حزب رجعي منظم ودقيق يحمي مصالح الاستغلال. لم أكن اقصد الأخوان المسلمين وحدهم. كنت أقصد تحالف الاستيراد والتصدير بين بقايا الطبقات القديمة وطلائع الطبقات الجديدة. هناك «طبقة جديدة» ظنَّت أنها الوريث الشرعي الوحيد لامتيازات الطبقات القديمة. القطاع العام مجرد بذرة للتحول الاجتماعي، بالإدارة البورجوازية يمكن لهذا التحول أن يتجه إلى ثورة مضادة، ويمكن له أن يتجه إلى بناء الاشتراكية. ولا اشتراكية فعلاً بغير اشتراكيين. ولا اشتراكيين بغير تنظيم لا يعتمد على السلطة. فأين هم؟ منظمة الشباب ومعهد الدراسات الاشتراكية، يخرج أفواجاً يقولون لي فيها أنها تمركست أو تبلشفت ويدخلونها السجون.

وأقرأ العجب في الصحف والكتب، ما ينشر وما لا ينشر، ما يذاع وما لا يذاع، ما يمثل وما لا يمثل. من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أجد المسرح المصري يقدم فكرة واحدة لا تتغير بين توفيق الحكيم ورشاد رشدي وعبد الرحمن الشرقاوي وسعد وهبة

وغيرهم: سلطان مملوكي طيب أو عاجز أو غائب أو مقيد يحب شعبه، ولكنه مغلول اليدين بسلاسل الحاشية المحيطة به، الحاجز الجهنمي بينه وبين الجماهير. وأرسل بعض الرجال ليشاهدوا المسرحيات فإذا بهم يسجلون لي تصفيقاً حاداً ملتهباً من المشاهدين. أشهد بنفسي أفلاماً للمسرحيات وأفزع من هذا الذي يقال، ولكني أرفض منع العروض أو مصادرتها. هل تحول المسرح المصري إلى حزب أو عدة أحزاب بديلة للتنظيمات المنحلة؟ ليكن، فبعض المشاهد تهزني في الأعماق وتروي حدسي الظامىء لمعرفة الحقيقة. جاءوا لي برواية «بنك القلق» للحكيم قبل أن تنشر، وبعدة روايات لنجيب محفوظ «اللص والكلاب»، «الطريق»، «الشحاذ»، «ثرثرة فوق النيل»، «ميرامار». قرأتها كلها. رفضت أن يلخصها لي أحد. كدت أصادر «ثرثرة فوق النيل» ثم عدت فسمحت بها. كلها أعمال تنعي العدل والحرية والكرامة، فماذا تبقّى إذن؟ ماذا يحدث تماماً، أو ماذا تبقى من الوطن، هل كانت نتيجة البحث عنه سراباً؟ وكنت أعلم يقيناً أن هؤلاء الكتاب جميعاً من كبار الموظفين في الدولة. فهم أولاً يعرفون الكثير وثانياً هم مع النظام، فكيف.. وماذا.. ومتى.. وأين.. ويا كلّ الأسئلة المروعة التي أقضت مضجعي. لن أنسى ممثلاً وقف كأنه هملت يخاطب الأمير المملوكي محذراً في لوعة من أن وحدة التجار لا «أرض» لها، ومن ثم فالتتر على الباب يستعدون للانقضاض. نبوءات سوداء في مسرح أسود وروايات سوداء، كانت تتناقض مع الأجواء المزدانة بلآلىء النور وكرنفالات الفرح.

وكنت قد تذكرت جواب بن جوريون على همرشولد حين قال له هذا الأخير «مصر بلد مسالم وعبد الناصر رجل يريد أن يبني وطنه فقط» فأجابه الصهيوني العجوز «وهذا بالضبط ما يخيفني». إن بناء مصر الاشتراكية صاحبة النموذج الخطر حين يقتدى به، وصاحبة النفوذ المسلح الذي وصل عبر اليمن إلى حدود النفط، يخيف الغرب، وبالذات أميركا واسرائيل. سقطت الوحدة، ولم تسقط القاهرة، فسقطت دولة الانفصال. واستأنفت مصر المسيرة التي يجب أن تتوقف بأية وسيلة، حتى الحرب. ولكن ما كان يمكن للهزيمة أن تلحق بنا إلا إذا كانت السبل مهيأة لها داخل الحدود. هذه نقطة أولى في جدول أعمال الشعب الذي رفض الاستسلام للعدو ورفض النظام المهزوم معاً. هذه هي الحقيقة. سقطت الدولة، ولم تسقط إرادة الشعب. أي أن استئناف المسيرة ممكن. لذلك يريد أقرب المقربين أن يوقفها بأي ثمن. ولذلك أضع مسدسي في هذه الليلة الحالكة السواد على الكومودينو إلى جانب الفراش ولا أنام.

□ □ □

البلاغ الثالث (٧)

الجمهورية العربية المتحدة
مكتب الرئيس
٢٨ ـ ٩ ـ ١٩٧٠

في اللحظات الأولى من فجر هذا اليوم، كنت أقف مع صديق فوق شرفة الجناح الذي أنزل فيه بفندق هيلتون وماء النيل الصامت يمضي أمامي في هدوء لا تعكر صفوه النسائم الرقيقة المعبقة بقطرات الندى. ولا أدري لماذا أفلت لساني حين سألت صديقي فجأة: ما هو الموت؟ أجابني ببساطة: هو انتهاء الحياة. استأنفت متسائلاً: كلياً؟ قال بحسم عجيب: نعم.

بقية الحوار لا تهم، فالأهم أنني لم أكن أفكر في الموت كقضية فلسفية، بل كنت أفكر بالمئات من الفلسطينيين والأردنيين الذين ماتوا خلال الأيام العشرة الماضية. بعد كفاح مرير أوقفنا النزف، ولكن من مات قد مات، وانتهى الأمر. لو لم تحدث هزيمة ١٩٦٧ لما وقعت المذبحة، ولو لم يحدث الانفصال لما وقعت الهزيمة، هذا رأيـي الذي لا أبوح به لأحد. الستينات رغم كل ألوانها الزاهية، هي سنوات عذابي الذي لم ينقطع. إيقاع مصر في شباك الهزيمة. كانت خطة الخصوم ولا تزال هي الاستفراد بكل قطر عربي على حدة، من داخله إذا استعصت الحدود، ومن داخل الداخل إذا كان الأمر ممكناً.

قلت لمن تبقى من الرجال الذين تغيرت وجوه بعضهم غداة الخامس من يونيو ١٩٦٧: لا بد من تغيير النظام. لا بد من تغيير السياسات والممارسات وكل شيء، وإلا جاءنا التغيير بغتة من خارجنا. ولن يكون التغيير المقبل من الخارج إلى الأفضل، سيكون إلى أسوأ الأسوأ، لأن القوى المضادة للوطن أكثر تنظيمًا واستعداداً، ولأن مناخ الهزيمة هو فرصتها الذهبية. كانوا جميعاً حولي بعيون مفتوحة وآذان نصف مغلقة. خيل لي ذلك من سير المناقشات.

حددت لهم بعض الأمثلة: لا بد من معارضة حقيقية. لماذا نبقي على المعارضين تحت الأرض؟ فليخرجوا من أوكارهم السرية، وليشاركوا في وضح النهار، والبقاء للأصلح. اعترض الجميع اعتراضاً صريحاً على السماح للمعارضة بتنظيم نفسها تنظيمًا علنياً. اقترحت عليهم أن يكون كمال الدين حسين أو البغدادي على رأس الحزب المعارض، فرفضوا أيضاً. كان السادات وعلي صبري أكثر المعارضين تشنجاً. وكان زكريا محيي الدين وعزيز صدقي وصدقي سليمان من الذين اعترضوا بحيثيات تقول إننا أحوج ما نكون إلى الوحدة الوطنية في زمن الحرب، لا إلى الأحزاب.

ولكن مظاهرات الطلبة في فبراير ١٩٦٨ قالت شيئاً آخر. وكنت أستطيع أن أرى بوضوح ما وراء اللافتات التي تطلب إعادة محاكمة ضباط الطيران. وقد أعيدت المحاكمات واتسعت، ولكن أحداً لم يشأ أن يرى في قاعة المحكمة أن ألمع وجوه النظام خلف قضبان قفص الاتهام. كان حسين الشافعي رئيس المحكمة. ولكن الحقيقة أن شباب فبراير كانوا القضاة. وكان النظام بأكمله هو المتهم. كان ذلك تأكيداً جديداً لحركة ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧، رغم أن البعض رآه حينذاك نقيضاً. لم يفتني مطلقاً أن الخروج الأسطوري للجماهير كان رفضاً للهزيمة والنظام معاً، وأن اختيارها الاستثنائي لفرد إنما كان اختياراً لأمل ما في التغيير. لذلك حين انتفض الشباب بعد أقل من ثمانية أشهر، لم أر الشعب يناقض نفسه، بل رأيت الشعب يستعجل التغيير. ولما لم يحدث التغيير الذي يتوقون إليه كانت الانتفاضة الثانية في العام نفسه، أي في نوفمبر ١٩٦٨. لم يكن هناك ضباط لم يحاكموا، بل كانت السجون قد انفتحت لأكبر المسؤولين المباشرين عن الهزيمة. وكان عامر قد أنهى نفسه بنفسه، بعد أن تجمهر حوله المستفيدون منه في عمل علني لا يقبل التأويل. ومن ثم فلم تكن المشكلة قط هي تغيير الوجوه أو استبدالها، بل تغيير النظام. وكنت أدرك أن بعضاً من التيارات المناوئة تركب المظاهرات. ولكني كنت موقناً من أن التيار الغالب يطلب التغيير، خاصة بعد أن التحق بالركب الطلابي عديد من المصانع والعمال.

وخاصة أيضاً، بعد أن اتسع نطاق الحوار في الصحف، بناء على رغبة مباشرة مني لمعرفة الحقائق أكثر وأكثر. كانت الديموقراطية هي العنوان الكبير لمطالب المثقفين والناس البسطاء على السواء. وقد نزلت إلى الشارع بنفسي لأسمع وأتكلم وأرى كل ما يجري. وأشهد أنني فهمت من الحوار الشخصي والمباشر ما لم تفهمه الأجهزة. كانت الديموقراطية تعني لدى الجماهير حرية الفكر والتعبير والعطاء. كانت تعني أيضاً الاستعداد المكثف للحرب. كانت تعني كذلك أنه على الطبقة الجديدة أن تتنحى عن مراكز القوى الطبقية. كانت تعني أيضاً أن الفلاح هو الفلاح والعامل هو العامل، وليس المالك أو صاحب المصنع

الذي تسلل إلى الاتحاد الاشتراكي في غيبة الرقابة الشعبية. كانت تعني أولاً وأخيراً «ثورة في ثورة».

ورحت أبحث عن أوراقي الخاصة التي أغلق عليها بمفتاح خاص في خزينة مكتبي، لأكتب فيها ما لا يخطر على بال أقرب المقربين. لأكتب برنامج الثورة الجديدة.

أمضيت ليلة مسهدة وأنا أكتب هذا التعبير «ثورة في ثورة» دون أن أضيف حرفاً آخر، لا لأن رأسي خلت من الأفكار، بل على العكس، لأنها ازدحمت بها. كانت القضية أكبر كثيراً من الأشخاص، ولكنها بالضرورة كانت تشتمل على الأشخاص. كانت القضية تتناول أساساً بنية النظام السياسي التي لم تعد تتسق مع البنية الاقتصادية والاجتماعية كما حددها الميثاق. مع ذلك، فقد ذكرت في الميثاق أنه سيقبل التغيير بعد عشر سنوات. ولكن، ها نحن بعد خمس سنوات من إصداره نجد أنفسنا تحت وطأة هزيمة شاملة، وبعد أقل من عام واحد من الهزيمة تجتاح البلاد من أقصاها إلى أقصاها مشاعر الغضب.

طويت ورقة «ثورة في ثورة» التي لم يتيسر لها بعدئذ أن تكتب قط فضلاً عن أن ترى النور، وارتضيت تخطيطاً أولياً يستكمل الميثاق دعوناه «بيان ٣٠ مارس» يسد الثغرة الديموقراطية، ولكنه يحافظ في الحقيقة على جوهر النظام، وبالتالي على أغلب وجوه الصف الثاني التي كان لا بد لها أن تصعد فور إخلاء معظم مقاعد الصف الأول.

كان بيان ٣٠ مارس في تقديري جرعة دواء مركزة وإن تكن مؤقتة لتجاوزات حقيقية وقعت وربما لا تزال. لذلك كان التحديد الأكثر فعالية للعامل والفلاح حتى لا ينتحل صفتهما من يتسللون إلى الاتحاد الاشتراكي كالافاعي. كذلك كان شعار «سيادة القانون» بالعودة إلى دولة المؤسسات، بعد أن سقطت دولة المخابرات.

ولم أكن لأستطيع أن أتابع التنفيذ حرفاً حرفاً، لأن اغتصاب سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة، كان يؤرقني لدرجة معاناة الموت كلما استيقظت في الصباح لأجد الأرض لا زالت في كابوس الاحتلال. هل يمكن بعد ١١ عاماً من طرد الانجليز والفرنسيين والصهاينة، أن يعود الغزو وكأننا لم نفعل شيئاً طيلة عصور وأجيال؟ شعرت فعلاً كأن مصر لم تعرف الاستقلال منذ وطأت أراضيها القوات البريطانية عام ١٨٨٢ أي أن هزيمة الثورة العرابية ما زالت مستمرة.

آه، لقد أعطاني ملايين الناس البسطاء شيكاً على بياض في التاسع والعاشر من يونيو ١٩٦٧ لأتصرف كيفما أشاء، فهل تصوروا حينذاك أن الفرد وحده مهما أوتي من قدرات لا يستطيع أن يتجاوز حدوده إلا بثورة جديدة؟ وهل يمكن القيام بها قبل تحرير الأرض؟ جنود إسرائيل يمدون أقدامهم من الضفة الشرقية للقناة، استفزازاً لكرامة المصريين، وبعض

المجندات يسبحن عاريات؟ لطفك يا رب. لا بد من التحرير أولاً، وبعدها فليكن ما يكون. ليأخذ السلطة غيري وليقم بالثورة غيري. الأهم الآن هو تحرير الأرض، هو تسليم الوطن كاملاً غير منقوص لأهله وللذين يستطيعون الثورة به وفيه وله.

كان السوفيات قد برهنوا على أنهم الحلفاء الصادقون في أصعب وأسود الأيام. بأسلحتهم ورجالنا استطعنا أن «نناوش» العدو غداة الهزيمة بأسابيع: رأس العش، ايلات، شدوان، كلها مواقع لانتصارات جزئية في العام التالي للكارثة مباشرة. ولكن إسرائيل كانت تتمتع بميزة هائلة، هي قدرتها اللاأخلاقية واللامحدودة على الضرب في العمق، ضرب الأهداف المدنية والاقتصادية حتى تنال من إرادة الصمود ومقومات الصمود. ضربت الأطفال في مذبحة مدرسة «بحر البقر»، وضربت العمال في مذبحة مصنع «أبي زعبل»، وضربت الجسور في «نجع حمادي». وهكذا بدا لي مخططها واضحاً لا يحتمل اللبس أو التأويل: استمرار المعارك بطريقة أخرى حتى نركع. واستمرار المغريات حتى نستسلم: نعيد إليكم سيناء كلها بشرط واحد هو عدم التدخل بيننا وبقية العرب. انهالت عليّ العروض بمختلف اللغات والإشارات والوساطات منذ توقف القتال بموجب القرار المشؤوم في مجلس الأمن. وهو قرار مشؤوم لأنه صياغة للهزيمة العسكرية. ولكنه ليس قرار الأقدار لأن إرادتنا لم تهزم.

رفضت العروض كلها لسبب بسيط، إنها كانت تعني التوقيع على وثيقة الاستسلام. كانت جولدا مائير تنتظر اتصالاً هاتفياً مني غداة الهزيمة فلم تسمع هي والجنرال دايان سوى هدير الشعب بأن أبقى في موقعي لأقود الصمود، لا لأقوده إلى الاستسلام. ولو كانت القضية هي سيناء، لما كانت الحرب أصلاً، فاكتشاف الهوية العربية لمصر يعادل وجود مصر ذاتها.. ومن ثم فسيناء ليست أكثر من جزء في كل لا سبيل إلى فصمه إلا بسلخ مصر عن هويتها. وهو ليس سلخاً شعارياً أو مجازياً، بل هو سلخ الوطن عن نفسه، وارتماؤه على الفور في حضن الأجنبي. انهم في الواقع كانوا يطالبونني، لا بالتخلي عن العرب أو فلسطين، بل عن مصر دون زيادة أو نقصان. إنه المشروع الغربي التاريخي منذ الحروب الصليبية ومن قبل تأسيس الكيان الصهيوني بعشرات السنين، أن تنفصل مصر عن جذورها لتصبح في مهب الرياح الغربية. العروبة في مصر ليست مجرد رابطة عاطفية أو دينية أو ثقافية، ولكنها تعني لدى غالبية الشعب الكادح المسحوق التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي أو الاستقلال والتنمية والديموقراطية. بينما انعزال مصر يعني العكس تماماً في عمق أعماق المواطن المصري، أي العودة إلى التبعية والتخلف والاستغلال الطبقي البشع، لذلك كانت عودة سيناء بشروط الاحتلال تعني لي عودة مصر إلى ما قبل الثورة، إلى ما قبلها بكثير. أي أن المطلوب في صيغة أوضح أن أسلم بهزيمة الهزائم، هزيمة ثورة ٢٣ يوليو.

وهذا لن يكون إلا على جثتي. لذلك رفضت وفعلت العكس. قلت للسوفيات: إن مرحلة رائعة من التحالف قد مضت بحلوها ومرها، ونحن الآن بإزاء مرحلة جديدة نريدها خالية من المرارة. سماء بلادي مفتوحة للعدو. عبرها تستأنف إسرائيل حربها ضد إرادتنا ومعنوياتنا ومنشآتنا. وأطلب منكم دون خجل أن تتحملوا معنا عبء الدفاع عن سمائنا حتى نتمكن من تأمين حدودنا بالصواريخ والرادارات القادرة. بعدها سأقول لكم شكراً فقط. ولا تنتظروا مني ولا من مصر ما هو أكثر. إن ما يشجعني على الطلب هو أنكم كنتم شرفاء معنا طول الوقت، لم تعطونا السلاح بشروط سياسية. بعضه أهديتموه لنا دون مقابل. وسأقول لشعبي يوماً كل ذلك. أما الآن فنحن في محنة حقيقية، ولكن نرجو ألا يساء فهمنا. سنعطيكم التيسيرات الممكنة دون أن يتحول شبر من بلادنا إلى قاعدة لكم. لن يرفع علمكم على غرفة ولا فوق مبنى. خبراؤكم تحت قيادة مصر طالما كانوا على أرضنا، وسيرحلون بمجرد انتهاء خدماتهم. هكذا ترون أيها الأصدقاء أنني أطلب كل شيء ولا أعطي شيئاً، لأنه ليس لديّ ما أعطيه سوى امتنان شعب وعرفان أمة. ولأنكم تحاربون استعماراً هو ألد أعدائي. وإذا سقط النظام في مصر فستكونون كشعبي وأمتي من أولى الضحايا.

رغم هذه اللهجة وافق السوفيات على حماية سماء ليست جزءاً من الفلك السوفياتي أو الاشتراكي. ورغم ذلك أيضاً، فقد ووجهت بصعوبة شديدة في إقناع زملائي بأهمية توريط السوفيات في حربنا.

وكانت خطتي، باختصار، مزدوجة: حماية المدنيين والمنشآت الاقتصادية، وهذا هو المظهر، وبدء «حرب الاستنزاف»، وهذا هو الجوهر.

كانت إعادة بناء القوات المسلحة لا تعني مجرد التسليح والتدريب، بل قيام مجموعات فدائية بالضرب في عمق سيناء، ثم استدراج العدو عملياً إلى فخاخ منصوبة سلفاً. فهذا هو التدريب الحقيقي الذي يواكب خطوة خطوة الإعداد التدريجي لاستراتيجية حرب التحرير. وكان محمد فوزي بانضباطيته العسكرية المشهودة هو ذراعي اليمنى في بناء الجيش الجديد. وكان عبدالمنعم رياض هو ذراعي اليسرى في صياغة المبادرات الخلاقة لحرب الاستنزاف. ويوم مات كان أول نذر الشؤم التي صاحبت ــ دون أن يدري أحد ــ المرة الثانية لوخزة القلب العميقة فتردد صداها بالارتجاف القاسي في مقدمة الصدر وأعلى الظهر معاً وفي وقت واحد.

سرت في جنازته محوطاً بجماهير الشعب التي انهمرت في البكاء والحب وكأنها استعادت الروح ولا تريد لها أن تفارق الضلوع أنفاساً متقطعة. كان رحيل رياض غياباً لجزء

مني، كما لو كنت أمشي في جنازتي، مضيت وسط الناس مبصراً في العيون ثقة جديدة رغم الأحزان.

وهي، أيضاً، الثقة العربية التي ردت إلى روحي الكثير مما كدت أفقده مع الهزيمة وانتهاء حرب اليمن حيث تصورت من قراءاتي في الصحف أن البعض لا يحب مصر إلا إذا كانت مجداً خالصاً ويولي وجهه بعيداً عنها إذا أصابها مكروه. في تلك الأيام تمثلت في ذهني مقولة جديدة هي أن الموقف من مصر ـ منتصرة أو منكسرة ـ هو مقياس لعروبة العربي، فمن يكره مصر لا يمكن أن يكون عربياً. وحين تغيرت الأوضاع في الخرطوم وبغداد وطرابلس بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ شعرت كما لو أن العرب يردون على إسرائيل. وحين زرت السودان وليبيا شعرت أن العروبة ما زالت بخير، وأن مصر لا زالت في قلب القلب. أعطتني الجماهير هنا وهناك ما لم أتصوره قط في غمرة الكارثة.

وتمكن العرب من التعبير عن موقفهم الرافض للهزيمة، بما أعطوه من دعم مالي لمصر وسوريا والأردن والمقاومة الفلسطينية: أنبل ظواهر الوجود العربي بعد الهزيمة.

ولم يحدث أنني أغفلت مطلقاً دور الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط. ولم يحدث أيضاً أنني توهمت بقدرتها على الوقوف بنزاهة في الصراع، لسبب بسيط، هو أن التناقض أصلاً ليس بيننا وبين الكيان الصهيوني وحده، بل بيننا وبين الاستعمار العالمي ككل وبالذات الامبريالية الأميركية.

ومع ذلك، أكرر، اعترفت دائماً بدور الولايات المتحدة، فلا حل مؤقتاً للصراع دون مشاركتها في صياغته. وقد تبادلت الرسائل دائماً بمناسبة وبغير مناسبة مع الرؤساء الأميركيين دون جدوى. وفي خطاب علني قلت للرئيس نيكسون إنه إذا أوقف المساعدات المسلحة لإسرائيل فإن ذلك يشكل بالنسبة لنا حداً أدنى للحوار مع أميركا.

وفي الوقت نفسه كانت خطة حرب الاستنزاف تمضي في طريقها بنجاح، حتى أنني توقعت لخطة حرب التحرير أن تبدأ بعد عام على الأكثر. وفجأة أعلنت أميركا عن مشروع وزير خارجيتها روجرز. وهو مشروع لا يزيد عن كونه ترتيباً إجرائياً لتنفيذ القرار ٢٤٢ ولكني فكرت طويلاً في هذه «المبادرة الأميركية» الأولى من نوعها.

كان يارنج مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة إلى الشرق الأوسط قد تعب من جولاته العديمة الجدوى بيننا وبين إسرائيل. وكانت القوات الإسرائيلية على ضفاف القناة قد بدأت علامات الإنهاك تبدو عليها واضحة.. إذ لم تعد قادرة على ضرب العمق المصري، وصارت تتلقى ضربات موجعة بعد تحصين الشواطىء المصرية بصواريخ سام والرادارات الاليكترونية.

ومن جهتنا، كان يشغلنا ليل نهار كيفية نقل هذه الصواريخ إلى مواقع متقدمة تساعدنا في تنفيذ خطة التحرير حين تبدأ بالحيلولة دون تفوق سلاح الجو الإسرائيلي. وكانت التضحيات البشرية باهظة في عملية النقل وبناء القواعد الصاروخية. وكنا نحتاج إلى فترة قصيرة لالتقاط الأنفاس.

وكنت على يقين لا تشوبه شائبة من الوهم، بأن إسرائيل لن تقبل مطلقاً تنفيذ مشروع روجرز، كما هو موقفها العملي من القرار ٢٤٢.

وكان الجميع ــ في مصر والوطن العربي والاتحاد السوفياتي وربما إسرائيل ذاتها ــ يعتقدون أنني سأرفض المشروع جملة وتفصيلاً.. ذلك أن المتغيرات الإيجابية خلال وقت قصير بعد الهزيمة، تدفع إلى الرفض. غير أنني، وقد كنت في موسكو، كان لي رأي آخر. بينما كانت اللجنة التنفيذية العليا في الاتحاد الاشتراكي بالقاهرة قد أخذت قراراً بالإجماع ــ وبرئاسة السادات وحماسه ــ برفض مشروع روجرز.

وحين عدت إلى عاصمة الوطن، كان الهدوء المخيف الذي يسبق العاصفة.

ماء النيل أمامي لا يتحرك. هكذا لاحظت فجأة بعد أن تركني صديقي لتأملاتي بعد يوم هائل من الضنى. كان الملوك والرؤساء قد بدأوا يغادرون القاهرة واحداً بعد الآخر، بعد أن تم التوقيع الجماعي بحضور الملك حسين وعرفات والرئيس اللبناني على وثيقة تُوْقِفْ الدم، ولو مؤقتا.. فطالما أن الفلسطينيين لم يأخذوا بعد الحد الأدنى من حقوقهم، فإن الدم العربي لن يتوقف، حتى ولو أردنا، وحتى لو استطعنا ذلك مؤقتاً، فلا بد للإسرائيليين والأميركيين من أن يجدوا الثغرة التي يتسللون منها إلى ما تحت جلودنا حتى يمزقوا خلايا الدم في شرايين الانسان الواحد، فكم وكم بين الاخوة أو أبناء العم أو إلى ما لا نهاية من تجمعات غير متجانسة لم تنصهر في بوتقة الوحدة الوطنية، فضلاً عن الوحدة القومية.

النيل الصامت لا يتكلم، وبرج القاهرة ينتصب بين الظلمة والأضواء الخافتة علامة باقية على مر الزمان تحدث الأجيال عن أميركا، التي أرادت يوماً أن ترشو الثورة بثلاثة ملايين من الدولارات فأمرت باستلامها وإقامة هذا البرج، عيناً حارسة على نقاء الثورة وقذارة الولايات المتحدة.. التي تجيء الآن بمشروع روجرز تحت ضغط نجاح حرب الاستنزاف. ومصر كلها، والعرب جميعاً، على أهبة الاستعداد لرفض المشروع الأميركي. وهم لا يعلمون أنني أيضاً أول من يرفضه. ولكن ماذا نخسر لو فعلناها مرة واحدة.

لو أننا راهنّا أولاً على رفض إسرائيل، ولو أننا راهنّا على كسب الوقت لتحسين وضعنا الصاروخي بطول القناة وعرض الدلتا بحد أدنى من الضحايا البشرية.

كان السادات كما قلت، قد استحصل على قرار اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي برفض المشروع أثناء غيابي في موسكو. وفي موسكو، كما لا يدري، كنت قد قررت أمرين: أولهما قبول التحدي الأميركي بإيمان مطلق أن المشروع لن يرى النور. والأمر الثاني هو إقالة السادات من الحياة العامة، لسبب لا علاقة له بالسياسة. إنه في هذا الميدان لا قيمة له أكثر من الموافقة المسبقة والمبالغ فيها على ما أقول أو أقرر. وهو لم يتحمس لرفض المشروع إلا لظنه البديهي أنني سأرفضه. ولكني فكرت ــ بعد ثلاث سنوات من الهزيمة ــ أن بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ لم يوضع قط موضع التطبيق، بل إن كثيراً من مواد الميثاق نفسه لم تنفذ. وأنه لا بد كمرحلة بين الهزيمة والتحرير الكامل من التصدي الفعال للعوائق التي تحول دون التطبيق والتنفيذ. إن تغيير النظام نفسه ليس وارداً الآن، وترميمه مستحيل. ولكن المرحلة الانتقالية تحتمل بعض التمهيد والمقدمات.

كان شخص السادات من الرموز التي يجب إنهاؤها، وإحلال البغدادي مثلاً بدلاً منه، لأنه في الأقل معارض صريح ورجل دولة من الطراز الأول. إذا كانت أعصاب البلد لا تحتمل فعلاً معارضة منظمة في حزب الآن، فما الذي يمنع إشراكها في المسؤولية عن مسألة وطنية ملحة وعاجلة ولا تحتمل التسويف؟ كذلك، فإنني عملياً، برفقة المرض والإعداد المضني للقوات المسلحة، أصبحت محتاجاً لمن لا يقف معي في الصور بدرجة شرفية ــ كنائب للرئيس ــ بل لمن يستطيع القيام بتصريف الأعمال الحكومية، بكفاءة عالية.

هذا إلى جانب أنني لن أنسى تلك البرقية التي وصلتني في موسكو من صاحب فيلاّ ثمينة بشارع الهرم، يشكو فيها نائب الرئيس من أن زوجته أعجبت بالفيلاّ المذكورة وطلبت منه أن يبيعها لها فاعتذر، فما كان من المسؤول الأول عن البلاد في غيابي إلا أن أمر بفرض الحراسة على الرجل. وهو قرار مشين بعد بيان ٣٠ مارس وما ينص عليه صراحة من سيادة القانون، استغلال مشين للنفوذ، أين منه استغلال زينب الوكيل حرم النحاس باشا الذي يبدو عملاً بريئاً قامت بسببه القيامة فكتب مكرم عبيد «الكتاب الأسود».

وفي مطار القاهرة حين عدت من موسكو، اكتفيت بالهمس في أذن السادات أن يستريح في بيته، وأمرت على الفور بإعادة الفيللا إلى صاحبها ورفع الحراسة عنه. ولكن التفكير في إزاحة السادات وغيره لم يكن وليد الصدفة أو الشكاوي، فلكم عرفت عنه الكثير من العلاقات المشبوهة ببعض الملوك والأمراء في المشرق. ولكن الصدفة وفدت في وقتها المناسب، حيث كنت أستعد لإجراء التغييرات التي من شأنها تنفيذ بيان ٣٠ مارس وتطبيق ما تبقى من الميثاق كإجراء تمهيدي لما هو أشمل وأكثر عمقاً بعد التحرير. حتى إذا تمت «الثورة في الثورة» بغيري، فسأكون سعيداً، لأنني استعدت الوطن من أنياب الاحتلال،

وأنني وضعته في الأقل على أبواب الانعتاق من الاستغلال، وأنني كرست الأمرين في إطار الاكتشاف المطلق والنهائي لهوية المصريين القومية العربية.

حينذاك فقط أكون مرتاح الضمير سواء أكان القبر مكاني أو معتقل القلعة، فلست أعتقد أنه سيكون لي مكان ثالث. أتذكر أنني في طفولتي سمعت كثيراً عن الجنة، فرحت أسرد ما سمعت على أحد أصدقاء الطفولة الذي قلت له: هل تعرف ما هو أقصر طريق إلى الجنة؟ ولم أنتظر الجواب إذ استطردت على الفور: إنه الموت. وذهل صاحبي الذي لم أترك له فرصة التراجع إذ بادرته قائلاً: تعال نموت لنذهب بسرعة إلى الجنة. ولم نعرف آنذاك وسيلة للموت سوى ابتلاع كمية من الشمع، الأمر الذي سبب لنا «مغصاً شديداً» و «علقة ساخنة» من الأهل، ولم يوصلنا مطلقاً إلى الجنة. على أية حال، فقد تذكرت هذه الحادثة فجأة، حين قال لي صديقي منذ ساعة أن لا شيء بعد الموت. وكنت أسأل عن مئات الفلسطينيين والأردنيين الذين استشهدوا خلال عشرة أيام وأكثر. إن جيلنا لن يحرر فلسطين. يكفي أنه اكتشف أن من دونها يصبح البحث عن الوطن عبثاً في عبث، مهما أقمنا المصانع والسدود والمزارع والجامعات في كل قطر على حدة، فإن تمزيق هويتنا بتمزيق الوطن الواحد إلى أقطار سيؤدي شئنا أو لم نشأ إلى تحطيم المصانع والسدود والمزارع والجامعات. الهوية القومية العربية للمصري والسوري والعراقي والليبي والجزائري وكل مواطن عربي ليست مجرد شعور، بل هي الرباط السحري لكل المصائر في وحدة لا تنفصم، فإذا انفصمت سقط البناء بأكمله ذرات تتلاشى في الهواء. أقول ذلك لأن الهزيمة رافقتها ردة فعل إقليمية هوجاء، وكأن العروبة ثوب نرتديه في كرنفلات النصر ونخلعه في مآتم الهزيمة. أكره أحياناً تعبيرات المثقفين، فالتنظير لعروبة المصريين بالتاريخ واللغة وغير ذلك هو لغو إذا لم يكن واضحاً للمواطن العادي البسيط أن عروبته هي ــ إلى جانب العزة والكرامة ــ التقدم الاقتصادي والاجتماعي والاستقلال السياسي والازدهار الثقافي، هي حياته دون زيادة أو نقصان.

لذلك تألمت كما لو أن وخزة شكّت القلب، حين أخذت محمد أحمد ذات يوم في رحلة بالسيارة التي كنت أقودها في الطريق من القناطر إلى قليوب. اعتدت كثيراً القيام بهذه الرحلات التي يبتعد فيها الحرس عني عدة أمتار حتى لا يزعج الناس وحتى أستطيع التحرر من قيود الروتين قليلاً، والتعرف على الحقيقة البسيطة مباشرة. أصحب معي سكرتيري محمد أحمد الذي يدري جيداً أن طلبي الوحيد منه ألا يتكلم. في إحدى هذه الجولات توقفت فجأة على الطريق الزراعي، وأنا أشاهد منظراً لم أتصور قط أنني بعد خمسة عشر عاماً من الإصلاح الزراعي سأراه: فلاح وأسرته في ثياب مهلهلة يأكلون البصل والعيش البتّاو، والمحراث الذي عرفناه من أيام الفراعنة تقف إلى جانبه بقرة تكاد تسقط إعياء. يومها رحت أعصر

جبهتي في معاناة واضحة، فسألني محمد أحمد ضارباً بالصمت المطلوب عرض الحائط عما ألمّ بـي. ووجدتني أشير عليه بما رأيت دون أن أتكلم. ولكني رويت القصة بعدئذ لاثنين من المثقفين الماركسيين عام ١٩٦٨ وهما يكلمانني بحماس عن تطور الريف بعد الإصلاح الزراعي. ولم أرو لهما قصة أخرى. دق عندي جرس التليفون السري بطبيعة الحال، فرفعت السماعة، وإذا بصوت فلاحي لامرأة تسألني: إبراهيم بيه؟ قلت لها على الفور: نعم. قالت: لقد جئت حسب طلبك يا سعادة البيه، ولكني لا أعرف كيف أحضر. سألتها أين أنت، فلم تعرف. طلبت منها أن تجعل صاحب التليفون الذي تتكلم من عنده أن يشرح لي العنوان ففعلت. أرسلت لها سيارتي الخاصة التي أحضرتها بعد نصف ساعة. لدقائق لم تعرف أنها أمام رئيس الجمهورية وفي بيته. كانت تعتقد أنها في بيت إبراهيم بيه. حكت لي قصتها، فهناك مقاول تخديم اتفق مع أهلها على تشغيلها خادمة في العاصمة مقابل نسبة مئوية يقتطعها شهرياً من مرتبها الذي سيكون إلى جانب الطعام والشراب ثلاثة جنيهات. حكت لي عن أهلها في القرية البعيدة وكيف يعيشون على البصل والبتّاو أيضاً، وكيف أن إبراهيم بيه وعدها بالعمل عند بيه آخر لن تتعب في بيته لأنه.. وحيد.

طبعاً أرسلت الفتاة إلى أحد المصانع لتتعلم حرفة، ولكني لم أحل مشكلة الملايين من شعب مصر. لذلك كان التغيير الجذري ضرورة قصوى، ولكن التحرير كان ضرورة الضرورات.

من هنا حزّت في نفسي كما لم يحدث لي من قبل مظاهرات بغداد وعمّان وبيروت التي هتفت بسقوطي بعد إعلاني قبول مشروع روجرز. ورغم أنني لم أكن أستطيع أن أشرح أسبابي كلها، إلا أنني قلت بلغة أقرب إلى الرمز: إن نسبة نجاح المشروع لا تتجاوز النصف في المائة، وأنه ليس مطلوباً من المقاومة الفلسطينية أن تقبل المشروع، بل لها كل الحق في معارضته.

ظننت أن هذا التلميح كان كافياً، خاصة وأن إسرائيل قد اشتكت غداة اليوم الأول من تنفيذ المرحلة الأولى للجدول الزمني أننا نقلنا الصواريخ في منتصف الليل. ولكن للأسف، بدا لي أن الأميركيين والإسرائيليين وحدهم هم الذين قبلوا بالتحدي والمناورة معاً فوحدوا صفوفهم كما لم يفعلوا من قبل، وتمكنوا من اختراق الصف العربي كما لم يفعلوا من قبل. ظننت في إحدى لحظات الحزن الثقيل والمرارة الكاوية بعمق الأعماق، أن رصيدي الوطني والقومي كاف لأن يلهم بعض القيادات العربية الصبر فضلاً عن طول النظر. خاصة وأنني شاهدت بعيني وسمعت بأذني الجماهير بعد الهزيمة، بعد قبولي للقرار (٢٤٢) وكيف

تؤيدني بحماس، ومشروع روجرز في أسوأ التفسيرات هو تطبيق إجرائي لذلك القرار، فلا جديد إذن. ولكن العدو استطاع التسلل من هذه الثغرة إلى صناعة أيلول الأسود.

كنت في مرسى مطروح، والأخبار الأولية عن الاشتباكات لا ترسم صورة واضحة لما يجري في الأردن. ولكن بعد ٤٨ ساعة اتضحت لي الصورة في كامل سوادها. وكان لا بد لي من التحرك السريع والعض على الجراح. غير أن الموضوع كله، كان يحتاج إلى معجزة، بل معجزات. معجزة لإخراج ياسر عرفات من عمان. معجزة للجمع بينه وبين الملك حسين. معجزة لجمع الاثنين مع القذافي. كان لا بد للمعجزات أن تكون عربية. أرسلت محمد أحمد صادق وأرسل بورقيبة الباهي الأدغم، وتوجه الاثنان مع النميري مرتين، ونجحت خطة إنقاذ عرفات. وباتت الحقائق كلها واضحة، وأصبح المطلوب فقط هو وقف النزف بأي ثمن. واستطعت بعد جهد مروع أن أجمع الكل في مكان واحد تحت سماء القاهرة وعلى مقربة من هذا البرج العظيم. ولم تبق سوى أيام لانتهاء المرحلة الأولى من الجدول الزمني نستأنف بعدها حرب الاستنزاف التي لن تطول حتى نشرع في حرب التحرير. أعددنا أنفسنا جيداً، عسكرياً ودبلوماسياً، محلياً اتفقت مع البغدادي والآخرين على الإصلاحات الضرورية ولم أبح قط بخطة ما بعد التحرير: الثورة الجديدة. كان السادات موقوفاً عن العمل ولا يحتاج أمره لغير كتابة قرار الإقالة مع قرار تعيين البغدادي.

وبدت لي الاجتماعات الأولى مع الملوك والرؤساء كما لو كانت محاورات طرشان كما يقول اللبنانيون، بل لعلها كانت محاورات الرصاص المكتوم في خواصر الحاضرين. حسين وعرفات والقذافي يحملون مسدساتهم، والملك فيصل يتطير قائلاً إننا نحتاج إلى مستشفى للأمراض العقلية.

غير أننا في خاتمة الخواتيم توصلنا إلى اتفاق. وبدأ الملوك والرؤساء ووفودهم، يغادرون ومعالم الإرهاق تبدو على وجوه الجميع. ورحت أودعهم واحداً واحداً، باستثناء القذافي الذي آثر أن يريحني بأن يسافر دون بروتوكول.

لم يعد هناك سوى أمير الكويت، بعدها سأعود لأضع قدمي في ماء دافىء مملح، ثم أنام طويلاً. ولعلي بعد إذاعة الإجراءات الجديدة أستطيع الحصول على إجازة قصيرة.

ولكني شعرت فجأة بالإرهاق وأنا في المطار أودع الأمير. كنت متدفق الحيوية والنشاط طيلة الأيام الثلاثة وليالي العذاب. ولكني الآن أشعر كأن الإرهاق كان مختزناً منذ عشرات السنين، وانفجر بغتة عرقاً متصبباً على الوجه وإعياء في مفاصل الساقين وآلاماً تدريجية في الصدر. ناديت على السيارة لتأخذني من جنب الطائرة على غير عادتي. تحركت الطائرة وموتور السيارة معاً. دخلت البيت فطلبت كوباً من عصير البرتقال واعتذرت عن الغداء مع

حفيدي جمال الذي وعدته بذلك. طلبت الدكتور الصاوي. جاء ثم طلب الآخرين. فجأة رأيت الغرفة مليئة بالوجوه. راح الأطباء يُدَلِّكُون الصدر وينفخون في الفم ويَشُكُّون بالإبر ذراعي. ارتحت قليلاً. بل أحسست كأنني استرددت العافية، فالتفت إلى الكومودينو، حيث الراديو الترانزستور. كانت الساعة حوالي الخامسة. أدرت المؤشر إلى محطة القاهرة.. الأخبار بعد قليل، سمعتها. ولم أسمع الخبر الوحيد الذي توقعت سماعه.

□ □ □

ملاحظات غير نهائية على البلاغ الثالث

«جنازة فاخرة كانت» قالها وهو يرمي صفحة الوفيات بنظرة ساخرة، فقد مضى العام الأول على انتحار محمود، ودفنت نهائياً شائعة قتله لسهى لتحل مكانها مجموعة هائلة من الشائعات حول أسباب انتحاره، بالرغم من الورقة التفصيلية التي تركها وفيها يروي كل شيء.

كان صديق أبي بعد سنة قد توقف عن النحول والضعف، وأصبح يشبه على حد قوله الانسان الآلي، أو التمثال المتحرك على حد قول عازر ونوال. أصبح الوجه كأنه عينان فقط تكثران من الحركة كلما أراد اللسان أن يؤكد شيئاً بالكلمات الضائعة في فضاء الفم بعد الغياب التدريجي السريع للأسنان. كان ما يزال مهتمًا بأمر محمود رغم مرور العام كما تقول «الذكرى» المنشورة في الجريدة. كان مشدوداً للتفاصيل الحاضرة والغائبة. جنازة فاخرة، يقول، ويحصي عدد الوزراء والكبراء والمدراء الذين ساروا خلف النعش الموشى بالحرير الأبيض، والكلام الكبير الذي تناثر بين أروقة السرادق المهيب في ليلة المأتم، والذي يبرهن على اتساع دائرة المعارف والأصدقاء واختلاف بيئاتهم الثقافية والاجتماعية اختلافاً شديداً، واتفاقهم رغم ذلك على شخص الميت وخصاله. استدار صاحبي استدارة تقاوم ضعف اللسان وتُحرك نشاط العينين قائلاً: كيف شاعت إذن حكاية أنه قتل سهى؟ لقد سرت في الجنازة بدافع الفضول، فشاهدت أصنافاً وأشكالاً وألواناً من البشر يستحيل جمعهم في مكان واحد وغالبيتهم في حالة تذكُّر أو تأثر على نحو مثير للتأمل. لن أنسى ذلك العامل المخضرم الذي كان يهمس في أذن آخر تبدو عليه النعمة: كان رفيقنا في يوم من الأيام، وكان يتبرع بمبالغ هائلة في صمت، وحين خرج من صفوفنا لم يخطىء في حق أحد. رحمه الله. في زاوية ثانية كان شيخ أزهري يسبح باسم الله وهو يخلع نظارته السميكة بين آونة وأخرى ليقول: رحمة الله عليك، يخيل إليّ أنه لم يكن مؤمناً مثلنا، ولكنه كان يؤدي الزكاة قبل مواعيدها.

وثالت احمرت عيناه من البكاء رغم وقار هندامه، قال بصوت مسموع: كان ضميراً قبل أن يكون قاضياً. فرد زميله بصوت خافت: ولا تنس أنه تعفف عن قبول المناصب رغم أنها عرضت عليه أكثر من مرة، ولا تنس أنه كأي جندي مجهول سهر الليالي في صياغة قوانين الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي، وليست المعاهدة التي تم توقيعها بحمد الله منذ أيام إلا من ثمار فكره المستنير في جوانبها القانونية.

وراح صاحبي يضرب كفاً بكف وهو يقول: بماذا تفسرين إذن تلك الشائعة التي اتهمته بالقتل اتهاماً كاد يصبح حكمًا من الرأي العام لولا انتحاره المفاجىء؟ وقد تضاربت في سرد سيرته الأقوال، فهناك من يؤكد أنه قريب أحد الضباط الأحرار، ولكنه دخل المعتقل عام ١٩٥٩. وهناك من يقول العكس إنه كان قريباً لباشا تقدمي، وكان هذا الباشا على علاقة خاصة ببعض الضباط الأحرار عام ١٩٤٩ وأن محمود أسهم بدور سري لا يعرفه أحد في حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩. ولكن المشكلة أننا الآن بعد عشر سنوات نحسبه على الفريق الذي اشتغل بتعبيد الطريق إلى المعاهدة المجنونة.

قلت له: لماذا تسميها المجنونة؟ كأن الزيارة إياها كانت عاقلة وكأن اتفاقيات كامب ديفيد كانت عاقلة. امسك بمعصمي ثم رفع يدي إلى فمه، وأخيراً قال بود محزون: إسمعي، ليس من شيء عاقل في عالم مجنون. قلت: ولكن الجنون يخفف العقوبة وأحياناً يلغي الجريمة. قال: ولكنه في كل الأحوال يستحق الاحتجاز في المصح وليس الجلوس على العرش. قلت: هل ترى أنها جريمة من النوع الذي يمكن تبريره بالجنون؟ قال وهو يمسك بساعدي ويحدق في عينـيّ بقوة: يا روح قلبي، لا تبرير لأية جريمة، ولكن ما رأيك في عشرات الألوف من الأيدي التي صفقت منذ أسبوع، ومنذ عام، ومنذ عامين؟ وإياك القول بأنها الأيدي المأجورة. قلت: وإياك القول بأنها الأيدي المجنونة، هل يمكن اتهام شعب كامل بالجنون؟ قال: أكرر كلماتي بالحرف، ليس من شيء عاقل في عالم مجنون. قلت: يبدو أنك جننت، وكأنك فعلاً تبرر الجريمة. قال: بالعكس، أريد أن أغوص في دمائها، أن أرى السرطان من داخل الخلية. الجريمة من هذا النوع ليست مرض فرد أو مؤامرة عصابة.

بدأت أنفاسي تتقطع وكأن أثقالاً بأحشائي راحت تشد أمعائي إلى أسفل، فاقترحت أن نستريح قليلاً في الاتيليه. كانت الرايات الفلسطينية تزين المدخل الخارجي لباب الحزب المواجه لنادي الفنانين والكتاب. وأحسست بشيء ما يحترق في عيني، ودلفت بصاحبي إلى القاعة الصغيرة التي لم يكن بها سوى حسين وإبراهيم وفهمي، هؤلاء الفنانين المنشغلين دائمًا بالرسم التجريدي وشرب الزبيب والغرام بالنساء. ثلاثتهم من

المعارضة، ولكنهم يختلفون اختلافاً واضحاً في الانتساب إليها. فهمي ينتمي إلى الحزب الوحيد الذي رفض الزيارة وكامب ديفيد والمعاهدة. إبراهيم وحسين لا ينتميان لأي حزب، ولكن إبراهيم يشعر بحنين خاص إلى الحزب الذي كان ينتمي إليه قبل حريق القاهرة منذ أكثر من ربع قرن. وإن تناقض هذا الحنين في صدره مع تأييد الحزب للمعاهدة. ويكتوي حسين، الأصغر سناً منهما، لكونه لا يعرف شيئاً عن الأحزاب ويرى في الوقت نفسه شيئاً كالجنون يمضي بالأحداث في طريق مجهولة.

بل معلومة، صرخ فهمي وهو يضحك ضحكته المجلجلة مرحِّباً بقدومنا قائلاً أن العَرَق اللبناني أفضل كثيراً من الأوزو اليوناني، فرد عليه حسين: والمسجوف العراقي أفضل من السمك الإيطالي. وكدنا لا نفهم لولا أن إبراهيم بدأ يذكرني. كان فهمي متزوجاً من يونانية خلال فترة إقامته القصيرة في أثينا ثم طلقها قبل عودته إلى الإسكندرية. فوق ظهر الباخرة غرق في غرام لبنانية هاربة من جحيم الحرب، وقد تزوجها بعد أسبوع واحد من وصولها القاهرة. وحسين أيضاً، كان على علاقة بفتاة إيطالية أثناء دراسته بالاكاديمية هناك، ولكنه أثناء زيارته لبعض أقاربه من الفلاحين العاملين في العراق أحب فتاة بغدادية وعاد إلى مصر متزوجاً. هذه هي حكاية الأوزو والمسجوف والعرق. وضحكنا.

قال فهمي ان زوجته لمياء في زيارة لأهلها، لذلك فهو يعاني الغربة مرتين، فالجنوب حيث تقيم أسرتها أصبح غابة مشتعلة. . ولم يكمل حين قاطعه حسين: كفاية وحياتك. قال صاحبي دون مناسبة: مر عام على محمود، من كان يصدق أن مثله ينتحر، ولهذا السبب الغريب الذي نشرته الصحف. قال إبراهيم إن ما نشرته الصحف كان بخط يده، وليس اجتهاداً. قلت: ولكنها حالة غريبة فعلاً، فالناس ينتحرون في العادة لأسباب فضائحية أو بدافع اليأس كالهرب من فضيحة أخلاقية أو سياسية أو مالية أو بسبب المرض إذا وصل بالمريض مرحلة العذاب بلا أمل في الشفاء. أما محمود، وفقاً لما نشر، فإن المرض الذي يتحدث عنه لم تظهر بوادره أصلاً، إنه مجرد تشخيص أولي أو تحليلات كما يقول أثبتت أن المرض موجود. ولكنه لم يصل بعد إلى مرحلة الخطر أو التهديد بالخطر. إنه قد يحتاج إلى العلاج وربما العلاج سراً لأن أحداً لم يلاحظ قط على محمود أنه مريض. ومن الغريب أن يختصر الأزمنة في لحظة ويقرر أن لا شفاء من هذا المرض ولا فائدة من العلاج والموت قادم لا محالة فلماذا الترقب والانتظار ولماذا الحياة في حضن هذا السر المعذب؟ تلك تقريباً كلماته أو معناها، ولعله أول مريض في التاريخ يستبق الزمن ويضع حداً لنتائج قد لا تقع.

قال حسين: والأغرب أنه لم يحدد صراحة هذا المرض، وبالرجوع إلى ملفاته الصحية لم يعثر أحد على جواب شاف، فهو قد أصيب بالأمراض العادية، ولكن ليست هناك إشارة

واحدة إلى مرض كالسرطان أو القلب أو ما شابه هذه الأمراض المخيفة. وبتشريح الجثة قالت التقارير ان ما ورد في الورقة المكتوبة ليس أكثر من وهم. هل معنى ذلك أنه كذب على الجميع ودفن سره معه؟ أم معناه أن طبيباً ما، مصحة ما، أخطأت الفحص أو خدعته، وما مصلحتها في ذلك؟

قال صاحبي: لا يمكن أن تكون الأمور على هذا النحو الهائل من الغموض والتعقيد، فالرجل لم يكن من الأهمية ــ سامحوني ــ لدرجة تستوجب هذه التساؤلات كلها. أقول ذلك رغم أنني شخصياً صاحب هذه التساؤلات. ولكني أردت فقط أن أستوثق من النتيجة التي أتخيل أنها الصحيحة، وهي أن محمود كان بالفعل مريضاً وأن مرضه لم يكن في الجسد بل في النفس. كان الشاب مجنوناً لا أكثر. وقد أدرك هذه الحقيقة في إحدى لحظات «العقل»، فانتحر على الفور، أي قبل أن يعاوده الجنون فينسى.

ذهل جميع الحاضرين من هذا الرأي الذي كان يدلي به صاحبه بجدية كاملة. وأفقنا من الذهول مع دخول عازر ونوال يدعوان الجميع لحضور فيلم تسجيلي عن حرب السويس تعرضه قاعة الحزب المواجه للأتيلييه. لم يكن الفيلم عن العدوان الثلاثي تماماً، وإنما كان تصويراً سينمائياً لفكرة الشاعر ناظم حكمت في قصيدته عن «منصور» التي نظمها بمناسبة معركة بورسعيد. ثم انتقل المخرج إلى عام الوحدة المصرية السورية في دمشق حيث حصل ــ بالمونتاج ــ على أهم أحداث السنوات الثلاث التي انتهت بالانفصال. ولم أفهم شخصياً العلاقة بين حرب السويس والوحدة فالانفصال. وهمست لصاحبي بأنني لم أفهم، وسمعت نوال ما همست به فقالت لي: عازر يؤكد أنهم اكتشفوا مخبأ نصحي وأنهم أخذوه من شقة سيدة فرنسية. ترى هل علمت إحسان؟ سألتها: هل فهمت الفيلم؟ قالت: لقد تم كل شيء بمحض الصدفة، فقد فتشوا شاباً فرنسياً مسافراً إلى باريس، فعثروا معه على أغاني نصحي وعنوان في الزمالك. ذهبوا معه إلى الشقة فوجدوا نصحي وهذه السيدة. سألتها: ما علاقة الحرب بالانفصال أو ما علاقة القناة بقتل فرج الله الحلو؟ هل فهمت شيئاً؟ قالت نوال: كانت زفة مثيرة، ترى هل علمت إحسان بما جرى؟ لو كانت سهى ما تزال حية، آه. سألتها: يقال أن الحلويات الشامية وسندويشات الشاورما هي كل ما تبقى من الوحدة في مصر. وسألتها أيضاً: يقال كذلك أن آباءنا وافقوا على الوحدة حتى تأتينا الديموقراطية من سوريا، وأن السوريين وافقوا على الوحدة خوفاً من الشيوعية، فماذا يريد الفيلم أن يقول؟ قالت نوال: المهم الآن أنهم أخذوا نصحي من شقة الفرنسية الشقراء التي أمروها وصديقها بالرحيل فوراً عن الديار المصرية، والأهم أن إحسان ربما لا تعرف الخبر. سألتها: صديق أبي يرى أن الجنون هو المسؤول عما جرى ويجري، وبالتالي فالجميع براءة بما فيهم محمود.

قالت نوال: أيام السويس كانت الدنيا مجنونة بحب مصر، ولكن الجنون الحالي يختلف. أنا مثلاً مجنونة بحب عازر، وهو مجنون بأكل الملوخيـة، وأنت مجنونة بدون سبب. قلت لها: خذوا الحكمة من فمي إذن، ولكن الفيلم ليس حكيمًا، فما علاقة.. قاطعتني نوال بغير همس: الضوء، الضوء، انتهى الفيلم من زمان ألا تصدقين؟ ولكنهم طردوا السيدة الفرنسية من البلاد مع صديقها، واعتقلوا نصحي، فماذا ستقول إحسان في الحكاية كلها؟

عازر بجانبي من الناحية الأخرى يقول لصاحبي: معك حق، فالجنون فنون، ولكني لا أوافقك فالجريمة ليست وجهة نظر، الجريمة واقعة مادية. رد عليه: فإذا أنكرت الأغلبية أن هناك جريمة ورأت أنه من الممكن أن تنتهي الحروب وتتحول السجون إلى حدائق وتمتلىء الأمعاء بأفخر أنواع الكعك. هل تصر أن هذه الأغلبية مخطئة أم مجنونة أم مجرمة؟

قال عازر: لن نختزل التاريخ في نكتة واصبر على هذه الأغلبية قليلاً فهي التي قالت كل شيء منذ عامين في يناير ١٩٧٧ لا تنس أبداً هذا التاريخ، فماذا حدث؟ أراد البعض أن يمحوا هذا التاريخ من الذاكرة بسلسلة جهنمية من الجرائم. قاطعه صاحبي: حذار أن تذكرني بما حدث ويحدث، وحذار أن تعظني في الوطنية، وحذار أن تفهمني خطأ. العالم مجنون صدقني.

انضممنا إلى الشلّة وهي تغادر القاعة المزينة بالرايات الفلسطينية على كافة الجدران، وما أن خرجنا إلى الشارع الصغير حتى بدأ الجميع يتفرقـون. قال فهمي: سأذهب وحيداً فالوحدة خير من جليس السوء. وقال حسين: أما أنا فسأعود للأتلييه. وتبعه إبراهيم.

لم تكن علاقتي بنوال حميمة في أي وقت، ولكنني لم أكرهها أبداً، غير أن عازر بصمته الطويل وكلامه القليل وبحبه لنوال وبعده عن السياسة، كان يجذبني إليه بقوة خفية. أحببت دائمًا أن أراه وأن أجالسه ولو تحملت في ذلك بعض مساوىء نوال. وبالقطع لم أفكر فيه مطلقاً أي تفكير خاص ولكنه بين المعارف كان شاباً ذكياً ولماحاً ولا يثير الملل. قلت له: خمدت الفتنة الطائفية، أليس كذلك؟ اندهش للسؤال وقال: في مصر فتنة، ولكن أين الطائفية؟ إنني لا أراها؟ قلت أنت تبالغ. أنت تكره الطائفية لأنك تحب نوال. قاطعني: لا شأن لنوال بالموضوع مطلقاً. كل ما في الأمر أن ما يسمى بالطائفية يظهر في أوقات معينة يمكن حسابها بالكمبيوتر، ما رأيك؟ سألته: حتى في لبنان؟ قال: حتى في لبنان، وحتى في ايرلندا.

قال: إسمعي، أنت تعرفين قصتي مع نوال، وكم من العراقيل وضعت في طريقنا، ولكن كيف انتصرنا؟ سأله صاحبي: هل تعتقد أنكما انتصرتما؟ قال عازر: ما رأيك أنت؟

قالت نوال: هل تسمعون الخبر؟ إنها النشرة، توقفوا قليلاً. كان المذيع يقول «بيان من وزارة الداخلية» ثم سرد قصة «تهريب الأغاني التي يقوم بها فرنسيان» وأن هذه الأغاني من شأنها «قلب نظام الحكم». ولم يعرف أحد المكان المقصود بقلب نظام الحكم وهل هو مصر أم فرنسا. ثم انتهى بلاغ وزارة الداخلية إلى القول «وأثناء ترحيل الفرنسي والفرنسية في مطار القاهرة أفلت كلب بوليسي يتبع شرطة أمن الدولة من السلسلة المقيد بها، فهجم على سيدة مصرية كانت تقف قريباً من قاعة المودعين، ولم يستطع أحد الاقتراب من الكلب الذي كان قد مزق السيدة المذكورة. وحين خف أحد الضباط إلى مكان الحادث كانت السيدة ــ وتدعى إحسان ــ قد فارقت الحياة».

□ □ □

موّال جبلي

□ لمن تقرأ مزاميرك يا داود؟

ـ للذين خلت قلوبهم من شمشون، وحين تسللت دليلة لتحلق رؤوسهم في ظلمة الليل الأحمر اكتشفت أنهم صُلْع.

□ أين تؤذِّن يا بلال؟

ـ في مالطة.

□ يا يسوع، كيف وافقت على أن تدهنك بالطيب هذه الساقطة، وأما كان الأفضل أن تعطي ثمنه للفقراء تكفيراً عن خطاياها؟

ـ الفقراء معكم طول الوقت، أما أنا فلا. هي الفقراء وأنتم الفقر. من منكم بلا حجر فليبحث من الآن عن حصاة أو صخرة. الحق أقول لكم إنني سأسهر معها حتى الصباح نشرب النبيذ المعتق ونمارس الموت القصير لنظفر بالحياة الأبدية. الحق أقول لكم إنكم سترمونني واحداً واحداً حجراً حجراً.

الأول سيسلمني إلى الشرطة، والثاني سينكرني أمامها، والثالث سيشك في انتصاري.. أما هي؛ ماذا أقول لكم؟ تعالوا إلى العشاء.

(١)

ـ يا سيدي

هذه إفادتي، بلاغي الأول والأخير.

تساوت الألوان منذ البدء، كل الأشياء كانت قد تساوت منذ البدء. كانت الأشكال والأصوات والروائح والمذاق والمحسوسات كلها قد تحولت إل ألوان. وتساوت الألوان فلم يعد هناك لون. كنت أبصر، كنت أشم، كنت أسمع، كنت أذوق، كنت ألمس، كنت أميز الأصفر من الأزرق، والزئير من الهدير، والناعم من الخشن، والأريج من النتن، والحلو

من المر. كنت طفلاً من أخطاب. اقرأ القرآن وشعر أبـي. وأعشق بنت الجيران. وأزور الموق. وأصافح الجن. وفي المساء أنال بركات أمي ودعاءها.

وفجأة تساوت المرئيات، أراها كأني لا أرى شيئاً. تساوت المسموعات، أنصت كأني لا أسمع شيئاً. تساوت الملموسات، أتحسس وكأني لا ألمس شيئاً. تساوت الروائح، أشم كأني لا أشم شيئاً. تساوت النكهات، أتذوق كأني لا أستطعم شيئاً. لم أكـن فقـدت حواسي الخمس، ولكنها لم تعد تصطاد شيئاً.

□ هل هذا كل ما تريد إفادتنا به، وقد ضيعت علـيّ موعد الحلاق؟ كنت أستعد للسير في جنازتك، فأيقظوني من صحوتي لأسجل أقوالك، ماذا تريد وقد فضحتنا حياً، هل من فضائح جديدة قبل دفنك؟

ــ يا سيدي النائب العام، المحامي العام، الرأي العام، العام العام، أراك مخدراً بدبيب النعاس، رغم أنك نمت الليلة مبكراً على غير عادتك. فماذا جرى؟

إنني شخصياً لم أوقظك. بل إنني شخصياً لست محتاجاً إليك ولم أطلبك. لقد جاءني سرفانتس على صهوة جواد عجوز يقول إن دون كيخوتة قد مات، ولكن طواحين الهواء ما زالت تلف وتدور. وجاءني شكسبير ليقول أن هاملت قد مات وفي وصيته يؤكد أن نكون أو لا نكون، ليست هي المسألة، وإنما تكمن المسألة في أن تاجر البندقية اقتطع كيلو اللحم من صدر انطونيو خالياً من العظم. وجاءني دوستويفسكي ليقول إنهم اكتشفوا بعد موته من قتل المسيح حين عاد إلى المدينة، وأن راسكالينكوف بريء من دم المرابية العجوز. وجاءني ماركس ليقول إن يوحنا المعمدان لم يجـد نهراً لائقاً بجده وجدته، لذلك لم تظهر حمامة الروح القدس في البيت الريفي للأسرة.

إنها أحداث خطيرة كما ترى، ولو صحت فسوف تنعكس نتائجها على جنازتي حتماً. ولما رأيتك منهمكاً في إعداد نفسك للتشييع، قلت إن من واجبـي إنقاذك. إنه تعبير عملي عن الشكر لنواياك نحو جثماني.

□ إنقاذي؟ وهل أنا النائب العام صرت متهماً، وأنت تدري أن موتك أنقذك فجأة من المحاكمة؟ بل وتأتي الأوامر العليا بتشييعك على هذا النحو المهيب، وكأنك أحد الوزراء لا أحد الشعراء.

ــ موتي أنقذني. من هنا نبدأ يا سيدي معاً كتابة المسرحية العظيمة: «الموت المنقذ». عندما ينقذ الموت إنساناً أوحيواناً أوحشرة، ألا يعني ذلك أن ما كان ينتظره في الحياة الدنيا أبشع من الموت؟ سؤالي الأول، على يد من؟ وسؤالي الثاني من هو صاحب القلب الرحيم الذي أمر بإنقاذي، ولماذا، ومن تطوع بالتنفيذ؟

□ اسألهم؟

ــ لقد فعلت، وقد نقلت إليك أجوبتهم واحداً واحداً.

□ أتقصد هؤلاء المجانين من أمثال سرفانتس وشكسبير ودوستويفسكي وماركس؟ إنهم مطلوبون مثلك للمحاكمة فهم معادون للسامية. ولقد طلبنا من الشرطة الدولية القبض عليهم.. ولكن الرشوة في هذا الزمان أصبحت لا تطاق. إنها ضد العدالة. أتركني الآن لاستعد للسير في جنازتك.

ــ أنا لا أمسك بك. والجنازة كما ترى رهن إشارتك بالتحرك. ولكنني أنصحك ألا تفعل، لأنك إن فعلت ستدفعهم لأن يضيفوا إلى قائمة اتهامك جريمة جديدة هي إخفاء الجثة قبل تشريحها والتحقيق في ظروف إنقاذي من الحياة.

□ من يتهمني؟ هل نسيت انني شخصياً ممثل الاتهام في هذا البلد؟

ــ ألا يمرض الطبيب يا سيدي؟ ثم لماذا تبالغ وتظن أنك وحدك المتهم أو ممثل الاتهام، وكأنك تصر على النجاة أو العقوبة بمفردك.

□ إسمع.. أنت معاد للسامية.. إذا كنت تريد قبل دفنك أن تساعد أصدقاءك من المجانين الهاربين، فإنني لوجه الله سأهمس لك بدفاع مجيد تم اكتشافه مؤخراً.. اختراع لم يتم تسجيله عالمياً بعد، وهو الفرق بين اليهودية والصهيونية. ليقل أصحابك أنهم ليسوا معادين للسامية، بل للصهيونية. أنت تعلم مثلاً انني كاثوليكي متعصب، ولكني أضع كما ترى نجمة داود في سلسلة ذهبية حول رقبتي.

ــ إنها مشنقتك.

□ يا مجنون، هل تعرف جاجارين، أول رائد فضاء؟ حين عاد إلى الأرض سأله خروشوف: هل رأيت الله؟ صمت جاجارين هنيهة فقال له خروشوف: أعرف إنك رأيته، ولكن لا تخبر أحداً بذلك. ثم قام الطيار بزيارة الفاتيكان، فسأله البابا: هل رأيته؟ وفهم جاجارين من يعني ولكنه صمت، فقال له البابا: أعرف أنك لم تره، غير أنني أوصيك ألا تخبر أحداً.

ــ أما أنا يا سيدي فقد رأيت وسمعت وتكلمت.

□ لذلك، كان لا بد أن ننقذك.

ــ أما أنا فكيف أنقذك، كيف؟

(٢)

□ أنت لم تحدثني أبداً يا أبي عن رحلتك الأولى، فكيف أفهمك وأنت..

– في رحلتي الأخيرة، أليس كذلك؟

□ . . . .

– بالعكس يا حبيبي، إنها رحلتي الأولى. رحلتي الـوحيدة. قبلها لم تكن رحلات. كان هناك أنت، حتى من قبل أن تولد. كان هناك أنت، حتى من قبل أن أولد. كنت بيتاً من الشعر بناه أبي من الحجر، وحاولت أن أبنيه من الياقوت. حين أخفقت في العثور على ياقوتة الوادي، هبت العاصفة وكادت تغرق قاربـي الصغير في طريقي إليك. جئتك لا أحمل فضة ولا ذهباً. قلبي وحده كان يصلي أنشودة الفجر. وجدتك في إهابها. بين رموش عينيها، في صوتها السري. أحببت ساشا وكرهت ستالين، لذلك كنت أنت. لم يكن الحب قصيدة ولا كانت الكراهية. كلاهما كان زلزالاً فصل النهر عن الصخر، فرأيت الوردة الوحيدة في إكليل من الشوك. رأيت ساشا تضمد الجرح الغائر بأناملك، ورأيت ماركس يخرج من الجرح متمتمًا بصوت مشروخ: يا عمال العالم سامحوني. ورأيتني أدخل جرحي ألعق الدم والصديد وأتقيأ الأغاني القديمة. كانت العاصفة السوداء تكاد تغرق أبا الهول الذي راح يتذكر الأيام الآتيـة. وكانت العاصفة الثلجية تكاد تخلع تمثال بوشكين الذي لم يذهب لتناول طعام العشاء. أما تشيكوف فكان يراقص أزاهير بستان الكرز، وبينما عفا القيصر عما سلف من دوستويفسكي، فإنه بحكم لم يصدره باسترناك أصبح معادياً للسامية.

□ يا أبـي، الناس من حولك يتابعون القراءة، فما حاجتك إلى معبد لتصلي.. لمن تخلع نعليك، ومن تثق به حتى يحضر القرعة على ثيابك؟

– يا حبيبي، ما حاجتي إلى النعل والثياب إذا كنت في المعبد وأصلي. هؤلاء الناس الذين تراهم يدمعون من الخوف والفرح والحزن واللهفة الكاوية والضنى اللذيذ، هم كفني وقبري، هم سجني وحراسي. إنهم أعمدة المعبد الذي حطمه شمشمون، ولكن الأعمدة باقية، ستبني بها معبداً أعظم.

لهذا السبب جئت بك من بين العـاصفتين. كنت أعرف أن سيزيف لم يزل معلقاً وأن بروميثيوس لم يزل مقيداً، ولكني جئت بك.

كانوا يدرون أنني قد شفيت للأبد، فلم أعد أرى أنصاف الألوان وأنصاف الأحجام وأنصاف الفراغات وأنصاف الضياء وأنصاف الظلال. أصبحت أرى كل شيء والشيء كله. ولم أعد مقبولاً في مدن العين الواحدة. وكان من الطبيعي ألا أكون مقبولاً في مدن أنصاف العينين.

قلت، فـلأوزع عليهم مجاناً نظارات محلية من صنع أدهم وياسين وبهية، لأوكد لهم فقط أن ضعف النظر ليس عاهة، ولكنهم أعادوها لي قائلين «كلّك نظر، لسنا بحاجة إليها،

أنت تحتاج إلى نظارات شمس». قلت لهم: بنظاراتكم أرى الرجل امرأة، والعقرب عصفوراً، والأسفل أعلى، واليسار يميناً. إنني لا أملك سوى عيني وقد ولدت بهما موجوعتين ولكن دون نظارات. وقد تماثلتا للشفاء بعد ربع قرن. وها أنذا أرى دون وسيط، أحياناً ما لا ترون، وأحياناً ما لا ترونه جيداً.

□ إسمح لي يا أبي فقد أخطأت. كان عليك أن ترى ولا تقول إنك رأيت، فلا أحد يحب المعايرة بضعف النظر.

ـ يا شهدي، هل تصدق؟ حين رأيت للمرة الأولى، بدأت تلقائياً أسمع جيداً للمرة الأولى، وحين سمعت وجدتني أنطق جيداً للمرة الأولى. لا. لم يكن الأمر بيدي. كان الأمر واقعاً في ذلك الرباط بين العين والأذن واللسان، بحيث أنني حين أرى وأسمع أتكلم دون أن أدري. من رأى عليه أن يتكلم. الأعمى هو الأخرس أيضاً.

□ ولكنهم يشيعون في كل مكان انك أنت يا أبي الذي فقدت البصر. ولذلك فهم يرسلونك بين الحين والآخر إلى مستشفى العيون كما يسمونها أو جزيرة العميان كما يسميها الآخرون. وهناك كما قلت لي يضعون اللفافات السوداء على عيونكم ويضعونكم في غرف لا يدخلها الضوء، وقد طليت الجدران والأشجار والأطعمة والبشر باللون الأسود. وذلك كله حتى تعتادوا العمى وحين تخرجون من المستشفى لا ترون بغير عين واحدة أو بنصفي العينين. ألم تقل لي ذلك، حتى أن بعضاً من أصدقائك يتصورون فعلاً أنك لم تعد ترى جيداً. وحسب نظريتك، وبالعد التنازلي، فأنت لا تسمع جيداً، ولا تنطق، كما كنت من قبل.

ـ لا يا بني، ليس الأمر هكذا على وجه التمام، ففي جزيرة العميان أو الطرش أو الخرس كما تريد، وجدت الناس يبصرون ويسمعون ويتكلمون بما لم يره أحد وما لم يسمعه أحد وما لم يخطر على قلب بشر من الذين يحبون الله ويكرهون يهوه، يحبون النجم القطبي ويكرهون نجمة داود، ويحبون ساشا كورساكوفا ويكرهون ستالين الكبير والوسط والصغير.

وهل تظن يا شهدي أن جزيرة العميان هي مستشفى العيون وحدها، ماذا يقول أخوك فريد إذن عن أولئك الذين أؤمهم للصلاة كل مساء في الشوارع المزدحمة والمقاهي الفارغة والبارات المضاءة والصالات المظلمة؟

□ لقد تذكرت الآن يا أبي أن أسألك، هل هؤلاء هم الذين يحتاجون إليك، وهل هذه الأماكن جديرة بصلاتك؟

ـ لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. والآن أخرج منديلك لنجمع من أياديهم

القروش الحلال والقروش الحرام ولنذهب بعدها إلى أكبر اللصوص لنشتري العشاء والنبيذ فنرد الحرام إلى أصحابه، أما الحلال فسوف تعطونه لحفار القبور.

(٣)

ـ أيها الجندي المجهول كنقاد الأدب، تصنع التماثيل للجميع وينساك الجميع. أما أنا فلن أنساك أبداً.

وأين وجه الشبه بين التمثال والقبر، تسألني ربما، ولن أجيب، فالقبر تمثال بطريقة أخرى، والحفر نحت.

جئتك بمفردي وقبل الموعد، لأعقد معك صفقة العمر الطويل. اعطني وثائقك السرية، أعطيك وثائقي العلنية. أراك تبتسم، تضحك، تقهقه، عظيم، أعطني وثائقك العلنية، أعطيك وثائقي السرية. أراك تتجهم، تغضب، تبكي، عظيم. أنت الخاسر، فلقد أردت قبل أن تنهمك في نحت تمثالي أو حفر قبري، أن نتبادل أوراق الاعتماد، طالما أننا سنكون على اتصال لبعض الوقت. غير أنك في حالة تسمح لك باستغلال ما سأعطيه لك، بينما كما تعلم أنا لست في حال يسمح لي باستغلال ما يمكن أن تعطيه لي. كنت سآخذه منك للذكرى ولتزجية وقت الفراغ الذي ينتظرني. أكره الملل من ناحية ومن ناحية أخرى أخشى إذا لم نتبادل الوثائق أن تجد نفسك فجأة وبلا مناسبة متهمًا في قضية إنقاذي من الحياة. وهي قضية كما يجب أن تفهم تشغل بال الرأي العام العالمي هذه الأيام وتهدد بإشعال الحرب الأخيرة. وأنا شخصياً لا أضمر لك سوى كل تقدير وإعجاب بصبرك اللامحدود وإخلاصك لمهنتك لدرجة الاستشهاد أحياناً. لا. لا أحبك. ولكني معجب بك، وأشفق عليك من نهاية غير ملائمة لكفاحك المجيد. إذن، أجب عن أسئلتي بالوثائق المتوفرة لديك: متى وكيف وأين حفرت قبور عوض وعوضين وعوضات من فلاحي قرية كمشيش؟ متى وكيف وأين حفرت قبور حسن وحسنين وحسنات من عمال مصنع الغزل والنسيج بكفر الدوار؟ متى وكيف وأين حفرت قبور علي وعليان وعليات من طلاب جامعة هليوبولس؟ متى وأين وكيف حفرت قبور محمد ومحمدين من كتاب وأدباء جريدة أبو الهول؟ متى وأين وكيف حفرت قبور حليم وحليمة وسعد وسعدية ونعيم ونعيمة من سكان نجع حمادي؟ متى وأين وكيف حفرت قبور عبدالحكيم وعبدالمسيح وعبدالرسول من تلاميذ مدرسة بحر البقر؟ متى وأين وكيف حفرت قبور فؤادات وعنايات وفرات من سكان السويس؟ ورشدي وعبدالقوي وإبراهيم من صيادي بحيرة المنزلة و. . .

□ يا رجل، ألا تستحي، من أنت أولاً، هل أنت بهلوان في سيرك الفلاح الفصيح؟

ــ إحترم نفسك، فقد نصبح أصدقاء، وقد تنجو بجلدك من قرار الاتهام.. لدي أسئلة إضافية حول الظروف التي قد تكون على علم بها أو تصادف أنك عرفتها حول مصرع المذكورين أو شنقهم أو قتلهم بالسم أو التعذيب حتى الموت أو...

□ يا رجل، استح.

ــ وإذا لم أستح أفعل ما أشاء. إنني أنتظر جواباً شافياً عن اتفاقنا، وإلا فإنني مضطر لعدم إتمام الجنازة. وفي هذه الحال فسوف يستجوبونك حتمًا، هؤلاء الذين تخافهم، وتصبح أنت البريء براءة قيافا من دم المسيح متهمًا بقتل سيدنا يوسف بدلاً من الذئب. ولربما يطول التحقيق فيتبين أنك قتلت موسى أيضاً.. فاحذر، لأنهم جمعوا الآن «كتاب الموتى» وشكاوى «الفلاح الفصيح» وأبو الهول لا عمل له سوى تذكر الأيام الآتية. إحذر، فأنت متهم أيضاً بأنك نزعت نجمة داود عن قبر السيد البدوي وإنك قلت بصوت عال: هذا تزوير، لأن السيد لم يحب الليل في حياته ولا النجوم السداسية بعد مماته. إحذر، فما زال إخوتي أدهم وياسين وبهية أحياء يرزقون، وأعمدة المعبد الذي حطمه شمشون ما زالت باقية وأنا ــ حتى لا تنسى ــ إسمي نجيب سرور.

□ □ □

شبهات بخيلة وأدلّة كريمة

لم تكن المرة الأولى التي أرتدي فيها السواد، ولكنها المرة الأولى التي أرى فيها هذا اللون يضم أعضائي في حنان جميل. وكانت المرة الأولى كذلك التي أزور فيها بيته يافعة ناضجة أعي ما حولي، فلربما أكون قد زرته في الماضي برفقة أبي حين كنت طفلة، لست متأكدة على وجه اليقين. ولكني أزوره الآن وقد أصبح بيني وبينه تاريخ لا يتعلق بصداقته لأبي من قريب أو بعيد.

لم أشعر ذات يوم أن له عائلة لأنه لم يتزوج، فقد ارتبطت الحياة العائلية في خيالي بأضيق دوائرها أي بالأب والأم والأطفال. ذلك انني لم أعرف الدائرة الأوسع من الأعمام والأخوال والعمات والخالات. بالتأكيد كان لي أقارب سواء من جهة أمي أو من جهة أبي، ولكن حياة أمثالنا لا تسمح بقيام العلاقات الحميمة معهم. لذلك فوجئت حين دخلت بيته وفي ذهني انه سيكون خالياً إلّا من أعز الأصدقاء وأقرب الزملاء والمعارف، فإذا بأقاربه من الرجال والنساء يشكلون عائلة كبيرة بعضها أقبل من الصعيد والبعض الآخر من الوجه البحري. وكان هو في إحدى الغرف التي يدخلها القليلون بين وقت وآخر. ولم أعرف ما إذا كان مطلوباً مني أن أدخل أو أستأذن في الدخول ام انه ليس من التقاليد أن يطلب مني أحد هذا الأمر، كما انه ليس من المعتاد أن أطلب أنا ذلك. كل ما أدريه انني حين دخلت وهممت بالجلوس في القاعة الرئيسية التي غصَّت بوجوه لا أعرفها، جاءني من يأخذني برفق ودهشة إلى غرفة مجاورة امتلأت عن آخرها بالنساء.

وكانت هذه أول حركة غير مريحة بالنسبة لي. كنت واثقة أيضاً انني معروفة للجميع وانهم سيستقبلونني بالترحيب على نحو ما، لا كصحفية لامعة، وإنما كصديقة له، وقد أثارني لحد التمزق أن أحداً لم يبد اهتماماً خاصاً بي، وانني وسط النساء اللواتي ارتدين أحلك درجات اللون الأسود وجدتني غريبة ومستغربة، وسرعان ما حاصرتني علامات الاستفهام في العيون

والأنوف والشفاه والخدود، كأن الوجوه المحيطة بـي تجمهرت في مظاهرة صامتة تستفسر عمن أكون ولماذا أنا هنا.

واقتحمتني عدة مشاعر في وقت واحد، كالشعور بالذنب والشعور بالعظمة والشعور بالتعب. لا أدري لماذا كنت موقنة من انه تكلم عني أمامهم وانهم بالتالي يعرفونني بل ويحبونني وانهم كانوا ينتظرونني بلا أدنى شك.

وكنت في هذا الوقت كما تعلمون قد تعرفت على الفنان المسجون وبدأت البحث عن شلبية وأية معلومات عن عوضين أو إسماعيل المهدوي. وإنني لم أعد لامعة كصحفية مما حزّ في نفسي كثيراً أن «أنطفىء» هكذا أمام هذا الجمع الغفير الذي يراني لأول مرة. ورحت أتناسى وجودي في تفحص الغرفة وسقفها العالي، فإذا بـي أمام مهرجان آخر لم أكن لاحظته عند دخولي. كانت هناك ملصقات غير منسجمة الألوان والأحجام والأشكال. بعضها مرسوم بريشة بعض الفنانين المعروفين والمجهولين، والبعض الآخر صفحات مقصوصة من الصحف والمجلات، بعضها لوجوه مألوفة وأخرى توارت بعيداً عن تلافيف الذاكرة وبعضها لمشاهد حاضرة داخل الذاكرة وخارجها.

كانت أكبر مجموعة من هذه الصورة قد أخذت مكانها على الحائط المقابل للعين مباشرة في مواجهة باب الغرفة. ولما كنت أجلس في الزاوية اليمنى بجانب الباب، فقد اتيح لي أن أتأمل هذه العمامة الضخمة التي يتميز بها محمد علي والحصان المتوثب الذي يمتطيه ابنه إبراهيم باشا، بعدها كانت هناك «لوحة» ضخمة في الوسط أكبر منها في الطول والعرض، تذكرك بصعوبة بالغة ان الرسام قصد أن يصور أحمد عرابـي، ثم تعود اللوحات إلى الحجم السابق فهذا مصطفى كامل واقفاً في صورة فوتوغرافية، وهذا سعد زغلول جالساً في خطوط بالألوان، وهذا مصطفى النحاس في إطار من الورق المقوى، ثم تبرز على الفور صورة كبيرة جداً لجمال عبدالناصر، ليست هي الصورة الرسمية المتعارف عليها بل هي صورته وهو يلعب الشطرنج ساهماً في تخيل الحركة المقبلة. وضبطت شفتي تتحركان في صمت:

«ـ إذن، أنت تشتغل بالتنقيب؟

□ ولكن ثمة فرقاً بين التنقيب عن الآثار والتنقيب عن النفط.

ـ هل تعني أن المستقبل أهم من التاريخ؟

□ المستقبل جزء من التاريخ. ليس صحيحاً ان الماضي هو التاريخ. إننا نحيا التاريخ في الحاضر أيضاً.

ـ ونموته كذلك».

ربما كانت هذه الكلمات هي آخر ما تم بيننا من «تفلسف».. توقفت شفتاي عن

الحركة الصامتة، وقد استأنفت عيناي مطالعة الحائط المواجه لي. بدأ الشريط بصورة لحرب السويس تجاورها صورة لعبدالناصر في شرفة قصر الضيافة بدمشق تتلوها صورة مكبرة للسد العالي في أسوان فصورة رابعة لخطاب التنحي الشهير وخامسة لعبدالمنعم رياض وقد كتب تحتها بخط واضح «شهيد حرب الاستنزاف». وكانت الصورة السادسة لمجموعة الملوك والرؤساء في قمة أيلول ــ سبتمبر ١٩٧٠، ولم يكن من الصعب أن أتعرف في الصورة الأخيرة على جنازة جمال عبدالناصر. صورة عمرها عشر سنوات تماماً. ولم يكن من الصعب كذلك أن أرى شفتيّ أمامي تتحركان في بقعة فضية مضيئة تشبه الدائرة:

«ــ ليس المهم أن نسأل كم مضى من الزمن، فالأهم ماذا بقي منه؟

□ هل بقي شيء؟

ــ الزمن لا ينتهي

□ ولا الموت.. فمن ينتصر؟

ــ ليس من صراع بينهما فهما توأم.

□ والحياة؟

ــ انها الموت الآخر».

كأني أسمع صوته أو صوتي أو كأنه صوتنا المتداخل. والصورة الأخيرة التي أراها لجمال عبدالناصر تتبدل كلما نظرت إليها من الملامح القاسية الحزينة إلى السمات الحانية المكسورة إلى الفرح المؤجل وراء الأفق. والجنازة كانت منذ عشر سنوات. سبق أبي بأقل من شهرين. واستمرت الجنازة عشر سنوات، هكذا كان يقول لي بالأمس القريب، فماذا جرى حتى ان العيون والمخالب تعريني لمجرد انني أتيت إلى هنا، أتيت إليه، فهل أخطأت العنوان؟ أليس هو نفسه الذي بداخل الغرفة؟ فلماذا يحرمونني منه، أو يحرمونه مني أو يحرموننا من بعضنا. لهفة يشوبها الجزع وقفت بحلقي كشوكة، وهم يطردونني تقريباً، فقد أزف موعد خروجه على أعناق الرجال.

ويبدو انني كنت ألهث في توتر بالغ أثناء خروجي حتى إنني كدت أصطدم بعازر دون أن أراه. وحين رآني على هذا النحو لم يكمل طريقه، بل أمسك بي وكأنني على وشك السقوط، فهمت انه دائخ منذ الصباح وانه قرأ الخبر في الجريدة فازداد دوخاناً ولكنه أصر على حضور الجنازة. توقف عازر لحظة عن الكلام ثم قال: غريبة هذه الدنيا، منذ عشر سنوات لم أصر على حضور جنازة عبدالناصر ولكني وجدت نفسي فيها من البداية إلى النهاية، واليوم أصررت على حضور جنازة الرجل الذي لا أعرفه جيداً وهاأنذا قريب من بيته ولكني لن أذهب. الحق أني جئت إكراماً لك أنت، فأنا لا أعرفه جيدا، ولا أعرف أني سأراك هنا،

ولا أعرف انك ستعرفين يوماً انني شيعته من أجلك. لذلك لم تعد ثمة ضرورة لذهابـي، وسأبقى معك. ربما تلحق بنا نوال في الويمبـي، فأنا جائع، وأنت؟ لم أجب. كان رأسي يدور، وأريد الجلوس بأي ثمن، في تاكسي في مقهى في الشارع لا يهم. أنت لم تصر على حضور جنازة عبدالناصر ولكنك حضرتها، أما أنا فكنت في واد آخـر. أربعون يوماً كانت قد مرت على وفاة أبـي. بالكاد كنا نجد الخبز ولا نصر على حضور الجنازات. ومنذ أسبوع واحد كدنا نفقد فتحي المحلاوي شقيق نصحي المغني لأنه أصر مع زملائه في فرقة التمثيل على الدفاع عن خشبة المسرح الواقعة في البناء الذي استأجرته الحكومة لشركة النجمة. لم نفقد فتحي، أما صاحبـي فمات اليوم فجراً، لم يقل لأحد ولا لي انه سيموت، ولكنه سمع من الإذاعة وربما قرأ في الصحف، انهم سيعلِّقون اليوم شعار النجمة على جزء من واجهة المسرح.

هو الآخر لا يصر على حضور الجنازة، قلت لعازر وأنا أضع نفسي في المقعد وكأنني أريد أن أنام. وكان فتحي الذي رأيته في الواقع مرتين من قبل هو الذي أيقظني بينما كان عازر قد أطال حديثه التليفوني مع نوال وحديثه الآخر مع الجرسون. وكانت المرة الأولى التي يتعرف فيها عازر على فتحي، فطلب من الجرسون أن يضيف على الحساب مشروباً آخر. ولم يمكث عازر طويلاً، قال لنا: آسف، لأن نوال لن تستطيع المجـيء وستتوجه إلى البيت مباشرة، لدينا دعوة في المساء لحضور زفاف أحد أقاربـي في كنيسة شبرا. ولقد طلبت من نوال أن تدعو بعض أقاربها لمشاهدة الاكليل. وبالطبع فأنتم جميعاً مدعوون. باسم العريس والعروس أدعوكم. ستكون ليلة جميلة تبرهن لأعداء الهلال والصليب أن الدين لله والوطن للجميع.

كدت أشعر بنغمة حماسية مخيفة في كلام عازر، كأنه غير واثق مما يقول، غير متأكد.. كان صوته مغموساً في الشك وحركاته المهمومة تنشد اليقين. خاصة وان الحوادث التي تتالت لم تتح له مع نوال شهراً واحداً من الاستقرار الحقيقي. كانت هي التي أقبلت عليه مرعوبة من المشهد الذي رأت بعضه بنفسها، عندما تحرش ثلاثة شباب بفتاة مع خطيبها، ولما حاول التدخل ضربوه وخطفوا الفتاة. اغتصبها الثلاثة واحداً واحداً ثم ألقوا بها في الطريق العام بعد يومين. وكانت هي التي أخبرته بنتيجة الإحصاء الذي وقع بين يديها عن الهرب اليومي للمراهقين والمراهقات وقد بلغ ألف فتى وفتاة حتى هذا الشهر من هذا العام. وكانت هي التي نقلت إليه أن الشرطة اعتقلت رجلاً وامرأة يمارسان الحب في مكان قصي تحجبه الأشجار، فإذا بالرجل والمرأة يثبتان انهما زوجان بلا مسكن، ولكن الشرطي بدوره أثبت أنه ضبطهما متلبسين بالفعل الفاضح. كانت هي دائمًا التي تنقل إليه هذه الحوادث اليومية دون

تعليق ولكن بفزع خفي. أما عازر فرغم الأهوال التي كان يعانيها في صمت وخجل أحياناً، ورغم الأحداث الكابوسية التي تقتحم حياته يومياً من أوسع الأبواب، لم يكن ينقل إليها أي خبر مثير على الاطلاق. كان يخشى عليها وعلى علاقته بها أكثر من خشيته الموت. لذلك فعندما جاءت تروي له يوماً ما يتردد من أقاويل وحكايات طائفية، أجابها بانفعال وحسم: نوال، لا تصدقي كل ما يقال، لا تفتحي أذنيك لأهل السوء. وعندما خرجت الأقاويل من باب الحكايات إلى الأزقة والحواري والشوارع والساحات العامة والصحف والاذاعات ووكالات الأنباء، واضطربت نوال كما لم تضطرب في حياتها، قال لها عازر: اسمعي، اسمعيني جيداً، اسمعيني مرة واحدة وللأبد، مصر تحتاج لثقتنا وقت الشدة، النار تحت الرماد وفوق الرماد منذ عشر سنوات، أشعلها ثلاثة في مصر وفي لبنان وفي كل مكان بطرق مختلفة.. الحكومة والصهاينة والأمريكان. أما أهلنا، أما مصر، فلا تشكين في ذرة من ترابها أو في نسمة من هواها. يا هوايا.

كان فتحي يسمعني ساهماً لا يستفسر عن أي تفصيلة. وكان وجهه يكاد يكون نسخة مصغرة أكثر شباباً من وجه نصحي، ولكني لا أدري لماذا أرى في هذا الوجه الوسيم كل معالم الحزن والجدية. وبالرغم من انه يشترك مع نصحي في محبة الفن إلّا انه اختار المسرح بالذات مجالاً للعشق. سألته عن أخبار نصحي فأجاب بما أعرفه، فهو يمضي مدة العقوبة المقررة منذ حكمت عليه المحكمة أحكامها المتفرقة بحيثياتها المتعددة سواء عن أغانيه القديمة أو الجديدة أو أغنيته التي قلد فيها صوت «العم». ضحكت لأنني تذكرت الأغنية وأسلوب أداء نصحي في تقليد «العم». التفت فتحي ناحيتي قائلاً: ما رأيك في نصحي؟ قلت: فنان رائع وفي السياسة مناضل وطني. هز رأسه وهو يقول: ولكنه بموت إحسان تحول إلى إنسان آخر لا أعرفه، لم نعرف قيمة إحسان في حياته إلّا بعد غيابها هكذا فجأة وبلا معنى. نحن أنفسنا لم نعرف اننا نحب إحسان إلّا بعد أن اختفت. أصبح نصحي عدمياً أو فوضوياً كما يقولون، والحق انني لا أفهم هذه المصطلحات ولا جدواها. لن أقارن بيني وبين أخي ولا بيني وبين أي إنسان آخر، ولكني أعتقد انني أحب النبي محمد وصلاح الدين الأيوبي وجمال عبدالناصر، ولا أحاول أن أسمي هذا الحب شيئاً آخر غير الذي أفعله في المسرح. لست على استعداد لأن أدافع وأشرح لماذا أحب هؤلاء الثلاثة ولكني أحبهم، ولذلك أحب المسرح. ربما لا يكون لهذا الكلام معنى، فليكن. ولكن المسرح هو كل شيء في حياتي. وبالمناسبة فإنني الآن يجب أن أذهب إلى المسرح فهل تأتين معي؟

لم يذكر أبداً «بطولته» في الدفاع عن الخشبة ضد الحكومة التي أرادت تأجيرها لشركة النجمة. وهي النجمة التي يرسمها الشباب ليلاً على الجدران من مثلثين يتوسطهما الصليب

المعقوف. ولكنه قال: ها هو ذا العام يمر والنجمة الملعونة تجرح عيونك يا قاهرة. يا قاهرة. هل تعرفين أمي؟ كلكم تسمونها أم نصحي ولا تعرفون اسمها الحقيقي. ربما كانت المرأة الوحيدة في مصر التي تسمى «قاهرة». وأختي ولدت في الإسكندرية وكان اسمها اسكندرة. هل تأتين معي إلى المسرح؟ إننا لم نستقر بعد على المسرحية. بعضهم متحمس لسارتر ويحبذ تمثيل «الذباب» ودوري طبعاً هو أوريست، وبعضهم متحمس لشكسبير ويحبذ تمثيل «هملت» أمير الدانيمرك حيث أقوم بتأدية دوره. وبعضهم أكثر حماساً لأسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس وست في الأدب المصري القديم. سألني: هل ثمة ما يجمع بين هذه الأعمال الثلاثة؟ ترددت قليلاً ثم قلت: لا أعرف. قال: بل تعرفين أن أوريست صمم على قتل الأم، أما هاملت وحورس، فكلاهما قرر أن يقتل عمه لأن هذا العم قتل الأب طمعاً في الأم. أليس كذلك؟ مشدوهة، قلت: هذا صحيح، ولكني لم أنتبه. قال بل لا بد أن تنتبهي لأنه على قتل العم يترتب الكثير. إنني شخصياً أحبذ مسرحية إيزيس لأن مقتل العم الشرير ست أكثر أهمية من مقتل العم لدى الآخرين.

شغلتني صفة «أكثر أهمية» التي أطلقها على العم المصري القديم، وكنا قد وصلنا إلى المسرح. هذه دنياي الحقيقية، قالها فتحي وهو يطالع وجوه زملائه وزميلاته والستائر والجدران والمصابيح الكبيرة والملابس المسرحية، ويهمس لي بصوت غريب: لا بد أن نقتله، شعاع ملون بالأزرق والأحمر يلتهب بعينيه ويخترق صوته: لا بد من قتله. أضع يدي على خده الساخن قليلاً، وأقول: لا تنس نفسك، لا تندمج، أنت ممثل جيد يعيبك الانفعال. أنت في أول الطريق، في بداية البداية. يقول لي: وكلنا كذلك.

يذهب ويعود، يذهب ويعود، ويكمل الحديث كأنه لم ينقطع، حتى إذا انتهت المشاغبات يقترح أن أبيت الليلة في المسرح، فهو لن يعود إلى المنزل. في المسرح يمكن المبيت وشرب البيرة المثلجة. وأتذكر الذي مات فجر اليوم، والذي مات بعد ظهر اليوم منذ عشر سنوات. وألمح عيني فتحي كأنها على وشك البكاء. في صمته حنان مثير. يصعقك صراخه في الحوار، ووداعته وهو لا يتكلم. لا أرفع يدي من فوق خده الدافىء لدرجة الحزن. منذ أسبوع كاد أن يدفع حياته ثمناً لهذا المكان. رفض أن ترتفع راية النجمة من فوقه. رفض الآلاف الخمسة التي عرضت عليه سراً، لم يخف من الغرفة الخامسة تحت الأرض في سرايا التعذيب السري. ولا أرفع يدي من فوق عنقه الحار المبلل بالعرق، أجففه بأصابعي وشفتي وأغوص معه في الفراش الملقى على أرض الغرفة دون قصد أو تنسيق.

ولم أتركه إلّا وأنفاسه تتردد مع وجه صديقي المفاجىء وراء الأسوار. وكنت الملم ثيابي وشعري حين التقطت من نشرة الأخبار الأخيرة البعيدة ما يثير الكوامن ويهيج

الكوابيس. الدم بين الجبال والوديان. الدم في لبنان. من عمّان إلى بيروت عشر سنوات مضت، ولم ينته نهر الدم الفلسطيني اللبناني السوري المصري العراقي المغربي، الدم، الدم، الدم.

والخبر المحلي صغير صغير، «حادث مؤسف» ـ يقول المذيع ـ وقع في إحدى الكنائس بشبرا أثناء حفل زفاف، إذ انفجرت قنبلة قتلت ثلاثة رجال هم محمد يسري وعازر جرجس وإسماعيل حمدي، وجرحت ستين من المدعوين مسيحيين ومسلمين. أقامت النيابة الدعوة ضد مجهول. في الشارع إلى بيتي كانت عيناي تمطران وجعاً من الأحشاء واختناقاً في قاع القلب.

□ □ □

موّال بدوي

(١)

بعد تسعة أشهر على رحيلي، أراك قادماً إليّ من هناك، حيث ما زالوا «يعيشون» تلك الحياة التي فررنا منها بجلودنا، وإن لم نهرب. فلا أنا هربت، ولا أنت. إن الفرار بالجلد، ليس هرباً. لعل أكثر الهاربين ما زالوا هناك «يعيشون» تلك الحياة التي أدركت أنت في وقت مبكر، وأنا في وقت متأخر، أنها الموت الحقيقي.

وحتى لا أبدو غامضاً ـ كما يقولون عن شعري ـ دعني أوضح لك أولاً من هم.

إنهم أولئك الذين تركهم صلاح الدين منذ حوالي ثمانية قرون. تركهم يخلفونه والدولة العربية الموحدة تمتد رقعتها من برقة غرباً إلى نهر دجلة شرقاً، تلك الدولة العظيمة التي قهرت الصليبيين.

كان ذلك منذ ثمانية قرون.

وربما تستهوي الذكرى غيري، فيقول أنه أيضاً تاريخ سقوط غرناطة.

لا. لست أحدثك عن الأندلس. وإن كان سقوط الأندلس هو البداية التي لم تنته بسقوط فلسطين. ولكنني أحدثك عن دولة العرب الواحدة، لا عن امبراطورية الإسلام.

دولة العرب الواحدة هذه هي التي تجلت عنها الرؤيا في شبابي. ولم ينبثق نورها من القلب دفعة واحدة. كانت «سوريا الطبيعية» هي كل مناي، وكل أحلامي. نشأت في أسرة مسيحية وحزب علماني يرى وحدة ديار الشام في مواجهة الغزاة من كل صوب. وكانت «القومية السورية» تشعرني بالزهو أنا الجبلي اللبناني، بأنني لست ابن ضيعة، وإنما ابن وطن كبير يتسع ليشمل ابن حيفا وابن نابلس وابن طرابلس وابن اللاذقية وابن بيروت.

وكنت في صباي شديد النهم للقراءة، فأرهفت السمع للعربية التي خلبت لبي كما لم تفعل لغة غيرها. وفرحت أيما فرح حين علمت أن آبائي وأجدادي من السوريين

واللبنانيين قد حافظوا على هذه اللغة الرائعة في شعرهم ونثرهم، في مدارسهم وجامعاتهم، في مؤلفاتهم ومحاضراتهم، في رواياتهم ومسرحياتهم وموسوعاتهم. ومنذ ذلك الحين رحت أتساءل بعقل غض عن تلك العلاقة التي يمكن أن تجمع بين «الأمة السورية واللغة العربية». ومنذ ذلك الوقت أيضاً تبلورت فلسطين في خلايا دمي إيماناً يعتصر كياني بالحب.

لم تكن هناك دولة العرب الواحدة في ذلك الزمن، ولكن وجود فلسطين وحده كان يعزيني «بسورية طبيعية» آتية بلا ريب. كان «الايمان» يبالغ في تعزيتي لدرجة أنني لم أكن أرى سوى الحلم.

ويوم سقطت فلسطين تزلزل كياني وانتابني ما يشبه الصرع. كنت شاباً ناضجاً عليه أن يعي ما يسمع وما يرى، ولكنهم قالوا إنني أصبت «بانهيار عصبي». لم أشعر بخنجر في الظهر كما يقال عادة، ولكني أيقنت أن جزءاً مني قد ضاع، ربما هو القلب، ربما هو العقل، ربما.. لا أدري.

كل ما أدريه أن «قصيدتي» التي كتبتها بدمي تناثرت أشلاء.. فهل أكتب قصيدة جديدة أم أنتحر؟

في تلك الأيام تماماً، راودتني للمرة الأولى فكرة الانتحار. كان سقوط فلسطين في حياتي آنذاك سقوطاً لكل شيء، بمحض الصدفة أم بتدبير؟ كدت أجن، فقد سقط في الوقت نفسه الحزب والزعيم والعقيدة والحب و.. وكل شيء.

وجدتني وحيداً، ولم يعد أمامي سوى الانتحار.

ولكن يداً ممدودة بالرحمة أنقذتني من الموت. تسرب حنانها إلى ما تحت الجلد، وهي تذرف معي دموعاً سخية بالعطاء. أخرجتني من سراديب الغيبوبة وأفقت على أن ضياع فلسطين مؤقت، وأنه ليس بالشعر وحده تتحرر، وإنما بوحدة العرب أجمعين، لا بوحدة سوريا الطبيعية وحدها.

ورحت أكتب قصيدة عمري بعيداً عن الشعر والموت. انبجست في الحال رؤيا جديدة عمادها وحدة العرب. ولاح لي صلاح الدين يهزم الصليبيين في ظل دولة واحدة تمتد من برقة إلى نهر دجلة مروراً بمصر والشام ووصولاً إلى الحجاز واليمن.

بهرتني الرؤيا وتسللت إلى نفسي أهازيج الفرح. كنت مسيحياً وما أزال، فرحت أصوغ الحلم الجديد من إيماني «بالفداء» و«القيامة» من بين الأموات. أمتي الآن هي الأمة العربية، ولا بد أن «دولها» هذه ستتوحد لتحرر فلسطين وغيرها من «الأقطار» الرازحة تحت هيمنة الصليبيين الجدد. وقبل هذا وبعده، فإنها ستتوحد لأن «الطبيعة» تدعوها لذلك، فهي أمة واحدة، فكيف ترضى بالابقاء على تجزئة أوصالها بيد أعدائها؟

لم أكن وعيت أن «الدولة الواحدة» التي تركها صلاح الدين قد تجزأت بمجرد وفاته بين أقرب المقربين، على أيدي أبنائه وأخوته. هذا اختار مصر وذاك حلب والثالث دمشق والرابع حوران والخامس اليمن والسادس الأردن والجزيرة والسابع الموصل، وهكذا تمزقت الدولة إرباً.

لم أكن وعيت أن هذه التجزئة أفسحت المجال واسعاً من جديد أمام الصليبيين للاحتلال ومعاهدات الصلح حتى تشجعوا على الوصول إلى دمياط في أرض مصر ذاتها. ولإنقاذها حاول «الكامل» أن يقايض عليها بالقدس وفلسطين، فما كان من صلافة الصليبيين سوى الرفض، حتى تدخل فيضان النيل ففك الأسر عن دمياط، ولكن بعد أن أدت بالكامل لأن يسلم الأعداء بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والجليل الغربي وصيدا. وقع ذلك كله بغير قتال، لأن جيش الكامل كان منهمكاً في الدفاع عن العرش.

لم أكن وعيت أن الأمير أو الملك أو السلطان المستقل بإحدى الامارات أو الممالك لا يعنيه في كثير أو قليل مصير بقية «الدولة» بل هو يتحالف مع الصليبي ضد أخيه أو إبنه إذا تهدد عرشه أو «تآمر» عليه أحد. لم أكن وعيت أن «الحرب الأهلية» التي دامت ثماني سنوات بعد غياب صلاح الدين، هي التي منحت الصليبيين فرصة التقاط الأنفاس والتمدد في فلسطين كلها.

لم أكن وعيت، لأن الحلم كان أقوى، ولأن الايمان كان قد تمكن، ولأن دولة الوحدة كانت مقبلة بسرعة لتضمد الجراح وتزيل الشكوك وتحرر فلسطين وتدحر من جميع الأركان بقايا الصليبيين الجدد. كان عبد الناصر، وكانت الجمهورية العربية المتحدة.

و . . .

وماذا أحكي لك يا صديقي عن أجمل ثلاث سنوات في العمر. رأيت أمتي تبعث، وهذا يكفي. وكأن قصيدتي انتهت بالتحقق، فلمن أغني؟ لأعتاب المستقبل التي خطونا فوقها رحت أنثر القبلات للدنيا. لم تسعني الدنيا، فبكيت من الفرح الغامر بروائح بساتين الفردوس. أيقنت أنني انتصرت، وندمت على أنني فكرت يوماً في الانتحار. حتى ولو كان السبب هو هزيمة فلسطين، فها نحن ــ بسبب هذه الهزيمة ربما ــ توحدنا. والوحدة ستحرر ألف فلسطين.

ثلاث سنوات
مضت كأنها لحظة سرقناها من الزمن
مضت كأنها لم تكن

مضت ومعها القلب يحترق في البركان الأسود، والزلازل الجهنمية المتتالية منذ هزيمة ١٩٦٧ إلى حرب لبنان.

وأنا يا صديقي شاعر، لست فيلسوفاً أو زعيمًا. شاعر فقط، أنا يا صديقي.

هل تصدق، إذا قلت لك إنني طيلة الخمسة عشر عاماً الأخيرة، لم أفكر بغير الانتحار، وندمت من جديد على أنني لم أنفذ هذه الفكرة العبقرية حين تراءت لي يوم ضاعت فلسطين منذ أربعة وثلاثين عاماً.

يومها أنقذتني اليد الممدودة بالرحمة، والرؤيا. أنقذتني حقيقة الأمة العربية من حلم الأمة السورية. أنقذني صلاح الدين.

أما الآن، ومنذ خمسة عشر عاماً يا صديقي، فإنني أرى أبناءه وأحفاده من الأمراء والملوك والسلاطين الجدد، وهم يدافعون عن عروشهم بالتحالف مع الصليبيين الجدد، وهؤلاء يزدادون شراهة وتوغلاً في أرضنا وإنساننا. لا، ليس صحيحاً أننا نعود إلى عصر ملوك الطوائف، ولا حتى العصر الجاهلي قبل الإسلام، فنحن لا «نعود» بل نتلاشى من الوجود.

إنني شاعر يا صديقي، وشاعر فقط، وقد ماتت قصيدتي الكبرى، فلماذا أحيا؟ للقصائد الصغيرة؟ كانوا يقولون عن شعري إنه كزرقاء اليمامة في النبوءة، فلماذا لا يكون «انتحاري» هو أقصى ما أستطيع من شعر في آخر قصائدي؟

أنا لم أنتحر كما يشاع، فلا تصدق. وإنما قتلت. هل تعرف من قاتلي؟ إنه أنت. نعم، إنه النفط العربي الذي قتلني، فكيف انتحرت أنت.. أنت الدبلوماسي النفطي الذي في مقتبل العمر؟

أنت قاتلي. نفطك هو السيف المسموم، وإن أمسك به أخوتك أو الصليبيون، فالنتيجة واحدة، هي الموت. موتي وموت الآخرين وموت الوطن.

هل فكرت يوماً في أن الخمسة عشر عاماً الأخيرة هي أعوام النفط الكبرى، ومع ذلك فهي أعوام الهزائم العربية المتتالية والتفتت العربي المروع والانسحاق الجماعي أمام قطار الموت؟ هل هي صدفة إذن، أن يترافق النفط والموت؟

إسمي خليل حاوي، أعترف أنني فكرت في الانتحار يوم سقطت فلسطين، وأنني نفذت الفكرة يوم سقط بلدي لبنان. بين الفكرة والتنفيذ كنت معلقاً بين الحلم والكابوس، والآن استيقظت من الحلم، ومات الشعر.

أما أنت، فلماذا وكيف أتيت إلى هنا؟ هل «ينتحر» النفط العربي؟ أم فررت بجلدك ورفضت «حياتهم» هناك.

حينذاك، تصبح القصيدة المعجزة في زمن موت الشعر.

(٢)

لا يا سيدي.

لست قصيدة، ولا معجزة، ولا النفط العربي.

ولست شاعراً مثلك.

ولم «أعش» سقوط فلسطين مثلك، بل تفتحت عيناي على دنيا العرب وهي تزف إلى أعراس الحياة.

أنا مواطن بسيط من قطر، إحدى إمارات الخليج ذات التاريخ.

نعم، كنت أعمل «سفيراً» لبلادي في جامعة الدول العربية. ولكني لست دبلوماسياً كما قد تظن.

تعلمت في صباي وشبابي الباكر قراءة التاريخ. ولكنني دوماً أحببت الشعر. لم أترك لك ولا لغيرك قصيدة واحدة لم أقرأها. ولم أحاول ككل أقراني في مرحلة المراهقة أن أكتب الشعر، ولكني أعترف لك بأنني هفوت إلى ذلك مراراً. وكانت الأحاسيس المضطربة تتملكني وتضغط على أنفاسي حتى تكاد تمزق أضلعي من الغليان. غير أني لم أعرف أبداً كيف يتحول ذلك كله إلى شعر أو نثر أو أي شيء يجسم انفعالاتي.

وحين كبرت قليلاً تحولت الانفعالات إلى أفكار. في وهج حرب السويس المجيدة تفجرت الينابيع في داخلي، وفي ظلال الوحدة تفتحت براعم الصبا عن الأحلام الكبيرة. ورغم ضراوة الانفصال بالنسبة لجيلكم، فقد عبرناه إلى أحلام أكبر تمحو الكوابيس القديمة كلها.

ولكن الهزيمة في ١٩٦٧ هي التي هدّت شبابنا الغض هدّاً. من قبل كنا «نقرأ» عن الهزائم. ونتأسى، وربما نلتاع. أما الآن، فها هو الوجه الدميم للكارثة يطالعك في اليقظة والمنام، أقبلت على أحلامنا كالوحش، وما زلنا على أبواب الفرح.

يا شاعري، تحدثني عن صلاح الدين. أما أنا فأقول لك إنني كنت أطلب العلم في الولايات المتحدة حين وقع بين يدي كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ وفيه يروي أحداثاً عاصرها وشارك فيها أحياناً. واستوقفتني تلك الأحداث التي دارت رحاها في ظل الحكم الفاطمي قبل قيام الدولة الأيوبية العظيمة، دولة العرب الواحدة، كما تسميها.

كان الظافر هو الخليفة، وابن السلار وزيره. ولكن كيف أصبح وزيره وهو والي الاسكندرية والبحيرة؟ كان الظافر قد عين بن مصال وزيراً، فلم يعجب الأمر ابن السلار، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل وقد صدر الأمر الذي أيده كل الأمراء؟ زحف على القاهرة، وانتصر له الأمراء أنفسهم، وهرب ابن مصال محملاً بأموال الخليفة ليحشد الحشود ضد ابن

السلار. وفعلاً وقعت المعركة بين ابن مصال وعباس ابن زوجة ابن السلار. وعاد عباس إلى القاهرة حاملاً رأس ابن مصال علامة النصر المؤزر. ولكن القتلى كانوا سبعة عشر ألفاً من أشداء المسلمين.

وأصبح ابن السلار وزيراً لقبه الخليفة بإسم الملك العادل، فهل انتهت المأساة؟ أبداً، فقد تآمر الخليفة على وزيره مع أقرب المقربين إليه، وهو ابن عباس الذي يعتبر حفيده.

وتماماً، في الوقت الذي كان فيه جيش الملك العادل (ابن السلار) يصد الصليبيين عن مدينة بلبيس بقيادة عباس نفسه، كان ابنه يعود تاركاً الجهاد ليقتل ابن السلار وهو نائم، ويحمل رأسه إلى الخليفة. وأصبح عباس والد القاتل وزيراً. ولم تنته المأساة، فقد تآمر الخليفة مجدداً مع ابن عباس لقتل أبيه. وعلم أسامة بن منقذ صاحب كتاب «الاعتبار» بالأمر فحذر ابن عباس الذي نقل الخبر بدوره إلى والده، واتفق الاثنان على قتل الخليفة، قتله ابن عباس، وتكفل عباس بأسرة الخليفة كلها ومرة واحدة.

وكان المد الصليبي قد وصل مداه. وصرخ ولد أرمني يرافق أسامة بن منقذ: «يا سيدي، ما هؤلاء مسلمين».

نعم يا سيدي الشاعر ما هؤلاء الذين تركناهم «يعيشون» موتهم على حد تعبيرك، بعرب. ومع ذلك، فإن ما جرى في البلاط الفاطمي كان قبل مجيء صلاح الدين. لذلك تجرعنا الهزيمة في العام ١٩٦٧ بانتظار المعجزة. وكان الخروج العفوي الهادر لملايين العرب ليلة العاشر من يونيو ــ حزيران، يشبه المعجزة. وكانت حرب أكتوبر ــ تشرين ١٩٧٣ تشبه المعجزة. كلاهما يشبه المعجزة لأن الشارع العربي بدا فيهما كما لو أنه بالفعل لا بالامكان شارع واحد من المحيط للخليج. ولكن الحقيقة هي أنه لا هذه ولا تلك كانت المعجزة، وإنما «شبِّهت» لنا فحسب.. فبعد عشر سنوات من الحرب المجيدة، أو أقل قليلاً، كان لبنان بأكمله لا فلسطين وحدها، تحت الاحتلال الصليبي الجديد.

هل يتكرر التاريخ؟ سؤال أعيى العلماء في كل عصر. ولقد درست وعلَّمت التاريخ بنهم العاشقين. ولم أحصل على جواب السؤال.

ألا ترى أن ما ذكرته أنت عما جرى بعد غياب صلاح الدين، وما ذكرته لك عما جرى قبل حضوره، يكاد ينطبق على عصرنا النفطي السعيد، العصر الذي لم يعد فيه العدو عدواً... أصبح العدو تحت جلودنا وبين مسامنا. طالما أن عروشنا بخير، فليذهب الوطن إلى الجحيم.

هذا هو عصرنا يا سيدي الشاعر.

وأنا إسمي راشد الخاطر، لست شاعراً مثلك أحدس بما كان وما سيكون، بل رأيت كل ما كان وما هو كائن، وأدركت بشكل ما ما سيكون.

صدقني، ولا تغضب، لم أكن أحب شعرك. كانت هوامش نزار قباني على دفتر «النكسة» تحك جراحي أكثر من رؤاك الغاضبة. وعندما سقط لبنانك ومعه جسدك، قرأتك من جديد. وفزعت. إذا كان نزار هو «الهوامش» فأنت النص. وهل كان لي أن أنتظر «انتحارك» حتى اكتشفت أنك أنت أنت الشعر.

كان موتك هو قصيدتي الهادية طيلة الشهور التسعة التي أمضيتها بعدك في تلك الحياة.

لقد ذهبت أنت في السادس من حزيران يونيو، بمجرد أن دنس الغزاة أرض جنوبك، ولكنك لم تر شيئاً. لم ترهم يصعدون إلى جبلك ويتمددون على ساحلك ويفتحون بيروتك.

وربما دخلوا بيتك

وربما نهبوا كتبك وداسوا على ذكرياتك

وربما

ولكنهم بالتأكيد قتلوا أبناءك واخوتك وأحفادك.

وبالتأكيد صمت النفط العربي فلم يحرك ساكناً من المحيط إلى الخليج. بل عفوا. لقد تكلم. تكلم ببلاغة، ولكن بلسان الغزاة وبأسنة رماحهم. تكلم النفط العربي في لبنان كما سبق له أن تكلم في مصر. وسيغمس كلامه في دماء أبنائك وإخوتك، ويوقع باسم العدو على صك البيع ووثيقة الشراء. بيع الأرض والإنسان، وشراء العرش.

ولكن هذا النفط العربي واهم، ففي اللحظة التي قتلك فيها لم يكن يدري أنه ينتحر، فلا عروش بلا أرض ولا إنسان.

أما أنا، فلم أنتحر كما قيل، بل أردت فقط أن أمارس حريتي وإنسانيتي لمرة واحدة. أردت فقط أن أنظر في المرآة لأرى نفسي، لا النفط العربي.

أردت فقط أن «أقرأ» قصيدتك.

أليست المسافة بين شعرك ونثري تسعة شهور، ولدتني قصيدتك بعدها؟ أليست المسافة بين اسمك واسمي هي ذاتها المسافة بين المحيط والخليج؟

□ □ □

محاكمة علنية جدا

حكاية المسرحية انتشرت في أرجاء مصر حتى أنني عندما ذهبت لزيارة صديقي في السجن، كان سؤاله الأول عن المسرحية. قصة الخلاف الذي دب في صفوف الفرقة وقصة الاختلاف بين العروض المرشحة وقصة المدعوين وقصة الأسماء والديكور والموسيقى والملقن واللغة، وعشرات التفاصيل التي ذاعت من الاسكندرية إلى أسوان، وشاعت من القاهرة إلى بقية العواصم العربية وغيرها من المدن الكبرى في العالم.

على مدى العام لم أستطع زيارته أكثر من عدة مرات شعرت خلالها بأنه أحبني وأنه صار يتعذب بهذا الحب، أو العكس، فقد أصبح ممكناً له أن يفكر في مخلوق آخر تفكيراً خاصاً، يضنيه البعد حقاً، ولكن مجرد الانشغال، كما اعترف لي، كان يعزيه عن الوقت الضائع. وكان واضحاً أن الخروج من السجن من الأمور العسيرة المنال في الوقت الحاضر، لأن الوافدين كانوا أكثر كثيراً من الخارجين. وقد أدركت من الزيارة السابقة أن مسألة الإفراج عنه لم تكن تشغله في الماضي حين كانت ميسورة، ولكنها تشغله الآن حين أصبحت شبه مستحيلة. وقد سألته عن نصحي فلم يكن لديه جواب دقيق، لأنهما لا يقيمان في سجن واحد. ولم يتوقف الحوار بيننا عن إسماعيل المهدوي، وبالتداعي كنت أحدثه عن عوضين الذي ذهب ولم يعد وعن شلبية التي لا أعرف لها مكاناً. وبالرغم من الزيارات المعدودة التي رأيته خلالها فقد كادت أن تتحول إلى أمر روتيني مكرور لولا حكاية المسرحية التي أثارت فضوله إلى آخر المدى.

ومنه فهمت بعض الأشياء التي لم يخبرني بها فتحي. قال لي مثلاً أن الفرقة في حقيقة الأمر ليست فرقة واحدة، وإنما يتكون هذا المسرح بطريقة الملعب الرياضي من فرقتين. الأولى تتميز بأن غالبية أعضائها من أبناء وبنات الذوات القادرين على دفع الإيجار والمرتبات والبقشيش والسهرات ورشاوي النقاد وما إلى ذلك، بالإضافة إلى أن رئيس الفرقة

أيمن الحانوت من ألمع الممثلين، والموهبة هي التي شفعت له لدى أبناء الذوات، لأن الشائعات تؤكد أنه ليس واحداً منهم بل لعله مكروه من بعضهم لأسباب ما زالت غامضة. ومع ذلك فإن مواهب الحانوت كمونولوجست خفيف الدم ونجاحه في ألعاب الحاوي العجيب وتبوءه القمة في دور البهلوان، كل ذلك ساعده على تزعم الفرقة وفرضه الشروط أحياناً.

أما الفرقة الثانية فلم تكن لها قوة الفرقة الأولى وهيلمانها ولمعان نجومها، إذ هي فرقة تلامذة كما يدعونها سواء بسبب شباب أعضائها وأحياناً مراهقتهم أو بسبب فقرهم ومشاغبتهم. وكان يتزعم هذه الفرقة من «الهواة» فتحي المحلاوي الذي لم يتورع يوماً عن التمثيل في المقاهي والشوارع والأسواق. هكذا كانت الصفقة مرشحة للنجاح والفشل معاً، فالفرقة الكبيرة قادرة على استئجار المسرح، ولكنها لا تملك مقومات العرض الناجح. وفرقة التلامذة تملك بعض هذه المقومات، ولكنها لا تملك المسرح. والتقت الفرقتان في مكتب المحامي الشهير ماجد الأناضولي الذي حرر لهما عقد التوحيد في شركة واحدة.

وقد بدأت المشاكل من اليوم الأول، وتصادف أنه كان اليوم الذي حاولت فيه الحكومة أن تؤجر المكان لشركة النجمة. حينذاك لم يبد على فرقة الحانوت أية ممانعة جدية، ثم تبين فيما بعد أن الحانوت هو الذي أوعز بالفكرة للحكومة وللنجمة معاً. يومها صرخ في وجهه فتحي المحلاوي أمام الجميع: إسمع، انت فتوة صحيح، لكن إياك أن تتصور أنني بهلول، لم يجف حبر العقد بعد، والأناضولي حيّ يرزق، لا أحد يستطيع التفريط أو التنازل أو حتى الكلام منفرداً باسم هذا المسرح، لأنه وقف لا يمس. توتر الجو خاصة حين تصدى لفتحي رجل مفتول العضلات يسمونه في الفرقة السندان، وقال: أنت ترفع صوتك أكثر من اللازم، هل كان المسرح مسرح أجدادك؟ صرخ فتحي: نعم، مسرح أجدادي. فما كان من السندان إلا أن ألهب فكه السفلي بلكمة سريعة ولكنها سديدة. وكادت المعركة أن تشتعل، لولا أن تدخل الحانوت نفسه منهياً النزاع بكلمات رقيقة وابتسامة أرق.

حدث ذلك منذ عام، وقد تبين فيما بعد أن الموقعين على العقد من فرقة المحلاوي نسوا أنهم وافقوا على تعيين الحانوت مديراً عاماً. وقد استطاع بهذه الصفة أن يتعاقد مع الحكومة والنجمة على استئجار المسرح قبل أن تطفو المشكلة على السطح بعام كامل. وقد حاول تهدئة المتوترين قائلاً بنعومة: أرض الله واسعة، ليست أرض هذا المسرح مقدسة، ونستطيع اختيار مكان آخر أكثر جمالاً. حينئذٍ كاد المحلاوي فعلاً أن يقتله.

طيلة هذا العام لم يخل شهر واحد من النزاع، خاصة وقد تبين من ممارسة العمل المشترك، أن فرقة الحانوت قد ارتكبت أخطاء مروعة من شأنها إلحاق السوء بسمعة فرقة

المحلاوي. وقد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الأناضولي لم يكن محامياً محايداً بل منحازاً بشكل واضح لفرقة الحانوت سواء في تفسير العقد أو في أسلوب تنفيذه.

مثلاً، خلال هذه السنة وقعت بعض المخالفات للعقد، كالاستغناء عن الحديقة الجميلة التي تحيط بالمبنى وتأجيرها، والاستغناء عن السور الحديدي الذي كان يحمي المسرح من العابثين والمتطفلين بتحطيمه والاتفاق على سور خشبي، وكالاستغناء عن بعض العاملين وتعيين بعض الراقصات اللواتي لا يحتاج إليهن العمل، وكالاستغناء عن الوجبات الغذائية المقررة واستبدالها بالمشروبات التي لم يطلبها أحد.

وقد تراكمت هذه المشكلات والخلافات شهراً بعد آخر، حتى إذا اقترب موعد العرض كانت التعقيدات بسبب المسرحية المقترح تمثيلها قد بلغت الذروة.

كان من الواضح أن الحانوت يميل إلى الاختيار بين مسرحية هاملت والأسطورة اليونانية بينما كان فتحي مصمماً على اختيار الأسطورة المصرية القديمة. وقد قال للفرقة في اجتماع شمل كل أعضائها: إنني لا أفهم لماذا نستعير من الدانمارك كما فعل شكسبير أو من اليونان كما فعل سارتر، ونترك أساطير بلادنا. الانجليز لا يشعرون بالغربة وهم يستلهمون مسرحهم من حكايات أوروبا، وكذلك الفرنسيون يشعرون بالانتماء إلى أثينا. أما نحن فلماذا لا نجرب مرة واحدة ميراث أجدادنا في موضوع لا يحتاج للترجمة عن غيرنا، بل قد يحتاج للحذف والإضافة والتعديل على أيدينا؟ وقد استطاع فتحي أن يجذب الأغلبية إلى صفه، لأنه كان الأقدر على إثبات وجهة نظره وصحتها، ثم إنه قدم إعداداً معاصراً للمسرحية أو الأسطورة القديمة بحيث لن يشعر المتفرج بالغربة. ولم تحدث مشكلات تذكر بالنسبة لقائمة الممثلين وتاريخ العرض.

وكنت أتبادل المعلومات حول المسرحية مع صديقي في زيارتي الأخيرة للسجن حين أقبل ضابط كبير الرتبة يزمجر بصوت عال ولكن غير مفهوم، وإن كنا قد أدركنا بشكل ما أن الزيارة انتهت قبل انتهاء موعدها. وراح الحراس يتهجمون فجأة على الأهالي ويطردونهم بشراسة مباغتة متوترة تكاد تكون مفتعلة. وقد أزعجنا لدرجة اليأس أن الزيارات قد ألغيت لأجل غير مسمى. وأحسست عند سماع النبأ بوجع حارق في صدري وشعرت كأنني أتهاوى. لم أكن حتى ذلك الوقت قد أيقنت من أنني أحبه لدرجة لا تسمح بالاستغناء عن هذا الحب. حتى مغامراتي السريعة لم تكن تعني أنني أمزق ارتباطاً بيني وبينه، لم تكن مغامرات عميقة الأثر داخلي، وإنما كانت تنتهي بانتهاء اللحظة. أما «هو» فلم أتصور يوماً أنه بعيد أو أنه يغضب من هذه النزوات المرتجلة، فهو كامن على نحو ما، ثابت على نحو ما، يحبني بالتأكيد حباً لا يتأثر بالمتغيرات. كنت أعرف ذلك، ولكني عشت محايدة مع هذا الحب

كما لو أنه يخص غيري، كما لو أنني لست طرفاً. حتى سمعت خبر منع الزيارات فدارت بـي الدنيا. وضعت يدي على أذني حتى أتأكد من أن سائلاً ساخناً لا يسقط منها، وأمسكت أنفي بيدي الأخرى لأفتح فتحتيها ويدخل الهواء، ووقفت أمام المرآة لأرى الدنيا ما عداي. في ذلك اليوم لم تعرفني أمي ولا أختي. قالا للجيران أن مساً أصابني. ولكن الجيران قالوا لأهلي إنني طبيعية في دنيا غير طبيعية. بعد قليل همست لي الصغرى: لماذا الزحام الذي يقتل الناس؟ نظر إليها أخي مذهولاً، يقول: ظننتك ستسألين لماذا تعرت الشوارع من البشر، أين هذا الزحام وأنا أشتهي أن أرى رجلاً أو امرأة؟ لا أحد، لا أحد. صرخت الصغرى: لا تصدقيه إنه يمزح. تغيرت ملامح أخي وجحظت عيناه مستنجداً بـي: إحذري هذه البنت، إنها تهذي فلا أحد يمشي في الشوارع. عادت الصغرى إلى الصراخ، واستأنف أخي الانفعال، وأقبلت أمي تلطم على خديها. وهكذا أصبح البيت جواً مناسباً لما يمور في داخـلي، ولا أستطيع الإفصاح عنه. ولكن الجيران قالوا أن الأمور طبيعية لدرجة لا تطاق، وأن كلّ ما يجري معقول لدرجة يغيب معها الوعي. ولم أر بأساً من دخول الحمام والاسترخاء في الحوض تحت المياه الباردة. ولكن المياه لم تهطل على جسدي النعسان. وقد شككت في البداية من أن خللاً ما أصاب الصنبور، ولكني خلوت إلى ذهني وفهمت أن الرمال الناعمة تسقط من فوق، وأنها بدأت تملأ الحوض وتغطي أعضائي بحماس مثير، وأن بعض ذرات الرمال تهرب من التعليمات وتتخفى في مسام جلدي فتهيجني تدريجياً حتى وصلت بـي في إحدى اللحظات إلى أولى مدارج النشوة. غير أنني بعد حين تأكدت من أن الرمل قد تسرب من فتحات جسدي كلها وراح يجري في الأوردة والشرايين والعروق، ثم بدأ يخرج من المنافذ المفتوحة مرة أخرى. وكان دوار الرأس قد توقف ليحل مكانه دبيب شهوة مسعورة لا تخدرني بقدر ما توقظ الحواف المنثورة في تجاويف دمي وتمتص رحيقاً أسمع صوته أكثر مما أشم رائحته. وكانت الوسادة مبللة في أجزاء مختلفة حين رفعت رأسي عنها هنيهة في ظلمة الليل الهادىء.

كانت الليلة هادئة تماماً، وقد مضى شهر كامل على الاختفاءات المثيرة. وعندما تحسست نفسي لأتأكد من أنني صاحية وواعية على ما يرام، تأكدت أيضاً من أن أمي ليست أمـي وأبـي ليس أبـي واخوتي ليسوا اخوتي وأنا لست أنا. رأيت امرأة ربما كانت شلبية تحبل بـي، ولم أستطع تبين ملامح الرجل الذي ضاجعها ولكني رأيته وهو يفعل ثم وهي تلدني. كان ذلك بالأمس. والليلة تزوجت. ضاجعني حبيبي، ونزفت دماء كثيرة. حبلت وولدت طفلي الآن.

وفي الصباح كنت أبتسم بغير اشمئزاز لفراشي المزركش بمختلف البقع، وقد نسيت

أحداث الليلة التي لا أدري أكانت خارج الفراش أم داخل الرأس على الحافة الحرجة. كل ما أدريه أنني استيقظت على نشاط بالغ أقرأ الصحف بعناية وتستوقفني الإعلانات الكبيرة عن المسرحية التي سيحضر عرضها الأول كبار المسؤولين وكبار الضيوف. وحين فتحت الراديو هالني أن تكون المسرحية هي أول الأخبار وأهمها. خرجت من البيت فور انتهائي من الحمام والطعام وارتداء الثياب دون أن أصادف أحداً من أهلي. وقد أحسست براحة خفية لذلك. وفي أول مقهى رحت أعيد قراءة الصحف وبدأت أتوقف طويلاً عند أخبار لم تلفت نظري من قبل. لم تعد المانشتات والصور هي ما يسترعي كل انتباهي، بل رحت أدقق في سطور سريعة قصيرة لاهثة. وبدلاً من حل الكلمات المتقاطعة رحت أربط بين خبر في الصفحة الأولى وتحليل في الصفحة الثالثة وصورة في الصفحة الخامسة وإعلان في الصفحة السابعة ومقال في الصفحة التاسعة وكاريكاتير في الصفحة قبل الأخيرة. وجدتني كأنني أتعلم الأبجدية، كأنني اكتشف الحرف للمرة الأولى. وفي المقهى رحت أتفرس في وجوه الناس كأن العيون والرموش والأجفان والآذان والأنوف والشفاه والنظارات الطبية كلها من قبل كانت صوراً متحركة، والآن أمست بشراً من لحم ودم. في الشارع لم أصدق أنني خارج قاعة السينما، فلم تعد هناك ظلال وألوان وخطوط وأضواء بل أقدام ورؤوس وأيدٍ وأصوات ودموع لا علاقة لها بالأفلام والروايات.

وفي إحدى اللحظات كدت أتراجع عن تلبية الدعوة لمشاهدة المسرحية، فقد كان ما يحدث لي ومن حولي أكثر إثارة من الفرجة على إيزيس وأوزوريس. كأنني كنت عمياء طيلة عمري الماضي والآن أبصر، بل كأنني لم أكن وقد أصبحت. بسرعة لاحظت أن لحواسي الخمس وظائف كانت منسية أو ميتة، فأصبحت أميز الرائحة الكريهة الصادرة عن جثة كلب من الرائحة الزكية الصادرة عن رجل يرتدي ثوباً نظيفاً، وأميز بين النشاز في لحن مسروق والهارموني في موسيقى أصيلة، وأميز بين نعومة النبات المبتل بقطر الندى وخشونة الزجاج المكسور، وأميز بين القهوة اللزجة شبه العفنة والشاي الرائق، وأميز بين الأخضر والأزرق في ألوان الطيف. ولكني لاحظت أيضاً أن لحواسي الخمس أرصدة في القلب والعقل، وكأن هناك خمس حواس أخرى باطنية تجعلني بعد التمييز بين الألوان والأشكال والروائح أحب هذا وأكره ذاك، أقبل هذه وأرفض تلك، أحب صديقي وراء الأسوار وحده بين جميع الرجال وأكره فرقة الحانوت بين جميع الفرق، أدافع عن الزهور والطيور وأهاجم من يقطف الورد ويصطاد العصافير.

كنت أرقب ما يحدث لي وكأنني شخص آخر، أو كأن لي عيناً أخرى أرقب بها تصرفاتي التي بدت لي غريبة كل الغرابة. وهي تصرفات نظرية ليست بعد قيد التنفيذ. . فأنا لم أخرج

من المقهى إلا إلى مقهى آخر، ولم أترك شارعاً إلا إلى شارع آخر، ولم أركب تاكسياً إلا لأنزل منه وأركب آخر. لم أفعل شيئاً يستحق الذكر، ولكنني شعرت بقوة أنني أفعل أشياء كثيرة. لا أفعلها في الحاضر ربما، ولكنني أفعلها في الماضي والمستقبل معاً. رحت استحضر الأحداث والأشخاص والدنيا التي ماتت لأراها وأسمعها وأشمها وألمسها وأذوقها من جديد، وأكتب ما إذا كنت أكرهها أو أحبها، وفي حالة الكراهية ما هو سلوكي تجاهها وفي حالة الحب أو الموافقة ما هو موقفي تماماً؟

لم يكن ثمة هدف من وراء اللف والدوران في طول المدينة وعرضها، ولكني امتلأت بالرضا، ولم أشعر بالتعب من كثرة التجول وازدحام الأصوات والجذب والشد داخل صدري. وفي نهاية الطواف وجدتني أمام المسرح. وكأنني لمحت صديقي خارجاً من وراء الأسوار ليحضر العرض معي. لم يكن هو. كان إسمه. لم أصدق. ولكنه كان إسمه. مصمم الديكور هو؟ متى، كيف؟ والإعداد لاسماعيل المهدوي؟ هل هذا معقول؟ يا دنيا. أدركوني يا ناس قبل أن يفلت اللجام. يا عالم. البطلة. إنها بطلة المسرحية. يا رب. سترك يا منجي من المهالك. ماذا أقرأ؟ إسمها. إنها هي. شلبية، يا إلهي.

وكنت واقفة كالمشلولة فاغرة الفم والعينين بلا حراك حين ربت فتحي على ظهري ضاحكاً يقول: من هذه التي بَكَّرت في الحضور قبل الممثلين والمتفرجين؟

ارتفق ذراعي ودخلنا من الباب الرئيسي، فسألته على الفور: هل من المعقول أن اسماعيل المهدوي هو الذي أعد هذه المسرحية؟ قال: كلا إن الإعداد كان جماعياً، وقد وضعنا إسم المهدوي تكريماً وتذكيراً به. قلت: ومن تكون شلبية؟ قال: سترينها بعد قليل، المشكلة انها الآن حامل، كان علينا أن نحتاط للأمر منذ وقع الاختيار عليها، أما في الوقت الحاضر فلا سبيل لاستبدالها. عندما بدأت التدريب كانت رشيقة هيفاء، ولم يتبادر إلـيّ الظن أنها يمكن أن تكون حاملاً. تنهد فتحي وهو يدلف إلى الكواليس، فتوجهت أنا إلى صالة العرض حيث يقع مقعدي في منتصف الصف الثاني، وما زالت هناك ربع ساعة تقريباً قبل رفع الستار.

كان من المستحيل أن أتحاشى الأصدقاء والزملاء والمعارف، رغم أنني حاولت الانشغال بما هو أهم، حاولت استحضار شلبية ورسالتها. كانت جيوش النمل قد بدأت غزو أصابع قدميّ ثم ساقيّ. دبيب هادىء كدت لا أشعر به أول الأمر ثم بدأ يتسع ويعلو وكأن أقدام النمل الرقيقة تبحث عن مسام الجلد وتتفاداها لتنغرس في الجلد نفسه. هل يمكن أن تكون شلبية حقاً؟ هل يمكن أن تكون هي التي ستظهر على الخشبة الآن أمام عيني؟ أم انها شلبية أخرى؟ يقول إنها حامل، فكأنه يقطع الشك باليقين، أو كأنه يزرع الشك

للمرة الأولى. هل ما زالت تحمل وتحمل، إلى متى؟ وهل يعرفها فتحي المحلاوي جيداً؟ أم أنه وزملاؤه فوجئوا بأنها حامل؟ هل يدرون أنها زوجة عوضين الجندي القتيل في الصحراء الغربية منذ أربع سنوات؟ هل قالت لهم إنها متزوجة أم مطلقة أم أرملة؟ هل تزوجت في الفترة الأخيرة؟ ربما. هل تزوجت أحد أعضاء الفرقة؟ أم أنها عاشقة ضاجعت حبيبها؟

رسالتها تستدرجني إلى كل الظنون. رسالتها كاوية، خشنة، حاسمة. قالت كما أتذكر إنها. . إنها. . لمعت الفرحة في عينيّ بغتة، خفت على نفسي، خرجت أهرول من مكاني رغم أنه لم يعد هناك سوى دقائق معدودة. وفي مكان قريب من غرف الممثلين فتحت حقيبتي وانتشلت منها الورقتين السريتين. كانت صورة من الرسالة معي باستمرار. أحياناً أنسى تماماً أنها معي. قامت جيوش النمل بانسحاب شامل غير منظم، تراجعت فجأة عن فخذيّ وطارت. رحت أفتح المظروف بشهوة ملعونة «عزيزتي. أشعر بأنك تستطيعين مساعدتي لو أردت، ولكني أرى انك فضولية أكثر من اللازم، وهذا ما جعلني أتردد في الكتابة لك. سأشبع فضولك وأقول ان التي تكتب لك بخط يدها الآن لم تكن تعرف الأبجدية حتى وقت قريب. ولكنني أثناء حياة زوجي تمكنت من سرقة بعض الوقت لأتعلم القراءة والكتابة سراً، بواسطة شاب صديق لزوجي رغم الفوارق الشاسعة بينهما. عوضين زوجي، فلاح لا أكثر، مهما لبس ثياب العسكرية. ولكنه انشغل بقراءة الكتب ومصاحبة الأفندية. هـذا صحفي، هذامهندس، هذا عامل كهرباء، خليط من البشر لم أعرف ماذا يجمعهم به وكيف ولماذا؟ قال لي في إحدى المرات إنهم من المتطوعين في الجيش، ومرة أخرى انهم من الفدائيين. وكل مرة يختلق أسباباً لمعرفته بهم. ولم أكن أفهم ما يقولونه، إذا حدث واجتمعوا في دارنا. أقربهم إليّ كان عامل الكهرباء الذي أصلح النور عندما انطفأ ذات ليلة وكانوا جميعاً في دارنا. يومها عرفت أنه أسطى كهربائي لأن عوضين ناداه أن يصلح ما عطب. وبعد فترة من الزمن أصبح هناك نوع من الودّ الخاص بيني وبين هذا الولد، فهو ليس كبقية الأفندية الآخرين، سواء في لهجته أو في طريقة كلامه أو في المواضيع التي يتكلم عنها، شعرت أنه قريب منا أكثر منهم. انتهزت الفرصة في إحدى المرات وقلت له: ما تعلمني يا اسطى عشان أفهم اللي بتقولوه، هوه أنا مش بني ادمة برضه؟

ابتسم الأسطى مُرحِّباً. وفي السر كانت تتم زياراتي له، أفك فيها الخط وأناقش وأتعلم. بالطبع لم أخبر عوضين. أحببت أن أفاجئه ذات يوم. أفاجئه بسري، وأفاجئه بأنني أعرف سره. لم يكن يخيفني في الدنيا سوى أن ينفضح أمره ذات يوم، فتعرف الحكومة أن هذا العسكري الفلاح يشتغل بالسياسة. لم يكن ينغص حياتي سوى هذا الهاجس الرمادي القاتم. لم يكن لنا ولد، فلم نحزن. رغم الغمزات الساخرة من كل صوب، بدءاً من أقرب

المقربين. وكنت مدفوعة بقوة لا تقاوم لمعرفة الحرف وقراءة الجريدة وفهم الكلام الغامض الذي أسمعه حيناً بالصدفة وأحياناً بالعمد، وقد انفتحت لي نافذة ما أجملها على يديّ الأسطى. ولا أدري ما إذا كانت ليلة القدر هي التي ساقتني إليه أم أن شيطاناً يدير لعبة الحظ لحسابه هو الذي أسرع بالأمور في متاهات غامضة.. فبعد سنوات طويلة من العقم حتى تصورت أنني عاقر، حبلت. قبل أن يذهب عوضين إلى الحرب بأسابيع قليلة زرعت الفرحة بين ضلوعه فطلب مني ألا أذيع الخبر حتى يكبر بطني ويستقر الجنين ونطمئن على أنه سيصل بسلام. كان عوضين مثلي يؤمن بالعين. وبالرغم من أننا كنا قد رضينا بنصيبنا ولم نعد نفكر في الحبل والولادة، إلا أن مفاجأة الحمل قد دفعتنا إلى أقصى درجات الحرص والتخوف والحذر المبالغ فيه أحياناً.

ولكن المشكلة بدأت بذهاب عوضين إلى الحرب، حيث إنني لم أنقطع عن زيارة الأسطى ولا هو انقطع عن المجيء إلى بيتنا. وكدت أجهض حين أبلغت رسمياً أن عوضين في عداد المفقودين. وكان بطني قد كبر وشاع الخبر حين وصلتني عدة أوراق من عوضين لا أدري كيف ومتى، لا أعرف، لا أعرف. كل ما عرفته بعدئذٍ أن القرية كلها تتكلم عني وعن الأسطى كلاماً لم أصدقه أول الأمر، ثم تنبهت إلى أنه طبيعي جداً. قالوا ببساطة إن الجنين هو ابن الأسطى. وكنت أعرف المرأة التي تستطيع أن تخرس الألسنة لو أرادت. ولكني لم أكن أملك ما يخرس لسانها. وذهبت إلى الأخرى التي تستطيع أن تجهضني بأقل التكاليف ودون ضجيج.. وقبل أن ينبثق الشعاع الأول من ضوء الفجر لم أكن في القرية كلها. تركت كل شيء ومضيت بدمي، وآلام الحوض والأحشاء تعصرني. تركت كل شيء، لأبدأ في الغد حياة جديدة قوامها مواصلة التعلم والبحث في قضية عوضين.

هجرني الجميع، ولم يعد أحد يذكرني من الأهل والمعارف. حتى الأسطى لم أره قط بعد مغادرتي القرية. أصبحت غريبة ووحيدة، ولكني ربحت أنني لم أعد تلك المادة الخام العاطلة من الوعي بما يدور داخلها وخارجها. أصبحت «آدمية» للمرة الأولى. أرى حقاً وأسمع فعلاً وأشعر قطعاً وأشم جداً، وكأنني نزعت أكواماً من الصدأ فوق روحي وجسدي بعملية جراحية مرعبة.

إنني أكتب لك بخطي وأسلوبي، وهذه وحدها معجزة، فقد تستطيعين مساعدتي في الوصول إلى حقيقة مقتل عوضين. من هم الذين قتلوه وكيف ومتى؟ إنها ليست قضية زوجي وحده. إنها قضيتك أنت أيضاً على نحو من الأنحاء، أم أنك من الذين يرون الصحافة مجرد حرفة لا رسالة ولا تعب دماغ؟».

رنين الجرس يعلن رفع الستار يخترق أذني، فأسرع بلفلفة الأوراق داخل المظروف في

حقيبتي وأشق الظلمة الخفيفة والصمت إلى مقعدي، والدقات الثلاث تؤكد أننا على وشك الانعتاق من الحاضر والفوز بالحرية في غياهب الماضي السحيق.

تلك هي ورقة اللوتس تشكل خلفية المسرح، وقد اشتغلت ريشة الرسام في الرقعة الجانبية حين أضاف ظلالاً للفلاح الفصيح وبجانبه التمثال التقليدي للكاتب المصري. وفجأة تدخل امرأة ساحرة مشعة كأنها خيال، في عينيها وهج متعدد الألوان ونظرة آمرة تأسر من يتطلع إليها في نطاق جاذبية ملعونة أو مقدسة أو مجنونة. إنها إيزيس وقد اكتشفت خيانة ست شقيق زوجها، وها هي ذي تبحث عن أنصار أوزوريس لتنقل إليهم قراراً اتخذته دون رجعة.

ولولا انني سمعت همساً بجانبي يكاد ينطق إسمها لما تعرفت إطلاقاً على شلبية، سواء من الماكياج المتقن أو من التغيير الذي طرأ على المرأة الجميلة الفلاحة المتكبرة. كذلك فإن بطنها الذي أجاد الماكير إخفاء تكوره كان يبرز لدى العين الفاحصة العارفة بحقائق الأمور. ترى، ماذا حدث لك يا شلبية بعد أن رأيتك لآخر مرة، بل ماذا حدث قبل ذلك، بعد أن تركت القرية مجهضة؟ صدقيني، لقد أمست حكايتك تعنيني بحد ذاتها لا لأنك زوجة عوضين فقط. أية مسافة قطعتِها من الأمية الكاملة إلى التمثيل على خشبة المسرح القومي؟ وأية مسرحية، وأي دور؟ إيزيس يا شلبية دفعة واحدة؟ ولكن صوت فتحي المحلاوي يوقظني صارخاً بوجه أيمن الحانوت. كان الإعداد قد آثر تعريب الأسماء الفرعونية فأصبحت كل شخصية تنادَى باسمها الراهن. إيزيس على المسرح هي شلبية، الإسم الحقيقي للممثلة، وهكذا أيمن الحانوت يمثل دور العم ست باسم الحانوت، أما حوريس فهو فتحي المحلاوي، هذا هو الإسم الحقيقي والإسم الفني معاً.

كان فتحي المحلاوي يصرخ بوجه أيمن الحانوت قائلاً: إنني أتهمك أولاً بجريمة الكذب والغش والتدليس بدءاً من إسمك وانتهاء بالقرابة المزورة. يا أيمن أنت من أسرة الحانوتي لا من عائلة الحانوت المعروفة. لماذا تخشى أن يعرف الناس هذه الحقيقة البسيطة، وهي أن جدك الأول والثاني والثالث حتى والدك قد تخصصوا في دفن الموتى؟ إنها مهنة معترف بها، فلماذا تحاول إنكارها بالانتساب زوراً إلى الحانوت، وأنت الحانوتي؟

ويبدو أنك تكذب كما تتنفس، لذلك كانت أكبر جرائمك أنك صورت للناس وللدنيا كلها انك عمي. لقد حبست عائلة المحلاوي كلها، وطبعت وثائق مزورة كأوراق النقود المزيفة وقلت للناس انك شقيق المحلاوي. الكبار في السن مصمصوا الشفاه لائذين بالصبر والصمت. والصغار لم يروا شيئاً ولم يسمعوا شيئاً فقالوا ربما. وكلما أفاقوا على الحقيقة

سارعت إلى تخديرهم أو قتلهم أو حبسهم مع العائلة المحلاوية. ألم يحدث ذلك؟ وعندما اعترف الحانوتي قائلاً بخزى «نعم» نزل الستار والتهبت الأكف بالتصفيق.

وفي الاستراحة فهمت أن حمل شلبية قد ساعدها على تمثيل دور إيزيس وقد حبلت بالابن حوريس. ولكن المشكلة بدأت مع انتهاء هذا الدور، أي بعد ولادة حوريس، وقد أصبح شاباً يحاكم عمه بتهمة قتل والده واعتلاء العرش بالقوة. واندمجت في الصالون البديع مع الأصدقاء القدامى الذين راحوا يتناقشون في المسرحية وعلاقة الأسطورة بالفن وغير ذلك. ثم لفت أحدهم نظرنا إلى الديكـورات غير المسرحية في الخارج حول مبنى شركة النجمة. وكيف أن الملصقات راحت تصوّر صليباً معقوفاً داخل نجمة سداسية، وتصور لوحات بالخط العربـي المتداخل يرسم أسماء بعض القرى والمدن. قال أحد الزملاء: جميل، ولكني بصعوبة قرأت إسم دير ياسين وكفر قاسم وبحر البقر وبورسعيد وأبـي زعبل. قال آخر متسائلاً: هل انتبهتم للملصقات الأخرى التي تحكي قصص موسى وفرعون ويوسف الصديق، وهل لاحظتم أن بعض الملصقات تغطي ملصقات سابقة عليها؟ إنني شخصياً شاهدت إعلانات شركة النجمة بعد الظهر وفي الصباح شاهدت فوقها ملصقات من نوع آخر. أيده صديقه قائلاً: صحيح، كانت فوقها ملصقات للمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وصور عبدالناصر. ورن الجرس من جديد، فأسرعنا إلى أماكننا. وكان صوت فتحي المحلاوي قد سبقنا يحاكم أيمن الحانوتي: ولقد حاولت بالكذب والتزوير أن تغتصب عرش أبـي. قاطعه الحانوتي: لا تنس أن والدتك وافقت، أليس كذلك يا شلبية؟ هبت الفلاحة الجميلة، تقول: إخرس، لقد حاولت غوايتي، ولكني لم أوافق قط. كنت تعرف انني امرأة متحررة، فتظاهرت أمامي بأنك نصير الحرية، والحق أنك كنت تعني الأغلال. سأله فتحي بصوت هزّ أرجاء المسرح: وشركة النجمة، من أتى بها؟

لم يجب الحانوتي، بل غمس المحلاوي خنجره في صدره وسط زغاريد النساء وهتاف الشيوخ والأطفال وفرقعات الرصاص من الشباب وتصفيق المشاهدين. ونزل الستار. وكان المفروض أن يفتح مرة أخرى لتحية الممثلين، وقد لاحظنا «حركة» من شدّ وجذب خلف الستار، ثم غمغمة أصوات مبهمة، فصراخ، فكلمة إسعاف. لم يكن في قاعة المتفرجين أحد. وكانت خطوط حمراء بدأت تتساقط من الخشبة إلى أرضية القاعة. وفي لحظات كنت وراء الكواليس. وكانت الكوارث الطاحنة تسحق العقل سحقـاً بمفاجـآت من أعماق الجحيم. كان أيمن الحانوت أو الحانوتي مضرجاً في دماء حقيقية. وكان فتحي المحلاوي يمسك بخنجر حقيقي في يده صائحاً بوجه الجميع: نعم قتلته، قتلته. إنها الحقيقة. لم أكن أمثل. كان التمثيل فرصتي فقط لأقتل هذا الرجل.

كانت شلبية هي الأخرى في زاوية المسرح راقدة تنزف. لم تتحمل أعصابها، في ما يبدو، مقتل الحانوتي أمام عينيها فسقط الجنين من بين ساقيها وهي ترتجف دماً وقشعريرة. وقد رفضت سيارة الإسعاف أن تنقل الحانوتي أو طفل شلبية باعتبارهما جثتين لميتين تُعنى بهما سلطات التحقيق. وأخذوا شلبية وحدها، لأنها رغم النزيف لم تمت.

□ □ □

موّال بحري

(١)

هل كنت البشارة الأولى أم الخبر العتيد؟
هل كنت دون جوان الثورة أم عريس الجنائز؟
هل كنت السطر الأول في كتاب مفتوح أم خاتمة القوافي في ديوان مغلق؟

كل ما أدريه أنني أدرت المحرك في صباح ذلك اليوم من أيام «الحازمية» الجميلة، فلم تتحرك السيارة وتوقف الكون.

رأيتهم في اليوم الثاني.

كانوا يحملونني على الأعناق في بيروت، ولكني رأيتهم هناك في قلب القاهرة، يتجمعون في «ريش» من حولي، تزدرد الوجوه بالغضب أكثر من الحزن، تتلاقى العيون في التحدي أكثر من الانكسار. كانت الشرطة تحوطهم برعايتها، وكانوا ينظرون لي في حنان متسائلين: هل نسيت اننا أبناء عصر الشرطة في خدمة الشعب؟

كلا لم أنس. رجالي في الشمس تعرفونهم، فكيف أنسى؟ ولكني كنت أفرق بين شرطة وأخرى. بين من يمنعني من دخول بيتي، ومن يمنعني من دخول بيته. وحين أقبل الناصر صلاح الدين زغردت الأجنة والهياكل العظمية، لأننا رأيناه يمسك المقبض يفتح لنا بيته وبيتنا معاً.

كان رجالي في الشمس على الحدود داخل العربة خزان النفط الفارغ ينتظرون عودتي بتأشيرة المرور ليتمكنوا من الهرب إلى الأمام.

يبدو انني تأخرت عليهم ولم أستمع إلى دقات أكفهم على جدران الخزان الفارغ المحكم الاغلاق. كنت مشغولاً بالرقص والزغاريد من ساحات دمشق وحواري القاهرة وهي تزف الناصر. عروبتي خلايا دمي، فإذا أقبلت دولتها فلا بد انني سأعود إلى حيفا.

يسألونني في «ريش» يوم كنت أزف في بيروت، هل نسيت أن الشرطة في خدمة الشعب؟ لا، لم أنس يا اخوتي، ولكنني ظننت أن العروبة ستغلب الشرطة الأخرى وتفتح لي بيتي، ولم أفهم ان الشرطة هي الشرطة أممية لا جنسية لها. لم أفهم حتى بعد أن هزمت الشرطة خلايا دمي وسقطت أسوار الدولة من حول عروبتي.

و «دقت ساعة العمل الثوري». قال لي الناصر: بع كل مالك واتبعني. لم أكن محتاجاً للكلمات، كان صوته في داخلي. ولم أسمع رجالي في الشمس يدقون جدار الخزان. كنت أستعد للعودة إلى حيفا. تركت البيت والعمل والأصدقاء في مهاجر النفط الأثرية، مهرولاً وراء قلبي المسرع بالريشة والقلم، أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، حتى عطشت ذات يوم ولم تكفني مياه النيل وبردى والفرات، وتبولت في ذات الليلة حتى لم أنم من ري الصحاري، وقيل لي مع شروق الشمس أن دمي أحلى من العسل. ولكن رجالي في الشمس كانوا قد توقفوا عن دق جدران الخزان. كانت عربة النفط الفارغة قد امتلأت أحشاؤها بجثثهم التي لم تعد قادرة على الهرب إلى الأمام. لم يكن النفط حاضراً، ولكن بطنه ابتلعت الرجال بين حدود وحدود. . لم أسمع دقات أكفهم، ولا أكف اخوتي في «ريش» التي تمزقت من كثرة ما دقت الجدران ولم يسمع أحد. لم يسمع الناصر ولم أسمع أنا. كلانا مندمج في الرقص، والشرطة تضحك.

كانت إحدى النجوم قد حجبت الشمس عن سيناء والجولان والضفة والقطاع، وانطفأت أنوار الحسين والمسجد الأموي وكنيسة القيامة، وصارت الظلمة بيتنا، نأكلها، نشربها نضاجعها، نتمدد بين أجفانها المتفحمة.

بعدها بشهور قليلة كان أبناء أم الدنيا وبناتها من تحت القبة وساعتها العتيقة وفدوا، ومن وراء الدخان والمعادن الحديثة أقبلوا، تحلقوا جميعاً حول «الكعكة الحجرية» التي لا تقدر الشرطة على قضمها. وفي تلك الأيام صحوت من قيلولة العروبة على نسيم البحر الأزرق وهدير الموج الأخضر وأنغام البلابل الحمراء. وبدأت أقرأ غصن الزيتون الفلسطيني في قصائد البندقية المشرعة. وخاصمت الناصر الذي كان قد أصبح أبي وأمي واخوتي. خاصمته لأنه فرّق بين شرطة وأخرى، ولأنه ظن كل الظن أن شرطته في خدمة الشعب، فسلّم لها الحلم وناطحات السحاب التي بناها البحر الأزرق والموج الأخضر. منعت الشرطة البلابل الحمراء من الغناء، فتحلقت عنوة حول الكعكة الحجرية وزأرت. كان الوقت قد فات، وإذا بالناصر للسويس وبور سعيد وأسوان ودمشق وحلب وطرابلس وبغداد والجزائر وصنعاء وعدن، يدفن مهزوماً تحت أنقاض الحلم في حراسة شرطته العلنية. وإذا بأهلي في الأردن يبصقون الدم الأسود من عيونهم وأنوفهم وآذانهم غضباً منه وحزناً عليه، غضباً من

الذي كان وحزناً على الذي سيأتي. كانت خيمتهم الجديدة تنصب في لبنان. وكنت أدير المحرك في «الحازمية» الجميلة حين توقف الكون ولم يتوقف اخوتي في شوارع القاهرة يجرحون عيون الشرطة القديمة الجديدة. كانت الناطحات قد بدأت رحلة السقوط واحدة فواحدة، وكان أهلي يتوافدون على الخيمة اللبنانية الجديدة وقد اختلطت في عيون طلائعهم ألوان الفجر وحرارة الظهر وظلمة الليل. لم نكن باحثين عن هوية. كنا وما زلنا نعرف عنوان بيتنا. ولكن الخيام المتزاحمة على طول الطريق في البحر والجو والبر ضللت عيون البعض منا. كانت الظلمة عاتية والصقيع جامحاً، فضلّ بعضنا. حسب الخيمة بيتاً ثم حسب البيت بيته. نسي أن البيت الكبير الذي كان يشيده الناصر ليأوي الجميع قد سقط. واننا الآن في «الطريق» إلى أرض البرتقال الحزين، ولسنا في بيتنا. كانت الشرطة في كل بيوت العرب قد علمتنا كيف نلتزم آداب الضيافة. وفي عمّان كان الدرس فادح الثمن فرحلنا. وفي لبنان لم يبد علينا اننا تعلمنا الدرس. لم نفق حتى على أن الدنيا وأم الدنيا قد تغيرت وان الناصر نفسه الذي خاصمناه هزم ومات. واننا هنا من الرملة البيضاء إلى الحازمية، لسنا في بيتنا. امتدت إلينا الحبال التي شنقت الناصر، فتعلقنا بها، ورحنا نلهو باللعبة العربية والدولية كأننا في عطلة نهاية الأسبوع.

كنت لكم البشارة الملتهبة.

تراكمت أكوام الثلج فلم تطفىء الحريق المقبل. تداخلت خطوط العرض والطول بالشوارع والأزقة ومطارات العالم الآخر، وانفجرت الأزمنة فتناثرت أشلاؤها على جسدي.

كانت «المزرعة» في لبنان حاجزاً مبكراً، وإن لم يكن بكراً، بين جمهوريتين مستحيلتين. وكانت «الحرب» بين صقر قريش ونجمة داود بديلاً بكراً، وإن لم يكن مبكراً، بين سلامين مستحيلين. وكانت «البئر» بين الصحراء والبحر، وبين الجبل والنهر، شاهداً بكراً ومبكراً، على خزان العربة المتخمة بجثث رجالي في الشمس.

كان ذلك منذ عشر سنوات رأيت فيها أهلي يتزحلقون على جليد النفط العربي، ويتجاذبون الحبال المرمية بين أيديهم وأقدامهم يشدها الآخرون من أعلى ومن أسفل ومن اليسار إلى اليمين، حتى تراءت لي أبهى المشانق في ذرى المجد الوضيع. بدأت الحبال فجأة تبتل رويداً رويداً بالندى الهاطل فوق الخيام وتحت الأوتاد، وبالدماء النازفة من الصقر والنجمة والأرزة والهلال، وبالنفط المعربد في عروق الأولياء. بدأت الحبال تلتف حولي أنا وأم سعد وأبو الخيزران، ولكي تبحر السفن حاملة أجساد الرجال، كان لا بد من قطع الحبال عند «الصخرة» وتتدحرج الرؤوس. كانت البواخر قد خرجت من المياه الإقليمية للكون الأصم، واختفت الشمس.

كنت قد سمعت البشير يناديني منذ عشر سنوات: من قتل غاندي؟ لم يقتله المسلم، بل الهندوسي. كان المسلم منهمكاً في قتل عمر. من قتل غاندي؟ لم يقتله المسيحي لأنه كان مرتبطاً بقتل المسيح. من قتلني؟

الحق أقول لاخوتي في «ريش» التي اختفت من القاهرة لتظهر في كل مكان: بعد بيروت ١٩٨٢ لا تصفقوا لأحد، لا تصدقوا، لا تذرفوا الدمع. ستحتاجون للأيدي والعيون في يوم لن يصفق لكم فيه أحد، ولن يبكي عليكم فيه أحد.. وحتى

حتى لا تقتحم رؤوسكم اللعنات من كل الذين هتفتم لهم وصفقتم وبكيتم وصدقتم الإنشاء الرفيع والأحلام المحرمة ـ غسان كنفاني.

(٢)

بعد رحيله بأقل من عام، كنت أكتب قصيدتي الأولى. لم أكن أرثيه. فرقت بيننا بحاره الزرقاء وأمواجه الخضراء وبلابله الحمراء. لا، لم أكن أرثيه. كان غصناً يستحق الرثاء وأكثر، ولكني كنت أتنسم عبير «فردان» بفرح الطفل الذي كان. نعم، كانت الدنيا وأم الدنيا قد تغيرت، ولكن القصيدة تنتشي في الخلايا وتتمشى بين الضلوع.

كنت أكتبها للمرة الأولى.

طرقوا الأبواب الثلاثة واستأذنوا بحماسة النجمة السداسية أن يسكنوا في جمجمة «أبو يوسف» وبين رئتي «كمال عدوان» وفي حدقة عيني. لم تكن المساكن خالية، ولكنهم قدموا لنا أوراقهم الثبوتية وتأشيرات المرور.

كنت أكتب قصيدتي الأولى.

ولكنهم قالوا لي: أنت فقدت الذاكرة، فهي قصيدتك الأخيرة.

متى إذن، كنت أكتب الشعر؟

قيل لي في الزمن القديم، حين كنت تجوب شوارع الشام العتيدة وأزقة مصر الجديدة، حين كنت تعشق الرمش الأسود وضفيرة الشعر الكستنائية، حين كنت تصلي للعذراء أن تلدك، حين كرهت يهوذا الأسخريوطي وقطعت جذع الشجرة التي شنق نفسه بأحد أغصانها ورسمت على لحائها الثلاثين من الفضة، حين اعترفت بسيدك ثلاث مرات ومع ذلك صاح الديك فلم تبك مع بطرس، حين رفضت القرعة على الثوب الممزق وفضلت السهر مع المجدلية على أن تضع أصابعك في الجرح كما فعل توما.

حين كنت تنشد المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة، وحين كنت تصرخ في وجه قيافا وزبانيته: بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوص، حينذاك كنت تكتب الشعر.

وعندما توقفت على أبواب القدس العتيقة، كانت فلسطين قد كبرت ولم تعد بعد أن تهدمت أعتابها قدساً واحدة. امتدت في عينيك من طنجة إلى البصرة ومن برقة إلى الجزيرة، لساناً بحجم الوطن، وعيناً بحجم الوطن، وقلباً بحجم الوطن. قلت لحبيبتك المصرية: ماذا يهم الصين طول الوقت، إذا بقيت تايوان بعيدة لبعض الوقت. كنت تسبح في بحر الصين عارياً حين عشقتك حبيبتك. قلت: ستعود تايوان ذات يوم، وسأعود إلى شبابيك الرامة والجليل أغازل بنت الجيران العصية.

كنت تكتب الشعر، قالوا لي في الزمن القديم، حين أيقنت أن فارس الفرسان سيوحد البحار والأنهار والجبال والهضاب والسهول والسواحل، سيزيل الحدود المزورة بين الولد والبنت بين العريس والعروس بين الشاهد والقبر بين الشريان والوريد بين الجلد والمسام بين الشهيق والزفير بين التراب والبذرة بين اللحم والدم والعظم.

هانذا أستعيد الذاكرة الأصلية وأرتمي في حضن الجنون الساحر. رقصت بين الشمال والجنوب، والنجمة السداسية ترتعد. رعدتها كانت برقاً ينير الطريق إلى القدس، كان يكفيني لون الجلد بطاقة هوية، وسرت خلف فارس الفرسان أحملق في بوصلة المشرق.

كبوت حين كبا، ولكني ظللت أكتب الشعر، أضرب في متاهات الدنيا وأم الدنيا، حتى زمجر الرعد من كهف سحيق، فإذا بالأرض تتوقف عن الدوران، وكأنه يوم القيامة.

ولكنهم قالوا لي انه عيد القيامة. قم، احمل سريرك وامش، جلدك كفنك إذا كنت تحب الشعر. كبا فارس الفرسان، ليكن، نحن فرسان الزمان.

كنت وما أزال عربياً، لأنني فارس، فقبلت الرهان. قالوا لي: امح ذاكرتك فمحوتها. قالوا لي: أنت لم تكتب الشعر بعد. قلت أنا لم أكتب الشعر من قبل. قالوا لي: ستكتب الشعر للمرة الأولى. قلت: سأكتب الشعر للمرة الأولى. قالوا لي: هناك قدس واحدة، والطريق إليها يمر بشارع فردان، احفظ العنوان واكتب قصيدة القدس، لا قدس غيرها، لا تسبح في بحر الصين عارياً، لا تغازل الرموش السود ولا الشعر الكستنائي، ترهبن في الدير الفلسطيني ولا تخش من «يهوه». قلت نعم نعم نعم.

ولكن «يهوه» زارني علناً هذا المساء، استأذن في الدخول إلى حدقة عيني التي لم تكن خالية، ولكن أوراقه الثبوتية وتأشيرة المرور سمحت له بالدخول إلى الأبواب الثلاثة. كنت أكتب قصيدتي الأولى فقال لي: لقد فقدت الذاكرة، انها قصيدتك الأخيرة.

منذ عشر سنوات تضاعفت الحواجز بين الجبال والبحار والهضاب والسواحل وطالت المسافات بين الكواكب، ولم يعد قادراً على الدخول سوى يهوه بنجمته السداسية. ولم يعد أمام قصيدتي الأولى والأخيرة على السواء سوى السباحة من جديد في البحر الميت وبكامل

ثياب السهرة. ولم يعد الطريق إلى القدس يمر بشارع فردان، وإنما بكل الشوارع العربية منذ شرع بعضنا في كتابة سفر الخروج ـ كمال ناصر.

(٣)

نحن لم نكتب سفر الخروج.
وهو أيضاً، ليس سفراً لبنانياً.
إنه سفر الخروج العربي من بوابات التاريخ الكبرى.
كتبه أمامنا وفي حضورنا ما لا يحتاج إلى نبوءات زرقاء اليمامة ولا إلى تجليات ابن خلدون.

لسنا من سكان عربة الخزان الفارغة أو المتخمة والتي ترك فيها غسان كنفاني رجاله في الشمس. ولسنا من سكان الأحداق الساهرة تغني والتي تركها كمال ناصر في المساء. لسنا من سكان الحازمية ولا شارع فردان.

نحن أبناء «الرصيف».
لم ندر محرك السيارة فتوقف الكون ولم نزف في بيروت ولم يحملنا شباب «ريش» في شوارع القاهرة، لأنهم هنا كانوا معنا.

لم نكن نكتب القصيدة الأولى ولا الأخيرة، لا نعرف الشعر ولا النثر، لا نجيد الغناء ولا الصلاة، فلم تبهرنا مواكب فارس الفرسان ولم تأكل عيوننا فروسية آخر الزمان.

لسنا نبحث عن طريق القدس، لأننا نعرفه والكل يعرفه. لم يكن أبداً يمر بأية عاصمة أو شارع أو زقاق خارجنا. كان وما زال يمر بنا، ومن يرغب في الوصول إليه لا يحتاج إلى دليل، فكل الطرق داخلنا تؤدي إلى القدس.

الرغبة؟ أم الرغبة المضادة؟ كل ما أدريه اننا قطعنا عشرين عاماً نبحث عنا. كل ما أدريه ان الشرطة التي لا جنسية لها لا دين لها ولا أرض ولا مذهب ولا عقيدة ولا زي رسمي.

كلهم كانوا حاضرين، من مختلف الأجناس والديانات والألوان والمذاهب والطوائف والمعتقدات والوظائف. كلهم شرطة يعملون في الطب والهندسة والمعمار والتجارة والسياسة والاقتصاد والدبلوماسية والثقافة والفنون الجميلة. كلهم شرطة حضرت معنا من داخلنا من خارجنا من تحتنا من فوقنا من أمامنا من ورائنا من رؤوسنا من أقدامنا، المهم انها حضرت.
لماذا حضرت؟

ببساطة الكلام الذي لا نسميه شعراً ولا نثراً، حضرت لتكتب سفر الخروج، ولم نفعل سوى التوقيع.

لم يكن خروجاً من بيروت.

لم يكن خروجاً فلسطينياً.

كان الخروج العربي من بوابات التاريخ الكبرى لا من دهاليز الجغرافيا الصغرى.

نحن الصغار لم نوقع

كان التوقيع على أجسادنا

كان التوقيع قديماً جديداً وما يزال.

كان التوقيع في مصر بالنيابة وبالأصالة، وفي لبنان كان تحصيل حاصل. كان التوقيع في كل مكان، لا في صبرا أو في شاتيلا وحدهما. في كل بئر في كل صحراء في كل جبل في كل بحر في كل سهل عربي، كان التوقيع العربي يجري وما يزال على آلاف صبرا وشاتيلا.

نحن كنا نبحث عنا، قاومنا التوقيع على دفتر الزمن الآتي، نمنا عرايا على «الرصيف».

خرجوا

ولكن الرصيف لم يتحرك.

بقينا حتى الفجر الذي يأتي ولا يأتي.

لم يعثر علينا أحد ــ علي فودة.

□ □ □

حيثيات واضحة قليلا

أصبح فتحي المحلاوي، فجأة، نجمًا. وكان التعريف الأول الذي تناقلته وكالات الأنباء، هو أنه شقيق نصحي المحلاوي المغني السري المعروف أكثر من بعض الأسماء العلنية. كان الحادث غريباً في بلد كمصر، ولم يكن أيمن الحانوت أو الحانوتي شخصية عادية. وقد لفتت أنظار العالم للوهلة الأولى الطريقة التي جرت بها الحادثة، فمن الذي استبدل الخنجر المزيف بخنجر حقيقي، ومتى وقع ذلك، وكيف؟ ثم لفت أنظار الدنيا أنه ليست هناك مشكلة بين أيمن وفتحي. ولم تخرج تحقيقات الصحفيين ورجال الاعلام الذين وفدوا من الشرق والغرب عن هذا الإطار. كان يعنيهم لدرجة الشبق معرفة الظروف التي حولت الصراع الدرامي في إحدى المسرحيات من التمثيل إلى الفعل الواقعي، ومعرفة الأسباب الدفينة التي دفعت صراعاً بريئاً من الأهواء الشخصية إلى مرحلة الدم الحقيقي.

وقد عادت إلى مصر فلورانس وصديقها مارك (الفرنسيان اللذان أبعدتهما السلطات المصرية منذ عدة شهور بسبب إيوائهما المغني نصحي المحلاوي أثناء فترة هربه، وبسبب تسجيلهما بعض أغانيه ومحاولة نقلها إلى فرنسا) وذلك لحضور محاكمة فتحي المحلاوي، وقد فوجئنا تماماً بقرابته لنصحي. قالت لي فلورانس حالما رأتني: أريد التعرف عليك منذ زمن بعيد، فقد كلمني عنك نصحي كثيراً، وكما تعلمين فإن مارك صديقي ليس مجرد مخرج سينمائي وإنما هو مناضل أولاً وأخيراً يعتبر السينما حزبه لأنه مستقل عن جميع الأحزاب. وقد كنا هنا العام الماضي لأننا قررنا معاً إنتاج فيلم عن مصر. عملي يقتصر على التصوير. والحقيقة هي أن نصحي ساعدنا كثيراً في رحلات متعددة داخل مصر. بفضله تعرفنا على الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وبعض الفنانين والأدباء المصريين الذين يحبونه ويحبهم. ولقد أذهلنا أنا ومارك، أنه شقيق فتحي المحلاوي الذي قتل أيمن الحانوتي، فهو لم يحدثنا عن أن له أخاً بهذا الاسم أبداً.

كانت فلورانس تتكلم كما لو أنها قررت أن يتم تعارفنا كاملاً مرة واحدة وللأبد. وكان فهمي وحسين وإبراهيم في الاتليبه الليلة الماضية حين أنهى إليّ ثلاثتهم نبأ السماح لمارك وفلورانس بالعودة إلى مصر، وأن المصورة الفرنسية ترغب في لقائي، وأن لديها أخباراً سارة من باريس مؤداها أن قراراً بالإفراج عن بعض المسجونين السياسيين في مصر على وشك الصدور. ولم تكن «علاقتي» التي مر عليها عامان سراً على أحد. لذلك كان الكلام يعني ضمناً أن الإفراج سيشمل على الأرجح صديقي الفنان الأسير منذ خمسة أعوام، سبعة أعوام، عشرة أعوام، ربما. لم يحدث قط أن سألته عن عدد السنوات التي أمضاها، ربما أكثر من هذا الرقم كثيراً. نعم أكثر. أكثر بالتأكيد، فقد حبسوه في كل العهود، من أيام الملك وهم يحبسونه. لم أعرف الشيء الكثير عن حياته الخاصة. حتى السجن أصبح بالتدريج من شؤونه الخاصة. ربما أصبحت أعرفه من حياته «العامة» كفنان صاحب رسالة. ربما أصبحت أفهمه أكثر منذ تغيرت أوضاع الخلايا في دمي، منذ اكتشفت حواسي الخمس ووظائفها داخلي وخارجي، منذ بدأت «أهتم». لم يعد الفضول وحده هو الذي يدفعني لمطاردة السر، وإنما وجدتني بالتدريج أتخذ موقفاً من كل سر. زمان، كان يعنيني مثلاً يا فلورانس أن أعرف لماذا اختار نصحي أن يهرب في بيتك، وماذا دار بينكما من أحاديث أو اتفاقات أو أي شيء، وكيف قرر مارك في المرة الماضية أن يسافر ويتركك في بيت واحد مع نصحي؟ أما الآن، فإنه يعنيني أن أعرف من أنت، وما هو الفيلم الذي تفكرين فيه عن مصر، وماذا أستطيع أن أفعل من أجلك، أنت ومارك، في سبيل إنجاز هذا الفيلم؟ كيف أستطيع مساعدتكما؟ ولكنك يا فلورانس لم تخبريني شيئاً عنه، عن ذلك الذي قد يفرجون عنه اليوم أو غداً أو بعد غد، ولا تدرين ماذا يعني هذا الخبر لو صح بالنسبة لي، لأنك لا تعرفينه.

أقبل مارك في هذه اللحظة كما لو أنه جاء في الوقت المناسب لينقذ فلورانس من صمتي، وبعد التعارف الودود السريع اتكأ على ذراع صديقته ليقول بلا مقدمات: شائعات كثيرة متناقضة تبدو كالكلمات المتقاطعة تطن في آذاننا كالزنابير بلا هوادة. مصرع إحسان خطيبة نصحي المحلاوي، انتحار شخص مهم يدعى محمود، مقتل عازر جرجس، وقبل ذلك كله وفاة سهى التي كانت تبدي في ما يقال اهتماماً ملحوظاً بنصحي، وغير ذلك مما سمعناه أو لم نسمعه من أحداث صغيرة أو كبيرة، هل له علاقة ما بتصرف فتحي المحلاوي، أو هل له علاقة بأيمن الحانوت؟

قلت أصحح له: الحانوتي من فضلك. ولكنك لم تذكر في سؤالك ما إذا كانت هناك علاقة بين كل ذلك وشركة النجمة؟ قاطعني: بالمناسبة، ما حكايتكم مع هذا البنك أو هذه

الشركة؟ باستمرار كان لديكم بنوك، فما الجديد، اللهم سوى التكنولوجيا الحديثة التي زودتكم بها الشركة الجديدة؟

قلت: لا يا سيد مارك. إن لدينا بنكاً شهيراً، صحيح، ربما يقل حداثة من الناحية التكنولوجية عن بنك النجمة، صحيح أيضاً. ولكن الصحيح كذلك أن البنك الوطني أو الشركة المحلية. . .

ولم أكمل الحديث، فقد ابتسم مارك، وهو يداعبني قائلاً: أريد أن أعرف مما تتكون مياه البحر الأبيض المتوسط، فكل الشعوب التي تسكن شواطئه عاطفية انفعالية ساخنة، متحمسة في الغضب والفرح على السواء، مثلك أنت الآن. واستدرك: ومثلي أنا أيضاً. كانت فلورانس قد تركتنا لأمر ما. قال: أتصدقين فعلاً أنه يمكن لشاطىء بحر أن يطبع سكانه بطابع نفسي مميز؟ قلت: بشكل عام، ممكن. ولكن ستبقى فروق عديدة بين سكان الشاطىء الأوروبي وسكان الشاطىء العربي على نفس البحر، قال: طبعاً، ولكننا في الأغلب جميعنا رومانتيكيون. وتهدج صوته قليلاً وابتلع ريقه كأي شرقي يخاطب فتاة للمرة الأولى: أتصدقين، إنني أشعر بالقرب منك بحرارة غريبة، كأنني أحبك. انطلقت مني الضحكة عفواً بصوت عال. فَتَحَتْ الدهشة عينيه بقسوة، مرتبكاً مستفسراً. قلت: أنتم أيضاً تعشقون من أول نظرة؟ إننا في الشرق لم نعد كذلك. قال: أنت تتكلمين عن الغرب، وأنا أتكلم عن نفسي، مارك اوفاليس هومير، ربما كان أحد جذوري مغروساً منذ القدم في أرض الشرق. استأنفت الضحك رغمًا عني، وأنا أقول: إذن فأحد جذورك يحبني والجذر الآخر يحب فلورانس، نريد معرفة بقية الجذور، خاصة وأن اسمك الكامل يوحي بتعدد الجذور.

في هذه اللحظة دخلت فلورانس تهلل، تصرخ، تضحك، تبكي، لا تتكلم. هدأت قليلاً بعد كوب من الشاي الساخن، وما زالت الدموع تلمع في عينيها، واستلقت على الأرض، وفجأة نهضت لتعانقني وتقبلني دون كلام، حتى ارتخت أعصابها فأسندت رأسها على ركبتي، وأغمضت عينيها وكأنها ستنام. وفي صوت محتبس النبرات راحت تقول كأنها تسير في حلم: بعد ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات، سيخرج نصحي من السجن. لقد شرعوا في الإفراج عن المعتقلين السياسيين منذ الصباح الباكر. يا إلهي. تأكدت من صحة الأنباء بنفسي، فقد وصل بعض المعتقلين فعلاً إلى منازلهم. ثم تنهدت فلورانس تنهيدة طويلة، ونامت.

كنت في داخلي أنتفض. كانت حُـمّى الخبر قد انتقلت بالعدوى من فلورانس إلـيّ.

انتقلت بالتدريج. ربما كان صديقي، حبيبي، من بين الذين تم الافراج عنهم. ربما لم يكن. ولكن. أين أنت الآن؟ فلورانس سعيدة لدرجة غير مفهومة. هل أحبت نصحي؟ أمور لا تعنيني. أحبك أنت. أين أنت؟ قال مارك: إنها ستنام، هل أرافقك؟ على الفور قلت: كلا. هرعت لأقرب تليفون. هل من المعقول؟ لا أحد. هرولت إلى الأتلييه. لا أحد. إلى أقرب صحيفة إذن.

بالطبع، لم تكن الصحيفة التي عملت فيها زمناً. دخلت إلى قسم الاستماع. سألت زميلاً قديماً يجري في القاعة الكبرى، ما الأخبار. لم يلتفت. سمعني وأجاب بلا روية: سقطت صور. كان زميله قد لحق به وكأنه يتقيأ الحنظل، وضع راحته على بطنه وهو يصحح: بل سقطت صيدا. لم أفهم. ماذا حدث؟ فلورانس مصوِّرة سينمائية حقاً، ولكنها عملت للتليفزيون زمناً طويلاً. صحفية بالفطرة. واضح أنها تركتني مع مارك وتوجهت لوكالة الأنباء الفرنسية أو مكتب القناة الأولى للتلفزيون الفرنسي. وإذن فهي تعرف أخباراً لم تقلها. قالت ما يثير وأخفت الكبير. ماذا أسمع؟ رأيت الهلع في العيون، والغضب يعتصر الوجوه بوحشية هائلة. إجتياح مرة أخرى؟أحدهم قال: طبعاً، غاب القط، العب يا فار. علّق الآخر: لا، ليس اجتياحاً كما تظنون. لسنا في عام ١٩٧٨ ولا في عام ١٩٨٠. إننا في يونيو ١٩٨٢، الذكرى الخامسة عشرة على هزيمة ١٩٦٧، قال الثالث: لا تعقدوا المسائل، إنه الغزو، بلا زيادة أو نقصان. الجنوب هو البوابة. ولكنه الغزو. إنهم الآن في خلدة، على أعقاب بيروت.

تراءت لي الماكينات معلقة في الفضاء، والأصوات قادمة من الجحيم، والأخبار لعنات تهطل بين البرق والرعد بلا حساب. واليوم، يقولون، تم الافراج عن المعتقلين، وغداً، من المؤكد، تبدأ محاكمة فتحي المحلاوي. يا دنيا. أحدهم يهمس للآخر: وأين العرب؟ أجاب بهمس أضعف: وأين نحن؟ قال الثالث: لا نحن ولا العرب، بل أين السوفيات؟ ضحك رابع في نهاية الممشى، وشهق خامس فانخلعت النظارة السميكة، تلقفها بيد وخرجت الكلمات من أنفه ساخرة: هكذا إذن، فإذا لم نوجه اللوم لأنفسنا فللعرب وإذا لم يكن للعرب فللاتحاد السوفياتي. أما أمريكا والغرب كله فلا يستحق منا. . . أكمل سادس «غير الشكر والتهاني، لماذا نلومهم فعلاً، ألم نقل أن الحرب الأخيرة هي آخر الحروب؟».

كدت أصرخ. لم أعد أحتمل. ما الذي يجري بسرعة الضوء. دماغي. يا رب. لم يرني أحد، وأنا أتسلل إلى الخارج. كانت السيارات الفارهة قد تلاحقت أمام المبنى الإعلامي الكبير. ولاحظت أن بعض الوجوه المعروفة قد تركت مكاتبها وأتت إلى الدار

الصحفية الضخمة. كانت شفتاي قد تيبستا، وأنفي من فرط النشيج المكتوم كان يرتجف. ورأيت فلورانس أمامي.

لم تكن وحدها. بجانبها شاب تعلو جبهته شبه دائرة صفراء يكسوها الغبار الحارق. وعيناه أعرفهما، أعرفهما تماماً، ووجدتني ارتطم به دفعة واحدة في حضن انشقت عنه شرارة في الرأس وانفجر نزيف العيون. أخيراً يا نصحي. ويا له من يوم. كيف، ماذا، أين، كم، من، لماذا، متى، ويا كل أسئلة جهنم في يوم الحشر. نصحي، أخيراً ها أنت ذا، إذن. وأصبح فتحي المحلاوي موالاً شعبياً في صدور الجميع وعيونهم، وأنت الذي غنيت لبهية وياسين وأدهم، وحتى سليمان الحلبي اخترعت له موالاً، ماذا ستغني لأخيك؟ وهل تدري أن اجتياحاً، يقولون، لجنوب لبنان منذ أول أمس، ولم نكن ندري، حتى عرفنا اليوم بواسطة الشِّعْر، صدقني، فقد انتحر الشاعر الذي لم تكن تحبه، خليل حاوي.

تعانقت الكلمات والدموع في حلقي، لم يسمعني صبحي، ولكنه ضغط على راحتي بما يشبه العنف، وهو يسألني: كيف تركتموهم يقتلونها؟ وتغيرت سحنته في لحظة، أحسست أنه سيتهاوى، كانت إحسان في عينيه عروساً لا تموت. سألني لماذا أخرجوني ومحاكمة أخي غداً؟ سألته: هل ترى العين المعدنية التي لا رمش لها ولا جفن، هل تراها وهي تتبعك، تتبعني، وربما تتبع مارك وفلورانس؟ وفلورانس تتابع توتراتي بجزع. ومارك يخرق أذني: تحبينه؟ قلت: نعم. مرة أخرى: هل تعشقينه؟ قلت: كلا. ارتاح. ولم يفهم شيئاً. ولكنه ارتاح طويلاً. ينظر في عينيَّ، وأنا أنظر في عينيَّ نصحي، وفلورانس تنظر في عيون الجميع. تلتصق بنصحي في هلع كأن أحداً سيخطفه، ويهمس مارك في رعب كأن أحداً سيخطفني: فعلاً أحبُّك. وضحك. بصوت عال تنطلق الضحكة. تحبني، وأنت؟ أين أنت. أسأل نصحي أين هو، فيقول: أكيد خرج. لم يكن معي، تعالي نذهب قليلاً. تكاد فلورانس أن تستبقيه عنوة. تكاد تشترط الذهاب معه. يتواطأ معها مارك. بنظرات عينيه يسألني، أحياناً يصدق اللعبة فيأمرني، وأخرى يأكلني. ولكني أذهب. مع نصحي، نذهب. هل يفهم مارك لماذا نذهب، وأنت، يا فلورانس؟ أنتما تحبان مصر، فلسطين، العرب. تعشقان الشرق والديموقراطية. تعشقان الشمس والحرية. عظيم، أما نحن فلا نعشق. نحن القتلى. الدم. وهل يعشق القتيل دمه؟ زمان، يقولون إن اليوم كان يعني سنة أو قرناً أو ألف سنة، لا أدري. الآن، أدري أن اليوم مليون سنة، يومنا ملايين السنين، من الجنوب إلى بيروت. يمتد خيط الدم في قلبي ومن قلبك، من الصعيد إلى الدلتا، يا ولنا، لولا.. لولانا.. يا مولانا، ماذا تقول، إنها آخر الحروب ولا تصدق ما يسمونه إجتياحاً. انتهت آخر الحروب

أقول لك، وراحت دماء شاعركم هدراً. منذ عشر سنوات، يعلّق المجنون: قتلوا مجنوناً آخر يدعى غسان كنفاني، ركب سيارته ذات صباح وأراد أن يدير المحرك، فانفجرت انفجاراً كيوم القيامة، وبين الأشلاء، أشلاء كنفاني والفتاة الصغيرة التي ركبت معه وأشلاء السيارة عثروا على بطاقة كتلك التي يضعونها فوق باقة الورد يوم الزفاف، أما نحن، هل تذكر يا نصحي، عندما اجتمعنا في مقهى «ريش» حوالي خمسين شاباً وكهلاً من أدباء مصر وفنانيها، ورحنا في جنازة رمزية نزفك يا غسان من ميدان سليمان باشا إلى شارع عبدالخالق ثروت حتى نقابة الصحفيين. ليلتها حققت المباحث وتحققت الأجهزة ومنعونا من إقامة ليلة المأتم في السرادق أو صفحات الجرايد. وأين أنت الآن، أين؟

وكان نصحي قد استطاع أن ينفرد بـي لحظات، تكلم خلالها بالتليفون عدة مرات، حتى عاد إليّ يقول إنه في الطريق. في الطريق؟ هو؟ من هو؟ هل أنا أبدأ معه اليوم قصة جديدة، أم أن قصتنا بدأت منذ عامين؟ هل يمكن لقصص أن تبدأ في العادة رغم حواجز السلك وطغيان العين المعدنية والأيام الممتدة؟ قال لي نصحي: لا أعرف ما إذا كان من المناسب أن أحضر لقاءكما الأول، ومن جهة أخرى فإني مع أهلي أريد أن أستعد للغد، ثم أنني لا بد أن أزور عائلة إحسان، قلت له: ابق معنا قليلاً، لسنا أطفالاً. قلبـي يركض مسافات هائلة، وفي اتجاهات متناقضة. وها قد وصل. لم يتغير شيء سوى الثياب. ربما لم يستحم بعد. وتحجرت العين المعدنية في هواء المقهى، لا تريد أن تنصرف. سجينان مفرج عنهما منذ ساعات فقط، واجتماع عاجل وعلني ومعي؟ وكان اللقاء حميًا، ولكن هادئاً. كما لو كنت أراه للمرة الأولى في لحظة، وكما لو أنني أعرفه منذ سنوات طويلة في اللحظة التالية. كأنه لم يسجن قط، وكأنني سجنت معه، أريد أن أقبله بشراهة ولا تزجرني اللحى المتكاثرة أو بياضات الحجاب المتعاظمة. ولكنني لا أشعر برغبة في تقبيله، وإنما في أخذه فوراً إلى غرفة صغيرة نلتهم فيها بعضنا إلتهاماً. ثم تبرد ارتجافاتي قليلاً وتهدأ تدريجياً حتى تخمد نهائياً، فابتسم في وجهه بعينين مفتوحتين، وهو يقول فجأة كما لو أنه استيقظ من حلم أو أراد أن يوقظني من حلم أو كأنه مستمر في حوار قديم:

ـ كل الاتهامات صحيحة، فقد كنت أنا الذي رسمت للطلاب شعارات الشتاء في ٦٨ و٧٢ وكنت أنا الذي رسمت للعمال ملصقات الشتاء في ٧٥ و٧٦ وكنت أنت يا نصحي المحلاوي الذي غنيت لهؤلاء وأولئك. ولكن الشيء المؤكد هو أنه لا أنا ولا أنت كانت لنا أية علاقة بما جرى في شتاء ٧٧.. وللأسف، للأسف، لم تكن لنا أية علاقة، فلماذا؟

في البداية شعرت بوخزة وكأن الحديث موجه لنصحي، وهذا منطقي وطبيعي تماماً، فأنا من أكون بالنسبة لهذه النماذج من البشر؟ وقطع نصحي خواطري، وهو يجيب عن السؤال المطروح:

ــ بل لماذا تشتعل الدنيا في بلادنا شتاء؟ ارصدوا معي: حريق القاهرة، العدوان الثلاثي، انتفاضات الطلاب والعمال والمثقفين، كلها في يناير بالذات، وكأن الغابات تحترق في الشتاء.

قلت بصوت غير مسموع «صدقت». ولكن الراديو، من محطة لندن، كان يتحدث عن شاب مصري قاتل في خلدة حتى آخر رصاصة معه، ثم دبر مقلباً انتحارياً للمهاجمين، بحيث استطاع أن يبيدهم جميعاً وتنجو المجموعة التي كان يقودها بكامل أفرادها، كان المذيع ينقل دهشة المراقبين، فهذا الشاب المصري كان متطوعاً لا جندياً محترفاً، وكان يدعى سعدالله.

سعدالله؟ أيكون هو نفسه؟ قريب عوضين الذي فرح بلقياي وغضب في نفس الوقت؟ فرح عندما سألته عن عوضين وغضب عندما سألته عن شلبية، أليس كذلك؟ أيكون هو؟ والخبر لا يشفي غليلاً، هل نجا سعدالله أم استشهد؟

ويبدو أنني سرحت بعيداً، حتى وجدت من يوقظني، وكان نصحي قد ذهب لا أدري متى، سائلاً بعذوبة: أين سنبيت ليلتنا إذن؟ أين؟ وقد أصبح المكان الزمان، كل المكان وكل الزمان، ليلتنا وحدنا، ليلتنا نحن، دون سوانا، ليلتنا الكبيرة، أليس كذلك؟ صوتي لم يخرج. ولكنه قال فجأة: أكبر ليالينا لم تأت بعد. قال أيضاً: كيف حدث ما حدث؟ اخفوا عنا الخبر في البداية، ثم عرفنا كل شيء. لم نصدق. لم يكن خبراً قابلاً للتصديق، رغم أن موت سهى وانتحار محمود ومصرع إحسان ومقتل عازر، جعلنا في الآونة الأخيرة نصدق ما لم يكن في أي وقت قابلاً للتصديق. قلت له: كاغتيال عوضين، وكاختفاء عبدالناصر؟ وبالمناسبة، فهم يفرجون عنكم دائماً واحداً واحداً وينسون إسماعيل المهدوي. لعلهم لا ينسونه تماماً، بل هم يتذكرونه على طريقتهم.. يقولون إنه ليس مسجوناً، إنه مريض في المستشفى، قلنا إن العلاج ميسور في بلاد أخرى، ومضمون النتائج. رفضوا، يرفضون الافراج عنه بحجة أنه مريض وليس معتقلاً، كوضع البابا شنودة تماماً، فهو ليس مسجوناً ولا معتقلاً. وحتى بلغتهم هذه الأيام فهو ليس محتجزاً ولا متحفظاً عليه، ولكنه غير معترف به. أو أنهم لا يعترفون بوجوده. دنيا غريبة. بدأ صوتي يخرج بلا استئذان. من ليس لديه بابا هذه الأيام يبحث عن بابا، أحياناً يصنعونه، ونحن لدينا بابا، أقدم بابا في الدنيا،

ولكننا نفرط فيه كأنه هضبة الأهرام أو مؤسسة السينما. بدأ صوتي يعلو. وضع راحته على فمي وهو يبتسم: أنا أحبك، وهذا يكفي. رفعت يده عن وجهي: وأنا أيضاً أحبك، هذا وحده لا يكفي. قال: لقد تغيرت. قلت: كثيراً، أكثر مما تتصور، أول تغيّر هو أنني أحب، وثاني تغيّر هو أنني أحبك أنت، وثالث تغيّر هو أنني أرى الحب وحده لا يكفي. ما رأيك؟ هل ترغب في معرفة التغير الرابع؟ لقد أصبحت أعرف الكراهية. إنني الآن أستطيع أن أكره بوضوح تام. في اللحظة التي فيها أحببت، أحببتك، اكتشفت أيضاً كنز الكراهية. نعم، إنه كنز. الكراهية تعني أن لي خصوماً وأعداء. وأن يكون لي خصوم وأعداء، فهذا يعني أنني موجودة، حية، كائنة، أتنفس، مستقلة. من قبل، صدقني، لم أكن أحب، وبالتالي لم أكن أكره. لم يكن لي عشاق ولا معجبون ولا خصوم ولا أعداء. لم أكن شيئاً على الإطلاق. أما الآن فلا، لا، لا.. صوتي يعلو، صحيح، يقترب من الصراخ، ربما. ولكن اسمعني، وحاول أن تفهمني، أنا كذلك أسمعك وأحاول أن أفهمك. إنها مهمة صعبة، فما جرى ويجري من حولنا عسير الفهم. ابن من ذلك الذي أسقطته شلبية عشية خروجها من القرية، ابن عوضين أم ابن الأسطى؟ وابن من الذي أجهضته طعنة المحلاوي في صدر الحانوتي، هو ابن شلبية حقاً ولكن ابن مَن مِن الرجال؟ وهل حدث أن أجهضت بين المرتين الأولى والأخيرة؟ وأين هي الآن؟ منذ نقلوها وهي تنزف على خشبة المسرح، ضاعت سنة كاملة لم يرها أحد. عادت إلى الاختفاء. هكذا هي دائماً، تظهر بمعجزة، وسرعان ما تختفي طول الوقت.

همس في حضني: هل ما زلت شديدة الانشغال بشلبية وعوضين والمهدوي وعبدالناصر، إنني أكثر منك انشغالاً ولكن بمقتل الحانوتي ومحاكمة المحلاوي، قلت له: لا تشغل بالك، فاليوم سوف تعرف كل شيء في المحكمة. اليوم هو النطق بالحكم. حكايتك أيسر منالاً، أما حكاية عوضين والمهدوي وعبدالناصر، فهي أكثر عسراً بما لا يقاس... فالقاضي لم ينطق بحكم على الإطلاق. ادعى أن القضية غير عادية، ولن يكون الحكم فيها عادياً. إنني شخصياً لم أفهم ما يعنيه. لقد استمعت إلى آخر نشرة إخبارية من محطة لندن، وفهمت أن سعدالله قريب عوضين لم يُقتل، وأنه في الطريق إلى مصر عن طريق البحر، وأن شاباً فلسطينياً يدعى علي فودة قد قتل. ولد يكتب الشعر والنثر ويطبع جريدة صغيرة يوزعها بنفسه على المقاتلين سماها «الرصيف» المكان الذي تصدر منه. مات علي فودة ونجا سعدالله. لا أدري لماذا تذكرت نجيب سرور. كلما سمعت كلمة الرصيف تذكرت نجيب، هذا الكهل الحزين الذي كان زينة الشباب. ربما لم يكن عبقرياً. ولكن ما هي العبقرية؟ ليس من كتب الأشعار والمسرحيات هو العبقري نجيب سرور، بل

هو الرجل الذي حمل ولده على كتفه ومضى حافياً على أرصفة المدينة. هو الرجل الذي كان يشرب ويشرب حتى الفَلَسْ والإغماء. هو الرجل الذي أثبت أنه لا يقل أهمية عن زملائه فاعتقلوه كالمهدوي في السجن والمستشفى وأقبية التعذيب. نجيب هو الرجل الذي بصق على العالم في وجوهنا علناً وفي عز الظهر، ومات. منذ أكثر من العشرين سنة بعامين قتلوا رجلاً على عتبة القبو. كان اسم الرجل شهدي عطية الشافعي. كان الرجل يحب مصر وجمال عبدالناصر، كان يحب الفقراء، فقتلوه. لماذا يموت الجميع، ولماذا ينتحر الجميع، ولماذا يقتل الجميع؟

لا أدري ما الذي حدث بالضبط، فكأنني كنت أحلم بصوت عال، أفقت على قبلة حارة تستخلص عصير العمر من شفتي، تمتص رحيق القلب وتغذيني بلعاب من قطرات ماء الجنة. لم ننم. لم يؤرقنا شيء. كان عطشاناً كأنه لم يشرب منذ ولد. وكنت أرويه بلذة لم تخطر لي في المنام ولم أشعر بمثلها في حضن رجل. كما لو كنت قد اختزنت لهذا الرجل كل ما تملكه نساء الأرض من طاقة على الحب. غرقنا، ولم أعد أعرف ما إذا كنت يقظة أو نائمة. واختلط العرق المتسرب من فروة الرأس بالسوائل الحارة والباردة المنبثقة من مسام الجلد الساخن والمثلج، وامتزجت عصارات الحب القادمة من الأدغال ومن أحشاء الصحراء المكتوية باللهيب العذب، انتعشت كل أعضائي وارتخت كل أعضائي وتصارعت كل أعضائي وتوترت كل أعضائي، وتمزقت الأظافر بالأظافر، انسحقت الأنف بالأنف والأذن بالأذن والبطن بالفم والصدر بالشَّعر. وأكيد أنني كنت أتلظى بنيران الفردوس وأنسام الجحيم في وقت واحد، حتى أنني رأيت ما لم يره الأحياء والأموات. كانت معركة بكل ما للكلمة من معنى، وتناثرت الدماء بكل الألوان وكل أحجام البقع على كل عضو من جسدينا، جسدينا أقول؟ لعلنا كنا مئات الأجساد، وربما كنا جسداً واحداً، لا أدري. ولكننا بالتأكيد لم نكن جسدين محددين واضحين. أحياناً رأيتني عشرات الأيدي وآلاف الشفاه وملايين الخدود، وأحياناً لمستني، فإذا بي معه بطن واحدة ورأس واحدة وساقان اثنتان وذراعان فقط. كانت معركة تخبو وتتجدد، ينتصر فيها الجسد دائماً وينهزم الماضي الثقيل. اغتسلنا في بئر بلا قرار وغرقنا في قعر القاع واكتوينا، انصهرنا، ذبنا، ولم ننم في ليلتنا. لم نكن نختصر الزمان، لم نكن نسرقه، كنا نعطي لروحه جسداً يحترق في أتونها، ولا يتحول مطلقاً إلى رماد. أشم جسده بقعة بقعة ويلعق جسدي ثم آكله ويأكلني، أهلكته وأهلكني. صرخت وغنيت وبكيت، بلا صوت. ولكني حلمت ونسجت الكوابيس وارتحلت إلى عوالم الخرافة وأكوان الأساطير فسمع الجيران صوتي وسمع جيران الجيران صراخي وسمع جيران جيران الجيران نشيجي وآهاتي وتأوهات صدري ومناجيات خلايا دمي.. ودمه.

والدم الأصلي يفور على أرض لبنان ويغور في أعماقها، ولأول مرة ربما لا تتضارب إذاعات العالم حول خبر في الشرق الأوسط. أتسمع؟ يسمونه الغزو علناً وبصراحة مطلقة. أتسمع؟ إنها الحرب. وأعطني شفتيك لأرحل. إنها الحرب. وأعطني أذنك ليتجول لساني في التجاويف الخفية. إنها الحرب. واعطني ذقنك لألعق شعيراتها بفرحة السعار الوحشي كأننا نموت. إنه الموت. أتسمع؟ إنه الموت. موتنا. تعال يا حبيبي، تعال نموت، فقد عشنا أطول مما ينبغي. تعال نتمرغ في ظلال الموت، فلبنان يحترق، تموت السنابل قبل أن تنبت، إنهم يقتلون الأزهار والأجنة في بطون الأمهات، يتأكدون من الموت الفلسطيني عشرات المرات بالموت اللبناني والسوري واليمني والليبي والتونسي والمصري. يتأكدون من الموت بالموت، بالمزيد من الموت، بأن يصبح الموت هو القاعدة الصحيحة، والاستثناء هو الهدنة بين موت وموت. بين لبنان وفلسطين. بين العرب والعرب. أين العرب؟ استمع؟ لا بد من الأطلال أولاً حتى يبدو الغناء. لا بد من الجمجمة أولاً حتى نقدم فيها الخمر. لا. لست أهذي، ولكن أنت الذي لا تريد أن تسمع. منذ شهور وهم يحاكمون فتحي المحلاوي. أصبح موالاً. مات الحانوتي، وجاء السندان. وما زال الأناضولي يمسك بمطرقة الزمن الضائع. بين المطرقة والسندان أضحى فتحي هو السؤال وهو الموال.

كان يرش ماء بارداً على وجهي حين استيقظت من اليقظة. ومن خلف الرموش النعسانة كانت الشمس قد استدارت في النافذة المقابلة على هيئة ضوء ناصع البياض، وصهد خانق، وزفرات مكبوتة متوثبة.

قال لي بلهجة آمرة كلها عذوبة الصحو: نهارنا.سيكون أطول من ليلتنا وأكبر. الله أكبر، فأخبار الغزو من جهة والمحاكمة من جهة أخرى، وأنا وأنت. ضحكت قائلة: وانا وانت، رقِّصْني يا جدع. وكأن سكيناً سقطت بين الشفتين، ذبحت الكلمات، سرقتنا السكين فتكدرنا من جديد. قلت بانكسار: لا تنسَ نصحي، اليوم يجب أن نكون إلى جانبه طول الوقت. قال: حين قلت أننا محاصرون بأخبار بيروت والمحاكمة قصدت سعدالله من جهة ونصحي من جهة أخرى. أنت التي تعرفين سعدالله، ولا بد من البحث عنه. إنه قادم من لبنان، وهذا يكفي. أما نصحي فإننا سنكون معه بعد لحظات، لن نتركه أبداً. نعم، لن نتركه أبداً، لا بسبب محاكمة فتحي فقط. وإنما بسبب نصحي نفسه. نصحي في حالة نفسية مزرية. لم يكن يحب سهى حقا، ولكنها ماتت وهي تحبه. إحسان حبه الأكبر والوحيد قتلت بطريقة وحشية. أخوه قتل الحانوتي وسيحكمون عليه بالإعدام قطعاً. لذلك فنصحي في حالة مروعة. كان الله معه. قبل أن تدهمه الأحداث كان يفكر جدياً في ترك مصر.

كأن حجراً سقط فوق رأسي من مسافة بعيدة أدخلني في ما يشبه الدوخة لا الغيبوبة الكاملة. قلت له:

ــ لم أفهم كلامك جيداً، هل معنى ذلك أن نصحي المحلاوي قرر مغادرة مصر؟

□ بالضبط

ــ كيف؟

□ هكذا

ــ قصدت كيف يمكن ذلك؟ إنه لا يجيد في الدنيا سوى الغناء. ونوع محدد من الغناء. قد تتسرب أغانيه في كتب في مجلات في أشرطة إلى كل الدنيا. ولكن الحياة نفسها شيء آخر. هل يستطيع أن يعيش في باريس مثلاً، ويكتب أغانيه من هناك إلى الشعب المصري؟

□ القضية بالنسبة له ليست على هذا النحو من التبسيط الذي تعمدين إليه. إنه يشعر بالقهر الشديد على كل المستويات، وربما من وطأة القرف يفكر في ما يسمونه هذه الأيام باستراحة المحارب

ــ لا.. ليس مثله من يستريح.. راحة أمثاله هي الحرب، هي المعارك.. البطالة بالنسبة له هي الموت

□ الراحة شيء والبطالة شيء آخر. أليس من حق المناضل أن يرتاح قليلاً؟

ــ إنها إحدى البدايات التي تنتهي بهؤلاء المناضلين إلى الراحة الأبدية

□ ماذا تقولين؟

ــ الراحة الأبدية. تتعدد البدايات والنهاية كالموت واحدة. هذا يريد أن يرتاح قليلاً. وذاك محاصر. والآخر مسكين يستدين قبل نهاية الأسبوع الأول من الشهر. والرابع يحتاجون إليه في الخارج كي يذيع أخبارهم ونشرها ويدافع عن الحريات. وهكذا، وهكذا بدأت موجات إثر موجات في الهجرة الاضطرارية المؤقتة، وإذا بها تنتهي إلى استقرار في نفط الخليج أو في غابة الغرب. والنتيجة؟

□ النتيجة

ــ إنني لا أسألك، فسأجيب فوراً، والنتيجة هي.. امسك يدك بالأخرى، وعد أصابعك معي: أولاً، فقدت مصر عملياً ــ فالظاهرة شاخت وتجاوزت السنوات العشر ــ بعضاً من خيرة مناضليها وعقولها. ثانياً، وبما أنه لا يوجد شيء اسمه الفراغ فقد ملأت أماكنهم في الصحافة والثقافة والتعليم أسماء ضحلة الموهبة عديمة الجدوى كثيرة الضجيج فقيرة العطاء. ثالثاً، أعطوا ما لا يملكونه لمن لا يستحق فقد اتخذهم البعض ذريعة للنيل من

مصر ذاتها لا من النظام. وهو هدف أبعد ما يكون عن خيال غالبيتهم التي تؤمن بشرف أنها تؤدي دوراً في الخارج.

□ يا حبيبتي أنت تبالغين كثيراً كثيراً، والقصة كلها بدأت برغبة نصحي في السفر إلى الخارج.. كثيرون سافروا وعادوا، كمحسن الخياط وعدلي فخري وسمير عبدالباقي، حتى الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم كانا يرغبان في السفر تلبية لدعوات...

ــ أرجوك.. أرجوك.. السفر العادي لأسبوع أو لشهر شيء، والسفر للإقامة المؤقتة أو الدائمة شيء آخر. نجم وإمام لم يفكرا مطلقاً في السفر للإقامة في الخارج. أمل دنقل سافر وعاد، رغم كافة مغريات الإقامة في بيروت أو في باريس.

□ المغريات في الخليج من فضلك.. بيروت فيها جحيم الحرب وأوروبا فيها جحيم الغلاء والغربة. ثم إنك تنسين فعلاً هجرة الملايين من المصريين إلى الأقطار العربية.

ــ هذه قصة أخرى.. قل لي بصراحة، هل ترغب أنت شخصياً في السفر إلى الخارج؟ أنت تستطيع الحصول على عمل. أما أنا فمارك أكد لي أنني أستطيع الحصول على عمل من اليوم الأول.

□ أنا مستحيل.. مستحيل.. لقد أصبح السجن أو المعتقل بيتي، ومع ذلك فأنا لا أتخيل نفسي مطلقاً لاجئاً في الغرب أو باحثاً عن النفط.

ــ وأنا مثلك.. فلماذا تدافع عن نصحي؟ نصحي الفنان المناضل، والذي هو الآن شقيق فتحي المحلاوي البطل، كيف يسمح لنفسه بالتفكير في هذا الأمر؟ إنني مضطرة أن أسأل نفسي وربما أسأل فلورانس، هل لها علاقة ما بمثل هذا القرار عند نصحي؟

□ إنه ليس قراراً بعد. مجرد تفكير. ثم إنك تغالين في تسطيح المسائل وتبسيطها، إرحمي الناس، يرحمك الله.

لم نكن قد وصلنا الشارع المؤدي إلى المحكمة حين اخترقت آذاننا مظاهرة عاتية يتقدمها بعض الفنانين كنادية لطفي ونور الشريف وعادل إمام وصلاح الصاحي، تحمل الرايات الفلسطينية واللافتات المكتوبة باللونين الأحمر والأسود عن لبنان وفلسطين. لم تكن وسائل الإعلام المحلية قد أعطت صورة قريبة مما حدث ويحدث. ولكن أجهزة الراديو التقطت هذه الصورة من المحطات الأجنبية، فكانت هناك مشاعر حادة متناقضة بين الغضب من إخفاء الحقيقة وما يشبه الإحساس بالذنب. عندما قلت لعم أحمد في الاتلييه: وايه ذنبنا؟ قال بلا تردد: الذنب كله ذنبنا يا ست هانم، إحنا السبب. وقالت لي كريمة وهي تمسح موائد الحديقة في جروبي عدلي: لولانا ما كان حصل يا ستي اللي حصل. واكتفى أبو شلضم وهو يعطيني كيلو اللحمة: راحت. راح كل شيء. راحت أيام زمان. وراح لبنان. والله

لا يرحم اللي كان السبب. ملعون أبو اللي كان السبب. وبصق على الأرض كأنه يضربها بقدمه.

وقد فهمنا أن ما يشبه الاتفاق على رحيل المقاومة من لبنان سيجري تنفيذه بين ساعة وأخرى. وقبل أن نندمج في المظاهرة بلحظة واحدة شاهدنا نصحي ومارك وفلورانس وفهمي وإبراهيم وحسين ونوال في الصف الثالث يهتفون، وقد حملوا لافتة كبيرة غطت على بعض الوجوه التي نعرف أصحابها. ومنهم أدركنا أن المظاهرة ستضرب عصفورين بحجر، فهي مظاهرة من أجل لبنان وفلسطين وفي الوقت نفسه سوف تتجه إلى المحكمة لتشهد وتسمع النطق بالحكم في قضية فتحي المحلاوي. وكنا نقترب من المفترق المؤدي إلى المحكمة مباشرة، حين بدأت الهتافات اللبنانية الفلسطينية تختلط بأغاني نصحي المحلاوي وتمتزج بمواويل أدهم الشرقاوي وبهية وياسين وسليمان الحلبي وفتحي المحلاوي.

وكانت هذه الفوضى من الأصوات الزاعقة والألحان والغناء قد أسكتت المناقشات الهامسة حول مصير فتحي. كان البعض يقول أنه أخطأ مرتين، الأولى لأنه قتل، والثانية لأنه حين قتل لم يقتل الفرقة الحانوتية كلها بل رئيسها وحده. وكان البعض الآخر يقول أن فتحي خرج على النص، فما علاقة ما ذكره عن أسرة الحانوتي والقرابة التي تربط أيمن به وبشركة النجمة؟ إنها خروج صريح على النص المسرحي. وقد حبسوا سعيد صالح عدة أسابيع لمثل هذا الخروج بل لأبسط منه بكثير. ولكن الخروج الأشنع على النص، هو استبدال الخنجر بخنجر حقيقي وارتكاب جريمة قتل حقيقية. كان البعض الثالث يرد على ذلك بأن أيمن الحانوتي نفسه هو الذي خرج على النص، وأن خروج فتحي المحلاوي كان مجرد ردّ فعل.

وأثناء هذا النقاش الذي غطت عليه صيحات المظاهرة وضجيجها العاتي تكهرب الجو فجأة بوصول عدة سيارات شرطة يصدر عنها الزمور المميز والذي يفرض على الناس أن تفسح طريقاً للمرور. ولكن أعداداً هائلة من رجال الشرطة سارعوا بالهبوط لإرغام الناس والمتظاهرين والسيارات العادية على الابتعاد. وسمعت أحدهم يقول: أعوذ بالله، الشرطي لم يعرف كمال ناصر. سألته: من هو كمال ناصر؟ قبل أن يسخر لجهلي باغته شاب: يا رجل، كمال قتلوه منذ تسع سنوات في بيروت، هل نسيت أنهم نزلوا إلى الشاطىء من جهة فردان وقتلوه هو وكمال عدوان وأبو يوسف؟ عقّب الأول بخجل: يخلق من الشبه أربعين، أنت مثلاً تشبه راشد الخاطر تمام التمام. سأله الثاني: ومن يكون بسلامته؟ فرد عليه بالسخرية ذاتها وكأنه ينتقم: يا جاهل، إنه سفير قطر لدى الجامعة العربية في تونس.

وكاد يغشى علي من الضحك. كانت إلى جانبي عطيات الأبنودي وزوجها الشاعر عبدالرحمن فكتمت أنفاسي بسؤالها لي: هل تأتين معنا لزيارة أمل دنقل في مستشفاه؟ لقد واجه الحانوتي ذات يوم قبل فضيحة النجمة وقال له: إياك، إياك أن تفعلها. قلت لها: هس، يكفي الرجل مرضه، هل تريدين أن يطلبه المحامون للشهادة؟ قالت: اليوم، ليست هناك مرافعات ولا شهود، هناك الحكم وحده.

في هذه اللحظة تماماً كانت سيارة السجن قد وصلت، ولم يكد فتحي أن يهبط منها بابتسامة مهللة وإصبعين يرسمان علامة النصر حتى انطلقت رصاصة في صدره حولت المكان إلى بركة دماء.

□ □ □

موّال صعيدي

لا تقولوا إنه «كان»
فأنا كائن
وسأكون
لا تقيموا المآدب والسرادق وليالي الذِّكر والمآتم
فأنا أعرفكم واحداً واحداً
هذا أخانا الذي في المباحث
وذاك أبانا الذي في المخابرات
يا آبائي الزناة
ويا اخوتي
كونوا شجعاناً لمرة واحدة
ولا تسيروا في جنازتي
وأقيموا التماثيل ليهوذا، خذوا الثلاثين من الفضة
ولا تأكلوا جسدي
دمي عليكم وعلى أولادكم.
إسمي أمل دنقل.

تعرفونني؟ وستقولون لا، ليس هذا «شعره»، وستذيعون في أرجاء الدنيا أن الموتى لا يكتبون الشعر ولا النثر. وستصدرون بيانات التكذيب محلاة بصوري، وها أنذا أراكم تترحمون على من «كان» والذي كان. اسمعوني يا قتلة، فلا شيء يموت. حتى أنتم لا تموتون. فقط، اخلعوا ثياب الرهبان ليظهر القوادون. وانفضوا عنكم عمائم الأولياء لتبرز جماجم اللصوص وقد أخفيتم فيها خبر الفقراء وعرق اليتامى. انزعوا سراويلكم المذهبة

ليتفرج الأولاد على أحزمتكم الناسفة وخزائن قنابلكم وكرابيج أسلافكم وسيوف أعمامكم وقوائم عملائكم وضحاياكم.

أنا أمل دنقل، لست أول الضحايا ولا آخرها. ولكن قصيدتي السرية ستطاردكم إلى آخر المنتهى، فلن أسمح لجبان منكم أن يتلفع بجسدي ليخدع قلوب الأطفال أو يزدان بدمي ليبيعه في أسواق الدعارة. لن أمنحكم يا عتاة الجريمة في كل العصور، فرصة شرائي ميتاً وقد استحالت عليكم، وأنا بينكم. لن أمنحكم يا عبدة الشيطان فرصة غوايتي في القبر لأشارككم صلاة الفجر.

وأي فجر؟

ها هي خيوطه تلتمع في ناظريّ، أنا ابن العشرين القادم من الاسكندرية كقطر الندى، وكنت قد تركت عشيرتي الجنوبية في أقصى الصعيد وذروة المجد الضائع.

أتيت وبطاقة هويتي هي القلب المضطرب بين حنايا الضلوع.

قلتم أنه «مومياء أخناتون»

وقلتم «الشاعر الشعبي»

ولم أكن هذا ولا ذاك

كنت أمل دنقل وما أزال شاباً في العشرين حين اهتزت الأرض تحت قدميه، فإذا به في قاهرة المعز، نقطة العقد بين البحر والجبل. شاباً في العشرين حين لفته سحابة تحت سماء مرعدة، فإذا به على الأسفلت البارد همزة الوصل بين شاطىء الشمال الساخن وشاطىء الجنوب الوعر. شاباً في العشرين، نصفهم كان عمره ويزيد قليلاً حين دهمته في مدرسة «قنا» أخبار «الحركة المباركة»، وزاد العمر أكثر حين اقتحمته أخبار السويس وبورسعيد، وزاد العمر أكثر وأكثر حين باغتته أخبار الشام وأصبح وطنه الاقليم الجنوبي من جمهورية سمع بها منذ مئات الأعوام.

وبين المباغتات والاقتحامات والمفاجآت، كانت العينان تتسعان إلى الداخل في الشرايين والأوردة، وتلملمان مشاهد الحكايات والأبيات والأحدوثات التي سكنت في القاع زمناً بعد زمن. كنت لا أنام في الطفولة والصبا إلا إذا قرأت القرآن أو الانجيل أو التوراة أو التغربردي أو الزمخشري أو ابن أياس، وإلا إذا تكلمت مع مقابر ومومياءات وتماثيل وأعمدة وأبهاء تحكي الاعترافات السرية والأخبار المزورة. كنت أقرأ وأقرأ وأسمع وأسمع وأرى وأرى ولا أتكلم، أو أنني كنت أكلم نفسي كلما لاحظتها قادرة على أن تسمعني وكلما كنت مضطراً للكلام معها.

كان الكلام المكتوب وكانت المقبرة الراسخة وكان الرسم والنحت، يقولون لي كلهم

الشيء ونقيضه. ربما كان الشيء مكتوباً أو مسموعاً أو منحوتاً أو مرسوماً، ولربما كان نقيضه صامتاً متخفياً مقتولاً ممنوعاً من الكلام، فمن أصدق؟ وربما العكس، ربما كان النقيض بارزاً متحدياً ممسكاً بالقوس والسهم، ولكن الشيء نفسه لا أثر له في «الوجود»، فمن أصدق؟

واستطالت «ربما» في خلاياي، حتى أمسى جسدي على صورتها، أما روحي فهي المداد الذي سطرها.

ولم يكن اليقين غائباً. كان حاضراً على يميني وعلى يساري وأمامي ومن خلفي. كان اليقين حاضراً في «الذكرى» التي تنفع المؤمنين، وكان اليقين حاضراً في «المؤمنين» الذين لم يكن ينفعهم شيء.

هكذا أقبلت على القاهرة أول الستينات، وفي جعبتي «ربما» هائلة تملأ الكون، وفي يقيني غياب مطلق لصورة الميزان وخيال الشعلة. وكانت أحداث السنوات الثماني الماضية تلسع وجهي النحيل المستطيل بنسمات صوفية لا ترى.

وكالهاجس المضيء بنور الورد الأزرق، حلمت بقرار التغريبة يأخذني كالمجذوب إلى الحسين، بلا أب ولا أم ولا أخ ولا صديق ولا صبية ولا قرش، رغم توفرها جميعاً في ظلال الجبل الأصفر، رحت أهيم على وجه الشعر بحثاً عن قصيدة.

لم تكن «ربما» في حياتي موقفاً أو كلمة، وإنما كانت حياة أشبه ما تكون ببراءة الجنين قبل أن يقطع حبله السري. براءة الذي لا يدري ولا يعرف، وهو أدرى وأعرف من الجميع. حتى أنني كنت أسمعهم يشيرون إلى ظهري هامسين «إنه الخبث» فلم أكن أستلقي على قفاي من الضحك، وإنما كنت أبتلع دموعي فتزغرد أمعائي فرحاً ويأساً. هل «ربما» جعلتني اثنين أحدهما مع والآخر ضد؟ ربما. هل لونتني رمادياً فصرت خارج الصفحة لا مع ولا ضد؟ ربما.

كل ما أدريه الآن، هو أنني في اللحظة التي عشقت فيها القاهرة عشقت أيضاً وللمرة الأولى البحر والجبل، وفي اللحظة التي وعيت فيها أن «التاريخ» مأساة وعيت أن الحياة برمتها تنويعات على نفس اللحن، وفي اللحظة التي «حضر» فيها سكان السيدة وبولاق والسبتية والشرابية حضر أيضاً أهل النجوع والكفور والعزب النائية والصغيرة.

وفي تلك اللحظات العربيدة المليئة بأكثر الظن والغنية بحسن النوايا رأيتها، ضبطتها، تلك الرابضة في عمق الحشايا تبتعد عن كل ما هو كبير وكأنه غير موجود. الشعارات الذهبية والأغاني الفخمة والتنظيمات اللامعة، كلها تغيب عن مرمى النظر. وحين رحت أقفز من الخليل بن أحمد إلى بيرم التونسي إلى فؤاد حداد إلى صلاح جاهين، وجدتني أبتعد أيضاً عن

كل ما هو كبير وكأنه غير موجود. الموضوعات الخلابة والعناوين الرائعة والمضامين التي تدمي الأكف.

قال لي الأول: أنت معنا، فلماذا لا تأوي في بيتنا؟ هل تخاف؟

قال لي الثاني: أنت شاعر، فلماذا لا تغنينا؟ هل تخاف؟

كان «الخوف» خبز الأيام الغبية. كان أصحابي يعلقون المرآة في رقبة القط وليس الجرس، كانوا فرساناً باعوا الآلهة واشتروا بحلي نسائهم ذهباً صنعوا منه عجل «الخوف» وعبدوه. كان الزمن غبياً، فلم يفهم أصحابي أن الخوف لن يكون من آلهتي، فقد حطمت كل الأصنام وجئت. وكل ما هنالك أنني أرى النقطة السوداء في طبق الحليب، فلا أشرب.

كان الزمن غبياً، فلم يفهم ما يجري وراء الأسوار، وكان الخوف ذكياً فتخلى عني لحظة العناء الثقيل بين انهيار الحلم في «الاقليم الجنوبي» وانهيار الحلم بعد أن سقطت كل الأسوار.

كان الحلم الأول بضاعة الغواني في سن اليأس. هو الحلم المسروق من دمنا، هو حلمنا. ولكنهم حولوه إلى المرافىء الأخيرة والمواني المجهولة، فدفعنا ثمن الشحن قضباناً سوداء وحمراء شيدت لنا أجمل البيوت في صحاري الجنة. كانت القضبان هي الحلم الثاني، وراءها يثوي العماليق في قيلولة الزمهرير. رأيتهم واحداً فواحداً، يجرعون كؤوس السم ولا يموتون. رأيتهم واحدة فواحدة يبتلعن لقمة الاجهاض فيلدن ولا تقتلهن الغوازي.

ثلاث سنوات من الوحدة إلى الانفصال، وثلاث أخرى من الانفصال إلى الاتحاد، وتماوجت الألوان فلم أعد أرى، وقلت «ربما». ولم أكتب الكلام الكبير ولم أهتف في الموكب الكبير ولم يحرق القلب الفرح الكبير كما لم يقتلني الحزن الكبير. كنت أحدِّق في رماد النيران المشتعلة بالشهوة المأجورة، وأبصق على لفائف الدخان الصغيرة، وأبحث عن ورقة يانصيب.

بحثت ورأيت العنق المدلىً من مقصلة الإيمان الذي ينفع الذكرى، فلم أجد إيماناً ولا ذكرى. ثم رأيت الجسد الممدد في تابوت اليقين بالميزان والشعلة، فلم أجد العيون المعصوبة ولا العيون المفتوحة. حتى «الشعار» البليغ سقط، وحتى «التنظيم» الجميل سقط، وبدأ الممثلون يسقطون بأظافرهم كل الأقنعة.

وكنت أنا وحيداً في زاوية مهجورة أحاكي الديدان وأمارس الحب مع الفراشات وأراقص البراغيث وأبذل قصارى الجهد في تعلم لغة النمل. كان العقرب يغني أعذب الألحان وكانت الحدأة تشدو بنباح كلب، وكان الصقر يعوي مهيض الجناح يحتضر.

أقيم السرادق المجنون وتمدد المخصيون حول الموائد العامرة ببطون الحبالى. كانت

الزغاريد وبرقيات التهاني تسرق الكحل من العيون والأرق من الأفخاذ الصاحية. وصرخت. بل صرخنا. في قاع البئر لم أعد وحيداً. «كانوا» معي، أولئك الفرسان النبلاء الذين اقتلعت خيامهم من كازينو أوبرا إلى مقهى ريش. صرخت، بل صرخنا. كانت الجثث تأكل الجثث. كان الموتى يضاجعون الموتى. ولكن الموت لم يكن يميت الموت.

كان الموت فارساً نذلاً يتمشى عارياً في أزقة المدينة. وكانت رائحته تزكم أنوف السكارى. ولكنهم كانوا قليلين، وما أكثر الشاربين.

كنت واحداً من السكارى لا من الشاربين. وقد زكمت أنفي رائحة الموت فصرخت هولاً لأن الناس كانت من الجذل في منتهاه وهي تؤدي رقصة الموت بفخر وسعادة وانتباه.

وكانت صرختي، صرختنا، نشازاً ملغزاً وسط أفراح المدينة. ولكن الموت، يا حسرتي، أنصفنا، رفع هامته عالياً وطلع فوق المنصة ككهنة آمون. صعد إلى المئذنة ومنارات الكنائس، ودق الأجراس ونادى أن نستيقظ. وحين نهضنا بعد ثلاث سنوات كان الحريق قد أتى على كل شيء. كانت السنة هي ١٩٦٧. وكنا غزاة مدينتنا. والآن، كان الموت واقفاً بالأبواب يستقبل التعازي في «الأبطال» الذين لم يستشهدوا في الحرب. ووجدتني أبكي بين يدي زرقاء اليمامة. لم أكن وحدي، كنا قلّة من اليتامى اللاجئين في قاع البئر.

وبعد سبعة شهور فقط كانت الدائرة قد اتسعت. كان الموت يولي الأدبار هارباً من وجه الشمس. ولم تكن أشعة الفجر ناعمة، بل حارقة. كانت الكعكة الحجرية أخيراً قد اكتملت، وعلى الجياع إلى العدل والحرية أن يتحلقوا حولها، أن يحرسوها. ولكنهم في المساء أقبلوا، رسل الموت الهارب أقبلوا، وسرقوا الكعكة ليلاً، عجنوها عروساً للنيل وألقوا بها في البحر. لم تعجب المياه المالحة فكانت تطفو بين وقت وآخر.

وثلاث سنوات أخرى مكتوبة على الجبين، بدأت بجماهير الهزيمة تطارد الموت، وانتهت بها تعانقه، وتستأنف رقصتها المجنونة.

وثلاث سنوات أيضاً، فكانت الحرب. كان الحلم ثريا مدلاة من السقف الأزرق تهشمت لحظة انكسار الضوء بين خطوط الطول وخطوط العرض.

وبدأ الوطن رحلة التثاؤب العبقرية، بين نعاس لا يجيء وموت حاضر بلا إذن.

كانت الجريمة قد توهجت في نيران الجرح، وبدت ألوانها الزاهية تشير إلى يوم ميلادها من قبل أن أترك «قناي» في الصبا المفتون.

كنا قد بدأنا زمن النفط والسرطان والحاوي العجيب.

هذه قصيدتي السرية، أنا الذي سرت بينكم عارياً، عندما نسيتم أنتم لون جلودكم لكثرة ما تغطيتم بجلود تنوعت ألوانها تنوع فصول السنة. عندما كنتم «أسراراً»، تسعى على

الأقدام، كنا نحن عرايا من ثياب العرس وأكفان المقابر. كان الصوت عارياً، فبماذا ينفع غطاء الصمت؟ العيون عارية، فبماذا ينفع النوم أو النظارات السوداء؟ كانت الاذان عارية، فبماذا تنفع السماعات الطبية؟

كنتم «أسراراً» في ذلك الزمن المستعار، وكنا نحن رهباناً في بيت للدعارة. كنا نعيش في زمن آخر هـو زمن العري: زمن «ربما».

في السنوات العشر الأخيرة، ماتت «ربما» فجأة بالسكتة النفطية، فتبادلنا الأزمنة. تعرت «الأسرار» من الجلود المزورة. ذبلت أوراق التوت واحترقت. وقالوا بصوتهم الغائب: نحن فرسان الزمان وشجعان المكان، صدقنا أيها الإنسان، وانس الذي كان.

قال لي صلاح عبد الصبور: «صدق ولا تصدق، كذبتهم اليوم هي الحقيقة الأخرى، وحقيقتهم بالأمس هي الكذبة الأخرى».

وقال لي أحمد عبد المعطي حجازي: «لا تصدق. كذبة اليوم هي كذبة الأمس، انه زمن واحد، زمن الكذب الأسود والدم الأبيض».

وقال لي لويس عوض: «صدق، فالأفعى شربت السم وماتت، لعقت أحذية قتلاها وشهقت لأخر مرة».

وقلت للشيخ إمام: «ألا ترى جسدي؟ كان قد اتخذ منذ الأزل شكل ربما، وها هو ذا بين غمضة حرب وانتباهتها، يتخذ شكلاً آخر».

وهمس أحمد فؤاد نجم من مخبأه العلني: عندما سرقوا منا العري، كان علينا أن ندلف إلى الزمن السري.

لم أعد «ربما» منذ عشر سنوات، منذ احتفلنا بعيد ميلاد الذبابة، واحداً وعشرين عاماً، بلغت سن الرشد وانتهت ألاعيبها حين كانت تتخفى في طبق الحليب. عافت نفسي اللون. قال لي الآغا: اشرب، فأنت زينة الرجال، وهو شراب الفحول. كيف أصير فحلاً في صحبة الأغوات؟ تنهدت ولم أشرب. كبرت النقطة السوداء حتى ملأت الطبق الأبيض كله بالحليب الأسود. لم يعد أحد يدري أهو حليب الذبابة أم حليب الآبار النقية. غيري كان قد اعتاد الجوع والشبع، فشرب وشرب وشرب حتى ثمالة النفط الأخيرة. لم يقل أحد أن شيئاً قد تغير. الحق معهم، لم يكن شيء قد تغير.

كان كل شيء قد تغير. وأصبح البيت من قلعة «قنا» إلى قلعة الشقيف نادياً للعراة. رفض ثروت فخري أن يخلع قميص زفافه، ممنوع الدخول لمن لا يشرب اللبن الأسود. شرب ثروت الشاي الأبيض، ليرسم بيت الزوجية المقبل فوق الجبل السحري، وسافر. ممنوع الدخول إلا. ورفض أحمد عبيدة أن يخلع سرواله. بنى بيته من مـداد الأزمنة

السحرية، وصدح بأغنيته الحبلى، فانفك السحر بفعل التعويذة وسافر. ممنوع الدخول إلا. ورفض عباس أحمد أن يخلع شعر رأسه ورموش عينيه. بنى بيتاً من صلوات العذارى وتمائم الأولياء وسافر.

طاردوا الناجين في الرياح والرعود والنجوم والشموس والأقمار والصحارى القائمة خارج الكون. واستعصت عليهم مفاتيح الغابات المشتعلة. كانت دماؤنا قد ثـأرت لنا فاستحالت بيضاء. لم يعرفوا وجوهنا، لم يتعرفوا على جلودنا. كانت الدماء قد استحالت بيضاء. كان اللحم والدم والعظم قد استحال بياضاً في بياض. ثأر الدم الأبيض لطبق الحليب من الذبابة السوداء.

سألت جابر عصفور: هل تحفظ السر؟ سألت زوجتي: هل تحفظين السر؟ سألتني: من يحفظ السر؟ سمعت صوت الأشعري يقول: أنا. وسمعت صوت اخناتون يقول: أنت. وسمعت صوتاً عن يميني يقول: إذا كنت حقاً تعرف السر فخلِّص نفسك وخلِّصنا معك. وسمعت صوتاً عن يساري يقول: أنت أنت السر، أذكرني إذا جئت في ملكوتك. وقلت: أنا عطشان. قدموا إليّ كأساً رأيته بعيني اليمنى قاتم السواد، وبعيني اليسرى ناصع البياض. كانت رائحته مزيجاً محترقاً من الحليب ولحم الذبابة والنفط.

لكن العطش كان قد ذهب.

كنت قد أنجزت بناء البيت والنهر، بين الصحراء والجبل، وأبحرت بين أمواج الزمن السري.

لا تقولوا أنه كان
فأنا كائن
وسأكون

عائد إليكم ذات صباح، ذات مساء، ذات فجر، ذات ظهر، في الوقت غير المتوقع، والأسمال المستحيلة.

وطوبى.

طوبى لمن يعرفني في ذلك اليوم.

الحق أقول لكم إن سدوم وعمورة لم تحترقا بعد، وطوبى لمن لا يحزن ولا يحترق جلده بانتظاري. أتركوا المدينة تحترق، فمن هذه النيران تولد أشعة الفجر حيث آتيكم فوق سحابة. حينذاك تجتمع الشمس والمطر. تلك علامتي، فلا تناموا. سيطول الليل وطوبى للساهرين.

□ □ □

حيثيات غامضة تماما

كلانا يتقلب في الفراش على الحافة المسنونة بين النوم واليقظة. نتقلب على الجمر حيناً وعلى ريش النعام حيناً آخر، والعين نصف مغمضة وربع مفتوحة. قيل لنا منذ عام: بزواجكما تسبحان ضد التيار، فليس هذا زمن الأفراح والليالي الملاح. قال لهم: إذا لم نتزوج الآن فلن نتزوج أبداً، لأن الأزمنة السعيدة انتهت مع ألف ليلة وليلة ولن تعود. وقلت لهم: فلنتزوج لن نخسر شيئاً، ولكننا قد نربح لحظة ضائعة. ها نحن نتقلب على الفراش والشارع وراء النافذة يتقلب على الجمر.

من يصدق ما جرى في سنة واحدة وما يجري منذ ساعات قلائل؟

كأنني أسمع دقات لاهثة على الباب الخارجي. ولكن الأفكار الأكثر لهاثاً تطارد الذاكرة وتمحو الدقات المستغيثة. قبل أن ينام كان حريصاً على التأكد من أن المزلاج في وضعه الصحيح، وأن الباب لن تفتحه الأيدي العابثة في ظلمة الليل الطويل. ومع ذلك استطعت أن أخدع النوم الكسول فأنهض لأتأكد من أن الباب مغلق جيداً. تأكدت أيضاً من أن أحداً لا يطرقه، وأنه ليس من دقات هناك.

حين عدت كان شخيره الهادىء منتظمًا، كأنه لا يتقلب. وكانت شلبية تصرخ بوجه القاضي: يا سيدي أنت تبحث عن المجرم ونحن نبحث عن الوطن. يستدير الوجه الريفي الجميل المتكبر، وتضحك العينان بشراسة تتحداني: لا، لم أحبل من الأسطى في المرة الأولى. بعد عقم طويل الأمد، حبلت فعلاً من عوضين. لا، ليست الصوفة المبتلة برجولة المجهول، بل من صلب عوضين أثمرت أحشائي. كان الإجهاض الأول علقمًا في الفم والظهر والحوض، كنت أموت دون موت. خطر لي في ما بعد أن الجنين مات في لحظة موت عوضين، أجهضونا في وقت واحد.

تهرب شلبية وأتقلب في عرق بارد، والعين نصف مغمضة وربع مفتوحة، أطارد

سعدالله في جبال لبنان وأوديتها وأقول ربما كان الباب مفتوحاً بالفعل، وأن سعدالله قد دخل سراً ليفاجئنا أنه طاردهم وطردهم حتى تحررت بيروت وصيدا وبكفيا ومرجعيون وصور وكل لبنان. لم تستطع النجمة أن تقيم شركتها في لبنان. الأرزة والهلال والصليب والعنقاء وتموز والصقر والنسر، كلها تجمعت فجأة وطردت النجمة المستعارة. سعدالله يضحك، يلعلع الضحك بصوت عال، يشرب العرق من القلة القناوي ويضحك بينما يسيل العرق على صدره المفتوح القلب. يضحك وأنا أتقلب على إيقاع الشخير الهادىء الذي لم يعد منتظمًا. سعدالله يطرق بابنا بعنف. الدقات تضغط دماغي. في ليلة العرس كانت أسناني قد تركت علاماتها الحمراء في كل جسده، أكثر كثيراً مما يترك الرجال عادة في الليلة الكبيرة. أنا التي هتكت غشاء بكارتك بكل ما يملك قلبي من مخالب عطشانة وبكل ما احتواه حناني من أظافر جاعت كل الأزمنة. في ليلة العرس قلت لك: إذا جاؤوا يوماً ليأخذوك كالعادة، فسأذهب معك.

أين هم الآن، والدنيا مقلوبة من الأمس رأساً على عقب؟ رأيت كل الأشياء بكل نفسي. الشخير لم يعد هادئاً ولا منتظمًا. أحاول بعسر شديد أن أمدّ يدي، أن أطوله بأناملي. ولكن الذاكرة تهرب إلى الوديان العميقة، غير أنني رأيت كل شيء. الدماء تعربد. لا يا سعدالله، لسنا في بيروت. نحن في القاهرة في أسيوط في الإسكندرية في المنصورة في السويس في بورسعيد. الدماء تعربد أمامك يا سعدالله. ما الذي جاء بك؟ أنت هارب أم قاتل أم شهيد، أنت من أنت؟ تعال افتح الباب ليدخل الدم، لنغتسل، لنشرب، لنسكر، هو دمنا، دمنا ولنا. شركة النجمة؟ رأيتهم قرب المسرح يعتلون الدرج ومعهم صفائح البنزين وأعواد الثقاب. لحظة وطاول الحريق النجم القطبي. من النجمة السفلية إلى نجمة السماء كانت النيران ترتقي مدارج الليل والفجر والصبح المنير. لحظة، واختلطت النار بالدم، ولم يرتسم قوس قزح، لأن الطوفان نفسه كان متعدد الألوان.

رأيت البعض يقيمون سرادق تشبه ليلة المأتم، والبعض الآخر يقيمون سرادق تشبه ليالي الزفاف. ولكن البعض الثالث كان يحرق ويسكر، يحرق ويزغرد، يحرق ويبكي، يحرق ويحرق ويحرق.

وتلألأت النيران في كل الزوايا والشوارع والأقبية والمقابر والساحات. ولم يقل لنا الرماد الدموي أكان يقيم في القصور أم في الأكواخ في المحاكم أم في السجون في الأرض أم في البحر أم في السماء. لم يقل لنا، ولكني سمعت الباب كأنه يتكلم، كأن أحداً يدق، كأنه صوت يدق الرأس، كأنه شلبية تزغرد وتقول للقاضي: يا سيدي أنت تبحث عن المجرم ونحن نبحث عن الوطن. يا سيدي، كان من الممكن للولد الأول أن يكون

لعوضين، والولد الثاني أن يكون للأسطى، ولكنهم أجهضوني مرتين. أحياناً يخيل إلـيّ أنهم أجهضوا عوضين أيضاً والأسطى كذلك. يا سيدي هل يجهضونني مرة ثالثة إذا عشقت سعدالله؟

وتأكدت من الشخير القلق والتقلب الحيران أن دقات الباب لا تخطىء، ولكنه قبل أن ينام حذرني من فتحه، لأن الليلة في ما يبدو ستقوم القيامة. كان قد شاهد كل شيء قبل أن يأوي إلى حضني وينام. قال: سننام ربما، لست متأكداً من النوم، ولكني متأكد من أننا قد نصحو من النوم وقد لا نصحو. ضحكت، فما هو الأكيد بين قد وقد؟ كل ما أدريه أننا نمنا ولم ننم، صحونا ولم نصح، فالنيران تحاصر النيام والصاحون يحاصرون النيران، وبحيرات الدم قد تسد الطرقات، قد تغرق الكون، وسفينة نوح حملت رماد النجمة المنطفئة وغرقت إلى ما تحت القاع. ولم يظهر قوس قزح، كانت ألوان الطيف هي الطوفان.

يا سيدي، أنت تبحث عن المجرم ونحن نبحث عن الوطن. توقف الشخير فجأة وأحسست بوجع في أعلى ذراعي كأن آلة حادة لكزتني مصادفة. حاولت أن أمد يدي كأني أحمل أثقال العالم، كأني أنتزعها من خشبة سمرت بأعماق الأرض. كانت اليد الأخرى قد أمسكت بيدي، شعرت بذلك في وضوح نسبي، بينما راح يربت على خدي بأقل قدر من العنف وهو يقبل طرف أذني هامساً في ضعف غريب: ماذا، ماذا تقولين، ما الحكاية؟ يخيل إلـيّ أنني ابتسمت وأنا أرى الدنيا من خلف شبكة زجاجية قاتمة. سألني: إصحي، من هو المجرم ومن هو الذي تخاطبينه؟ قلت وأنا في غاية من الضعف: هل صمت الرعد وتوقف البرق؟ قال: أي برق وأي رعد، هذا ما يدور برأسك إذن؟ أحاول عبثاً أن أبتسم، وألقي بدماغي على وسطه فيفزع. أقول بإصرار: إنني متأكدة من أن الليلة أمطرت بغزارة، وأن البرق والرعد لم يتوقفا، ليس هذا حلماً، نستطيع التأكد ببساطة، افتح النافذة، صرخ: لا . . لا . . أنت على حق. لقد كانت عاصفة وربما ما تزال. قلت: أما الحلم، فإني أتذكره جيداً. كان حلماً مزعجاً لدرجة لا تطاق. كان نصحي المحلاوي رغم إلحاح الأهل والزملاء والأصدقاء قد قرر أخيراً وبشكل نهائي أن يغادرنا إلى باريس. ورأيت فلورانس تحذره: إنني غير مسؤولة، غير مسؤولة. رأيـي أن تبقى هنا، ومكانك هنا. ولكنه دفعها بخشونة غير مأثورة عنه. وأمسك بالحقائب ودخل المطار وتوجه إلى سلم الطائرة. ثم رأيت مارك يقول لفلورانس في وضوح تام: غريبة، لقد تصورت صديقه الرسام هو الذي يمكن أن يأتي إلى باريس، أما هو فلم أتصور ذلك مطلقاً. نعم مطلقاً. هذا هو الحلم. ماذا تريد بعد؟ قال: كلا، فلقد سمعتك تتكلمين عن المجرم والوطن وما أشبه. رحت أدعك جبهتي وأجاهد لاصطياد الذاكرة فلم أفلح. كان الرعد قد استأنف الصوت العالي، وكذلك البرق اتسعت

عيونه بحجم القمر والشمس والنجوم. .وتفجرت ينابيع الأرض وانفتحت الآبار المجهولة وأمطرت الدنيا بكل اللغات والألوان. ودخل فتحي المحلاوي من النافذة، وهو يبكي. سألته لماذا لم تدخل من الباب؟ قال إنه محروس من العين، ولكنه شاهد العين هناك في العراء بلا جفن ولا رموش. سألته بعد هذه الغيبة الطويلة هل من أخبار عن المسرح، فقال إن العاصفة الرعدية أحرقته وأسقطت برج بابل في وسط المدينة وأغرقت سفينة نوح. ضحكت لأول مرة منذ زمن، وقلت: أخبار قديمة. لم يضحك. راح يبكي بضراوة وعنف. جففت له دموعه بمنديل حريري دافىء، فقال: إنني ضد المساواة بالموت، ضد التساوي في الموت. صلاح عبدالصبور مات فجأة ويوسف السباعي مات بالرصاص، فمن القاتل ومن القتيل، من الشاهد ومن الشهيد؟ وخرج فتحي من الباب وقد تخفف من ثيابه كلها استعداداً للسباحة.

لم أخرج معه لأن نوال حضرت. كانت ترتدي كعادتها منذ مات عازر ثياب العرس. نظرت إلى الجزء الآخر من الفراش وهمست: أما زال نائمًا؟ عازر استيقظ مبكراً وذهب، كنت ما أزال نائمة، ترك لي رسالة يقول فيها أنه ضرب موعداً لمحمود وسهى وإحسان وفتحي المحلاوي في كازينو أوبرا. لم يكن هناك وقت لأقول له أنهم نقلوه، لا إلى ريش أو إيزافتش أو الأتلييه، بل إلى مكان مجهول، مفاجأة أعدتها الحكومة للمثقفين.

أقبل عم أحمد في مقدمة طابور يضم فهمي و إبراهيم وحسين يقولون بصوت واحد: الشرطة في خدمة الشعب. ولأن الشعب ذواق يحب الفنون فالشرطة في خدمة الثقافة.

البرق يرعد والرعد يبرق، ولكنه إلى جانبي يرسل شخيره الهادىء بانتظام يدعو للعجب. كان صوته في عيني واضحاً وضوح المياه خارج البيت وقد تجاوزت العتبة وبدأت في التسرب إلى الداخل. في الماضي كانوا يصفون الماء بأنه بلا لون ولا طعم ولا رائحة. ولكن هذا الماء له طعم ولون ورائحة في غاية الوضوح، وبلا إسم أو صفة نستطيع أن نسميها أو نصفها بها. وعندما وصل الماء إلى غرفة النوم تذكرت لماذا ينام الناس في بلاد الغرب عرايا. وتقلبت بين الجمر وريش النعام، فإذا بالعين المعدنية تطل من النافذة وتختفي، أو لعلها غرقت في الماء المتسرب. وبدا البحر أو النهر يشق طريقه في ثبات لا يتعرج إلا عند منحيات الغرف والمطبخ والحمام، وقد تزاحمت العيون المعدنية على الجانبين تحيي طابوراً من الرجال على هذا الشاطىء وطابوراً مماثلاً على الشاطىء الآخر. وقد استطعت أن أميز في وضوح مثير للدهشة أن الصف المجاور لي تماماً يضم رجلاً يشبه عوضين وآخر يشبه إسماعيل المهدوي والرجل الثالث كان جمال عبدالناصر. وكان القاضي يقودهم وبرفقته مجموعة الشهود. وحين

دققت النظر، وكاد الطابور ينتهي، لمحت فتحي المحلاوي الذي كان في بيتنا وقد مضى يحث الخطى في اتجاه الموكب.

وفي الجانب الآخر كان ثمة حشد هائل من البشر يشكل تقريباً شعار شركة النجمة، يتقدمه أيمن الحانوتي مقسوم الوجه كأن وجهه تركيب من نصفي وجهين: أحدهما يضحك، والآخر يبكي. ولكنه الحانوتي في الحالتين.

والبحر في بيتنا ليس كبيراً ولا طويلاً، لأن بيتنا نفسه ليس ضخماً ولا عريضاً. ومع ذلك فقد كان الطابوران يمضيان في الخط المستقيم المتعرج أحياناً كأنهما في طريقين لا يلتقيان بلا نهاية.

وعندما ربت على رأسي هذه المرة لأن بطنه قد تعب من هذه النومة العجيبة، قلت له: الفجر لم يشقشق بعد. ولكن ضربك لرأسي كأنه دقات فوق الباب. قال: رحمه الله أراغون فقد كان يغني في ذروة السعادة أن الإنسان يفتح ذراعيه ليستقبل الدنيا فترتسم خلفه علامة الصليب، ولكنه لم يتخيل أن حبيبتي لا يحلو لها النوم إلا إذا اتخذت مني وسادة بالعرض فنرسم نحن الإثنين صليباً بشرياً. قلت له: بطّل خيالات، فأنا أعتقد أن أحداً يدق الباب فعلاً. إسمع. هدير البرق والرعد نعم، لكن.. هناك من يدق الباب. إذا جاؤوا ليأخذوك، سأذهب معك. قال: من تقصدين؟ قلت: العيون المعدنية المثبتة في الهواء. قال: نامي من غير كوابيس. قلت: كلا، إن أحداً يدق الباب، دعني أنهض. لم يكن يمسك بي. قلت: دعني أفتح الباب. كان صامتاً. قلت: دعني. قام فجأة وبثياب النوم اتجه ليفتح الباب. سمعت من يسأله: آسف للإزعاج، متأسف جداً، ولكني مضطر كما تعلم، هذه بطاقتي، الليلة هي الجحيم بعينه، لا تؤاخذني، أعتقد انك عرفتني، كلكم للأسف تعرفونني، ولكنني مضطر، هذه هي الدنيا، وأرجو أن تسمح لي بالدخول فالدنيا برد، جحيم. أنت لا تتكلم ولك العذر، ولحسن الحظ، حتى تتأكد من نواياي الحسنة نحوك، فأنا لست هنا بسببك، الأمر واضح تماماً حتى أنني اندهشت في البداية، إن المطلوب هذه المرة ولا تؤاخذني هو السيدة زوجتك. نعم. السيدة حرمك هي المطلوبة. لماذا؟ لا أعرف. أنا نفسي اندهشت. والله العظيم اندهشت جداً. وأنا متأسف، متأسف جداً. ولكن أرجو أن تسمح لي بالدخول، فالدنيا كما تلاحظ. كلّك نظر. ولن أستخدم القوة في الدخول، فهل تأذن لي؟ لا بد لي من الدخول، لا بد. ولا بد أن.. لا بد. والسيدة موجودة؟ لست أنت الذي جئت من أجله. إنهم يطلبون السيدة، أليس كذلك؟ أعتقد. من الأرجح. في الغالب. ربما. قد.. لست متأكداً يا سيدي، ولكن دعني أدخل، أرجوك. إنني الضابط. وقد فرّ الجنود، فهل تصدق؟

فرّ الجنود يا سيدي لا أعرف كيف. أنتم تسمونهم المخبرين، حسناً. المهم انني خرجت بهم من هيئة الأمن القومي العليا لاعتقال السيدة زوجتك. إنني متأكد تماماً من أنهم كانوا معي. ولكني، آسف، لست متأكداً من أننا خرجنا معاً من الإدارة العليا للأمن القومي، ربما كانت الذاكرة تداعبني. آه، أعتقد أننا اتفقنا منذ ثلاثة أيام على أن نلتقي في ميدان عابدين قريباً جداً من باب اللوق حيث يقع منزلكم هذا الذي أرجو أن تأذن لي بدخوله، لأنني سأموت من البرد يا سيدي. وإذا مت، فلن تربح شيئاً، بل ربما أخذوك بسببي، وقد يتهمونك بقتلي، من يدري؟ فالدنيا فوضى كما ترى، وربما يمنحونك وساماً لأنك قتلتني. والمشكلة أن المخبرين المكلفين بمساعدتي في القبض على السيدة حرمك، اختفوا. وهم رسمياً في «عهدتي» فماذا أفعل؟ كيف أردهم سالمين إلى المصلحة القومية العليا للأمن الوطني؟ اتفقنا منذ ثلاثة أيام على الزمان والمكان حتى نلتقي سراً، وننقض فجأة على بيتكم حتى لا نتيح الفرصة للسيدة قرينتك، آسف، للهرب. وقد ذهبت في الزمان المحدد فلم أجد الزمان ولا المخبرين، وتوجهت إلى المكان المحدد.فلم أجد المكان ولا المخبرين. هرب الجميع واختفى الزمان والمكان والمخبرون. ووجدتني بقدرة قادر أمام داركم فقلت لنفسي ربما كان الزمان هنا والمكان والمخبرون. ربما سبقوني إليكم ليثبتوا لمصلحة الأمن العليا القومية انني متخاذل وخائر القوى وجبان أيضاً، فقل لي يا سيدي هل وصلكم أحد من رجالي قبل قليل؟ الدنيا برد والقيامة قامت والجحيم يتراقص ناراً ودماً بطول المسافة من الأرض إلى السماء، فسامحني يا رجل وادخلني إلى بيتك. رسمياً، أقول لك رسمياً، لا بد لي من اعتقال زوجتك، حتى ولو هرب المخبرون، حتى ولو انشقت الأرض وابتلعت الأمانة القومية العليا للأمن الداخلي والخارجي كما يشاع. يا رجل إرحم سؤالي فعيناي تنطقان بالشهادة. لقد وصلت إلى هنا بمعجزة المعجزات. وصلت وأنا أظن انني لن أجد أحداً في المنزل. أولادي وبناتي خرجوا منذ وقت مبكر ودخلوا في رياح العاصفة الجهنمية. ظننت أنني لن أجدك أنت أيضاً وبالذات، وطبعاً لن أجد زوجتك. ولكني ها أنذا أراك، سوف نحاسب جميعاً ذات يوم بعيد على أننا لم ننفذ التعليمات. إنني آمرك بإنقاذي من البرد يا رجل. لا تهدر دمي على هذا النحو، ودعني أدخل فسأحكي لك كل شيء. أو انك أنت الذي ستحكي لي كل شيء، وتقدم لي طعام الإفطار فالفجر يقترب والأمواج البشرية الزاحفة ستصلي في الشوارع. ولكن كيف والدماء الصفراء والحمراء والبيضاء والزرقاء والسوداء قد وصلت إلى الرُّكَب. نساء مصر كلهن حبالى، هل تعلم؟ ربما كانت زوجتك أيضاً حبلى. يقال أن جميعهن جاءهن المخاض في وقت واحد من شدة الهول. ويقال أن مباني السجون قد أغرقت، وأن المساجين قد أفلتوا في الوقت المناسب، ولكن بعض زملائنا قد

غرقوا. وهذه هي المشكلة، فإذا اعتقلت زوجتك الآن ولا بد من ذلك، فإلى أين أذهب بها، ولمن أسلمها، وقد فرّ الجميع من الجميع وبقيت وحدي أطرق بابك في هذا الزمهرير، فهل تدعني أدخل وأمرك لله؟ إنك صامت يا سيدي صمتاً مخيفا، لا أعلم ما إذا كنت تعلم أم لا، ولكني أعلم أنك تعلم انني رجل صريح ومنضبط طول عمري. يبدو عليك يا سيدي انك غير مهتم وانك لا تشعر بالبرد وانك لست على وشك الغرق. لا تسخر مني فأنا رجل بسيط ومتواضع القلب، ولولا الظروف لعرفتني على حقيقتي. أولادي للأسف لا يعرفون حقيقتي، لذلك خرجوا في الهزيع الأخير من الليل ودخلوا في قلب العاصفة. ركبوا الريح وسط النار والماء والدم، وذهبوا. إلى أين؟ لا أدري. إنني لا أدري حتى بالجهة التي ذهب إليها المخبرون. متى، وأين؟ سؤالان ليسا من اختصاصي الجواب عنهما. كل ما أعرفه أنني هنا، وأنني مضطر لضبط زوجتك وتفتيش المنزل حسب الأصول المرعية في مركز الأمن القومي لمصلحة البلاد العليا.

ما أعرفه عنك يا سيدي يؤكد أنك رجل مهذب ورقيق وخجول وطيب، فلماذا لا تفتح لي الباب وتتكل على الله؟ لا أشك في أنك رجل شجاع، ولكني أسألك بحق من جمعنا في هذه الليلة المفترجة إن شاء الله، هل كنت تتردد في فتح الباب إذا كان المخبرون معي؟ أو هل كنت تتردد إذا كان مسدسي في جيبي؟ وقل لي، كيف اكتشفت أنني أول ضابط في التاريخ لا يحمل سلاحاً، هل هذا هو السبب في أنك واقف هكذا صامتاً لا تفتح لي الباب ولا تغلقه، مثلي تماماً لا أعرف ماذا سأفعل بزوجتك بعد القبض عليها، إلى أين آخذها ولمن أسلمها؟ إنها «عهدتي» ستكون، وأخاف من فقدانها كما فقدت المخبرين.

دعني أدخل يا سيدي، فقد اعتقل زوجتك وقد تَعْتَقِلني أنت وقد نُعْتَقَل جميعاً أو اننا نحن قد نَعْتَقِل الجميع.. في هذه الليلة كل شيء جائز وممكن ولا أحد يعلم أين سيكون عند مطلع الفجر.

ــ لا أسمع صوتك.. هل جاؤوا ليأخذوك؟ سأذهب معك

□ إنني قادم، فقد انتهى كل شيء

ــ أم بدأ كل شيء؟

□ عندما التفت لأرد عليك، كان الرجل قد اختفى

ــ من هو؟

□ الماريشال

ــ الماريشال؟

□ نعم.. أتذكرين أحد مجاذيب سيدنا الحسين وقد ارتدى البذلة الماريشالية ووضع عصاه الشهيرة تحت إبطه ومضى في خطى عسكرية يوزع دعاباته المجذوبة على السهرانين ومشايخ الطرق وأصحاب الحاجات والأفيونجية والبورمجية والحشاشين والشمامين وأهل الذكر من عشاق الحسين والأزهر والفيشاوي؟

ـ كفى.. كفاك.. هل ستحكي لي تاريخ حياة الرجل والحي ومصر كلها.. إنني أعرفه، رحمه الله.

□ رحمه الله؟.. متى.. متى مات؟

ـ البقية في حياتك.. من زمان.. العوض بسلامتك.. طول العمر لك.. ما الذي ذكّرك به؟

□ ذكّرني به؟.. لقد كان معي الآن.. هو الرجل الذي دق الباب، وجاء ليأخذك أنت.

ـ أنا؟

□ نعم، وقد تجمدت في مكاني حين رأيته، مبهوراً ومذهولاً وقفت أمامه بلا حراك كأنني صنم أو تمثال، حتى انني لم أصغ لتوسلاته الملحة في أن يدخل هرباً من الصقيع في الخارج، لم أسمح له ولم أتكلم ولم أتحرك، حتى سمعت صوتك تناديني.

ـ لقد تأخرت منذ ذهبت لتفتح الباب، فناديت عليك، والآن ما العمل؟

□ لقد اختفى الرجل بمجرد أن أدرت رأسي نحو الداخل، لا أدري في أي اتجاه ذهب ولا كيف واتته الجرأة في التحرك السريع في هذا الجو الناري الثلجي الغامض والمليء بمختلف الوعود والاحتمالات. هو نفسه لم يحتمل البرد، قال لي ألف مرة. ربما يعود بعد قليل. ربما ذهب لإحضار المخبرين أو المسدس فقد رفضت عملياً أن أفتح له الباب.. وهو مضطر للقبض عليك.. أنت «عهدته» كما يقول. إنه مضطر لأشياء كثيرة، ولكنه فقدها كلها.. فقد المخبرين والمسدس وإدارة الأمن القومي العليا للدولة وأنت.. فقد كل شيء.. كل شيء.

ـ إننا مسؤولون على نحو ما، مسؤولون عن هذا الرجل، وأرى من واجبك البحث عنه.

□ لماذا؟

ـ لتسلمني إليه.

□ أسلمك؟

ـ إنه أضعف الايمان، وإلا فإنك ساهمت بطريقة ما في اختفاء الرجل من الوجود.. لا بد أن يحصل على شيء مما فقده، وإلا فضياعه مؤكد. ولا شيء تستطيع أن تعوضه به

سواي، فأنا وحدي كل ما يمكنك أن تعطيه له تكفيراً عما فعلت.. لقد تركته في عز البرد يتجمد أكثر من الثلج، فلم يفعل الرجل سوى أنه ذهب

□ وحسناً فعل

ـ لا.. حسناً لمن؟ ربما لك. ولكن، ليس له. تأمل ماذا ينتظره المسكين سواء نجا أو لم ينج. إذا نجا من جحيم يوم القيامة، فإنه لن ينجو من رؤسائه في اللجنة الأمنية العليا.

□ إنه المأزق إذن؟

ـ ها أنت قلت

□ وما العمل؟

ـ إنه السؤال الأبدي، ولكن المشكلة أنه لم يعد لدينا وقت.. ليس هناك وقت على الإطلاق، حتى للبقاء هنا في المنزل

□ هل تفكرين بالهرب؟

ـ الهرب؟.. أنت مجنون؟ الهرب، ممن؟ وإلى أين؟

□ صحيح.. آسف.. نسيت.. أحلم كأن شيئاً لم يتغير.

ـ ولقد تغير كل شيء.. كل شيء.

□ ولم يعد حتى الهرب ممكناً

ـ الهرب؟ أؤكد لك أنك جننت.. الهرب زمان كان مفيداً ولذلك كان ممكناً.. أما الآن فالهرب.. آه

□ سلامة قلبك من الآه

ـ تذكرت نصحي

□ آه.. نعم

ـ وتذكرت أن الماريشال كان يهمس لك أحياناً بصوت متحشرج، وأنه كان يردد في رعب بعض الأسماء، والأحداث، ولكني للأسف لم أسمع جيداً.

□ لا.. لا.. إنه هذيان المجذوب، لا تفكري في الأمر كثيراً.

ـ طالما أننا لن ننام في ما يبدو، أتمنى لو قصَّرت علينا ليلتنا هذه التي لا تنتهي بحكاياتك مع الماريشال المجذوب.

□ هسّ، أنت أمسكت الآن فقط بفكرة كلما حاولت الإمساك بها طارت، وهي أن ليلتنا هذه طالت فعلاً لا مجازاً.. الساعة لم تتوقف، أي أن الزمن مستمر ولكن الليل باق كبوابة من الجرانيت لا يسمح لأشعة الفجر بالمرور.

ـ كفاك شعراً.

□ تقصدين خيالاً؟ لا يا حبيبتي. لقد نهضنا من تقلبات النوم المتعسر في منتصف

الليل تقريباً أو بعد المنتصف بقليل. ثم مضت ساعات وساعات ولا من شعاع يتسرب. وهي ليلة المحاق كما تعلمين، وقد اختفت من سمائها النجوم، فالظلمة الآن مرتع خصيب للخارجين على القانون.. آه تذكرت الآن فبالمناسبة أنت متهمة كما قال لي ضابط الأمن الماريشال.

ــ طبعاً متهمة وإلا لما جاء ليأخذني.. ولكنك لم تقل لي إذا أخذوني هل ستأتي معي؟

□ المهم إنك متهمة في قضايا خطيرة، وهم باتوا متأكدين من أن الملف السري معك.

ــ صح النوم.

□ ملف عوضين والمهدوي وعبدالناصر والقاضي والشهود.

ــ قلت لك صح النوم.

□ ماذا تقصدين؟

ــ الملف ليس معي أولاً. وثانياً هل أنت ما زلت نائماً؟ الناس في الخارج تهتف بالأسماء وتزأر وأنت هنا منشغل بجريمتي في الحصول على الملف.. أقصى عقوبة جنحة سرقة.

□ أية سرقة؟ إنها أوراق رسمية تخص أمن الدولة.

ــ اصح.. أين هو الأمن وأين هي الدولة.. ألا تشعر بكل ما جرى ويجري؟.. ثم إن الموضوع بأكمله خرج من يدي تماماً.. مارك وفلورانس أخذا نسخة من الملف ولم يفتشها أحد بالصدفة هذه المرة.. نصحي هو الآخر أخذ نسخة.. الحشود التي تسمع هديرها في الخارج بالتأكيد معها ملايين النسخ.. لم يبق الملف سراً.. لا تخف.

□ إنني خائف عليك، لا على نفسي، فقد جربت السجن والاعتقال والتعذيب.

ــ التاريخ شيء والحاضر شيء آخر، فتجاربك الماضية شيء وقرارك الآن شيء آخر.

□ ماذا تقصدين؟

ــ أقصد ألّا تخاف عليّ أو مني، فأنا سأخرج بعد قليل.

□ إلى أين؟

ــ حيث كنت طيلة أمس وأول أمس.

□ ولكن الأمور تطورت.

ــ وإذن؟

□ لا داعي للتهور والمغامرات.

ــ ولكني سأخرج.

□ غير معقول

ـ هو الأمر الوحيد المعقول

□ ولكن.. ولكني.. و..

ـ ولكنك لن تخرج معي، أليس كذلك؟

□ لا أنا ولا أنت.. لن نخرج.. هذا قراري.

ـ قرارك؟

□ ... ...

ـ أتجرؤ؟

□ إنني أحبك

ـ ... ...

□ نعم، إنني أحبك ومن واجبي أن أحميك.

ـ تحميني؟

□ نعم

ـ أنا؟

□ أنت لا تريدين أن تفهمي حقائق الموقف

ـ لست بحاجة لفهم أي شيء، لأن ما جرى ويجري لا يحتاج لغير أن نسمع ونرى، ولقد سمعت ورأيت، ماذا تريدني أن أفهم وأغبى الأغبياء إذا رأى وسمع ما جرى ويجري فلن يجد أي عناء في إدراك الأمور كأذكى الأذكياء

□ أنت تهربين من الحقيقة

ـ أية حقيقة يا رجل.. هل جننت؟

□ الحقيقة انك متهمة

ـ بسرقة الملف السري وتسريبه إلى الخارج ونشره في ملايين النسخ التي يرفعها الناس منذ أول أمس كالمشاعل والرايات.. أهذا كل ما عندك؟

□ لا

ـ نعم؟

□ لا.. ليس هذا كل ما عندي

ـ وإذن؟

□ ألم أقل لك إنني خائف عليك؟

ـ دعك من حكاية الخوف هذه وقل لي ماذا عندك؟

□ أقول لك الآن أم أنه آن الأوان لننام ساعة أو ساعتين قبل مشرق الفجر؟

ـ وإذا أقبل الفجر ونحن نيام؟
□ آه غلبتني.
ـ لا.. ليس بعد.
□ تذكرت نداء شلبية.
ـ هكذا؟
□ قالت إذا جاء الفجر والبعض نائم، فإنه لن يقوم أبداً.
ـ لا.. وقالت للقاضي يا سيدي أنت تبحث عن المجرم ولكننا نبحث عن الوطن.
□ ماذا تقصدين؟
ـ إلى متى تسألني عما أقصد، وليس ما أقصده غامضاً إلى هذا الحد؟
□ ... ...
ـ ألم تقل إنني متهمة، كما قال لك حضرة الضابط المحترم؟
□ نعم، قال لي همساً إنك
ـ نعم، إنني
□ قا.. قاتلة.
ـ ماذا؟
□ قال لي إنك قاتلة.
ـ قاتلة؟
□ نعم، قاتلة محترفة.
ـ هكذا؟
□ نعم، قال إنك أنت التي قتلت سهى ومحمود وإحسان وعازر وصديق والدك. لا تضحكي لقد قال لي ذلك.
ـ ... ...
□ وقال إنهم كانوا يراقبونك طول الوقت وأنت تظنين أنك بمنأى عن العيون.
ـ المعدنية؟
□ لا أدري، ولكنهم يملكون الأدلة، ولديهم شهود.
ـ أيضاً؟
□ نعم، فبالرغم مما قيل عن انتحار محمود أو الكلب الذي افترس إحسان والقنبلة التي نسفت عازر، وبالرغم من أن موت سهى وصديق والدك لم يكن موتاً جنائياً، إلا أنهم واثقون من أنك أنت القاتلة في جميع الحالات، ضمن شبكة إرهابية أو عصابة أو مافيا

جهنمية يمسكون الآن بكافة خيوطها، وكانوا على وشك القبض على جميع أفرادها بدءاً بك لولا ما حدث، ولم يكن يخطر على البال.

ـ عظيم، وماذا أيضاً.

□ بصراحة، يقال أن شلبية هي زعيمة العصابة، وأنك أنت ذراعها اليمنى.. وكانت الرقابة عليكما دقيقة بدقيقة طول الوقت.

ـ ولكن ألم تفهم منه أنني متهمة بالقتل أم بسرقة الملف السري؟ أم بالجريمتين معاً؟

□ ليس هذا هو المهم الآن، فالأهم أن نبحث عن وسيلة.

ـ لماذا؟

□ ليس هذا هو المهم الآن، فالأهم أن يتم ذلك على الفور دون إبطاء فليس هناك وقت.

ـ أنا لصة أم قاتلة؟

□ ليس هذا هو السؤال

ـ ماذا تريد مني؟

□ أنا أحبك، أما هم فيريدونك

ـ ماذا يريدون؟

□ يريدونك حية أو ميتة

ـ وأنت ما رأيك؟

□ أنا أحبك

ـ وبعد؟

□ أخاف عليك

ـ يا اخي انطق.. ماذا تريد؟

□ لا ضرورة للعصبية.. أنت تحتاجين لكل عصب من أعصابك

ـ يا أخي، خلصني وقل ماذا تريد؟

□ أنا أحبك، ولا أريد شيئاً، هم الذين يريدون.. يريدونك

ـ باختصار هل تريدني أن أسلم نفسي، أم انك تريد أن تسلمني بنفسك؟

□ أنت مجنونة، بلا زيادة أو نقصان

ـ شكراً، ولكنك تبحث عن حل؟

□ نعم

ـ وأنا أريد أن أساعدك

□ تساعديني؟

ــ ألست تحبني؟

□ طبعاً

ــ إذن، فمن واجبي مساعدتك، أليس كذلك؟

□ هل أنا في ورطة؟

ــ أعتقد. أم انك تراني وحدي في الورطة؟ أليست ورطتي هي ورطتك، ألست تحبني؟

□ صحيح.. صحيح.. يا لها من ورطة

ــ أرأيت.. إذن فأقبل مساعدتي

□ أنا الذي أريد مساعدتك

ــ يا أخي إفهم واعمل معروف.. كلانا يساعد الآخر.. تمام؟

□ تمام

ــ دعني أساعدك إذن.. إذا طال الليل ولم يبد في الأفق المظلم بصيص من نور الفجر سلمني بنفسك إلى الشرطة

□ هه.. هذا إذا جاءت

ــ وإذا وقعت المعجزة وأسلم الليل نفسه لمشرق الفجر فسأسلمك أنا.

□ تسلميني؟ هل أنا مجرم أو متهم؟

ــ أنسيت شلبية بهذه السرعة، يا سيدي لسنا نبحث عن المجرم.

□ أنت تهذين أو تمزحين..

ــ ربما، أما أنت

□ طال الليل وليس أمامك سوى الهرب

ــ برافو. هكذا وإلا فلا

□ أليس ذلك حلاً؟

ــ ربما، أما أنت. فماذا ستفعل إذا أنا هربت؟

□ سأدافع عنك في كل مكان.. سوف أثبت أين كنت بالضبط حين وقعت الجرائم التي يتهمونك باقترافها، سواء جرائم القتل أو سرقة الملف السري، وسأقول..

ــ ماذا ستقول وأنت كنت مسجوناً طيلة ذلك الوقت؟

□ إذا طال الليل فستتهمك فرسانه بأنك سرقت الملف السري، وإذا أشرق الفجر وما زلنا أحياء فسوف تتهمك أشعته بقتل فتحي المحلاوي والآخرين.. أنت متهمة في الحالين وما من سبيل أمامك سوى الهرب

ــ وأنت؟

□ سأبقى هنا للدفاع عنك

ـ كيف تدافع عن هاربة.. الهرب اعتراف ضمني بالجريمة.. أم أن هربي يريحك؟

□ ربما

ـ ربما، أم بالتأكيد؟

□ هربك ينقذك، وهذا يريحني

ـ أم يعفيك من..

□ من؟

ـ تسليمي

□ أنا؟

ـ أنت متعب

□ آه

ـ لن أهرب، ولكني سأخرج الآن

□ ماذا تعنين؟

ـ سأخرج فوراً، فإذا عدت وما زال الليل جاثمًا، فإنني سأبقى هنا حتى يصل الضابط المكلف باعتقالي. أما إذا بدأ الليل في الانسحاب، فإنني لن أعود

□ ولماذا تخرجين إذن والدنيا ليل؟

ـ لا بد من الخروج في جميع الأحوال، فإذا عدت، فإن ذلك يعني أن الليل ما زال جاثمًا، وحينئذٍ سأكون مستعدة للقاء الضابط. وإذا لم أعد فإن ذلك يعني أن النهار طلع وما من ضرورة لعودتي

□ إنني أحبك

ـ هذا صحيح، ولكنك مثل القاضي تبحث عن المجرم، أما أنا فواجبي أن أبحث عن شلبية

□ شلبية؟

ـ نعم، إنها الآن تلد، وتحتاج إلى مساعدتي، إنها لا تلد ليلًا، فالليل يجهضها دائمًا.. امرأة عجيبة، لا تلد في الظلام

□ إنني أحبك

ـ أعرف، ونصيحتي لك ألّا تنام هذه الليلة التي لا تريد أن تنتهي، فإذا أقبل الفجر وكنت نائمًا، فإنك لن تقوم

□ أموت؟

ـ لن تقوم

□ ولكني متعب للغاية وأشعر بغلبة النعاس تهدّ كياني كله، ثم من أدراني، فقد تطول الليلة أكثر مما نتصور

ـ نعم، قد تطول.. ولذلك سأذهب الآن، فإذا عدت لن أوقظك.. سأنتظر الضابط.. لن أوقظك حتى لا يأخذوك معي، لم يعد أمامك الآن سوى أن تختار بين النوم والموت.

□ أرجوكِ

ـ هذه هي الحقيقة

□ إنني أحبك.. صدقيني

ـ هذا حقك.. ومن حقي أن أبحث عن شلبية.. إذا اجهضت سأعود وأسلم نفسي للشرطة، وإذا ولدت فلن أعود

□ الأكثر أمناً هو أن تهربي إلى مكان ما وسنلتقي في زمن ما، لأنهم سيقبضون عليك في الليل أو في النهار، سيقبضون عليك في الحالين، صدقيني

ـ أتسمع، إنه صوت شلبية، تناديني، تصرخ، تئن، تتوجع، تتعذب، أتسمع؟ إنه صوتها المدوي هذا البرق والرعد، إنه مخاضها هذا الطوفان الملون، أتسمع؟ الجنازات والأفراح والمساجد والكنائس كلها تشعل الشموع وتصلي في الشوارع وفوق الأسطح وفي الملاجىء والمخابىء وفوق المآذن والأبراج والمنابر، أتسمع؟ إنها شلبية بلحمها ودمها، حبلت مرة أخرى، فهل ندعها تموت؟ هذه المرة قد يتسبب الإجهاض إذا حدث في موتها، فهل نتركها تموت؟ هذه هي الحقيقة، قالها الأطباء بكل لغات الأرض والسماء، إما أن تلد أو تموت، فهل تظن أنني أستطيع البقاء أو الهرب وشلبية بين الحياة والموت وجنينها بين الحياة والموت وأنا نفسي بين الحياة والموت؟ دعني، دعني أذهب فقد عشت أغلب سنوات عمري.. ماذا أقول لك.. أنت تعرف كل شيء.. أنت نفسك كنت بداية ما جرى لي، فهل أتنكر للنهاية؟ نعم أنت كنت البداية. وشلبية؟ هل تكون النهاية؟

□ □ □

تمت كتابتها في باريس ـ ٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٣

الفهـــرس

دراسات أدبية ونقدية

لغالي شكري

صادرة عن دار الطليعة

- **غادة السمان بلا أجنحة** (طبعة ثانية مزيدة)
- **سوسيولوجيا النقد العربي الحديث.**
- **محمد مندور: الناقد والمنهج.**
- **محاورات اليوم السابع.**

دراسات عن مصر في الأدب العربي الحديث.

- **مذكرات ثقافة تحتضر.**
- **ثقافتنا بين نعم ولا.**
- **من الأرشيف السري للثقافة المصرية.**
- العنقاء الجديدة.

صراع الأجيال في الأدب المعاصر.

دراسات أدبية ونقدية

● **النقد والحداثة**

د. عبد السلام المسدّي

● **الأدب والغرابة**

دراسات بنيوية في الأدب العربي

عبد الفتاح كيليطو

● **عقدة أوديب في الرواية العربية**

جورج طرابيشي

● **الرجولة وايديولوجيا الرجولة في الرواية العربية**

جورج طرابيشي

● **لعبة الحلم والواقع**

دراسة في أدب توفيق الحكيم

جورج طرابيشي (طبعة ثانية)

● **الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية**

جورج طرابيشي (طبعة ثالثة مزيدة)

● **شرق وغرب · رجولة وانوثة**

دراسة في ازمة الجنس والحضارة

في الرواية العربية

جورج طرابيشي (طبعة ثالثة)

● **الأدب من الداخل**

دراسات في أدب نوال السعداوي ، سميرة عزام ، عبد الرحمن منيف ، نجيب محفوظ ، توفيق الحكيم ، عبد السلام العجيلي ، البرتو مورافيا .

جورج طرابيشي (طبعة ثانية)

● **رمزية المرأة في الرواية العربية**

ودراسات آخرى

جورج طرابيشي

● **مساهمة في نقد النقد الأدبي**

نبيل سليمان

● **شعر الحقيقة**
دراسة في نتاج معين بسيسو
محيي الدين صبحي

● **ابطال في الصيرورة**
دراسات في الرواية العربية والمعرّبة
محيي الدين صبحي

● **رؤيا العصر الغاضب**
مقالات في الشعر
ماجد السامرائي

● **صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة**
د. واصف ابو الشباب

● **الصوت والصدى**:
دراسة في القصة السورية الحديثة
رياض عصمت

● **البطل التراجيدي في المسرح العالمي**
رياض عصمت

● **الوشم**: رواية عبد الرحمن مجيد الربيعي والقصة العراقية الحديثة ـ مع النص الكامل لرواية الوشم
ماتيلدا جالياردي (طبعة ثانية)

● **الكتابة في الزمن المتغير**
في تجربة الصحافة الثقافية
ابراهيم العريس

● **ليستيقظ الاساتذة**
دراسات في النقد
رياض فاخوري

● **الثنائية في الف ليلة وليلة**
احسان سركيس

● **مدخل الى الادب الجاهلي**
احسان سركيس

● **الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والدولة الاموية**
احسان سركيس

- **نظريات الشعر عند العرب**
  (١) الجاهلية والعصور الاسلامية
  د. مصطفى الجوزو
- **صناجة العرب الاعشى الكبير**
  د. مصطفى الجوزو
- **من الاساطير العربية والخرافات**
  د. مصطفى الجوزو (طبعة ثانية)
- **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الاول**
  د. حسين عطوان (طبعة ثانية)
- **الدرجة الصفر للكتابة**
  رولان بارت (طبعة ثانية)
- **الرواية كملحمة برجوازية**
  جورج لوكاش
- **الادب والفلسفة والوعي الطبقي**
  جورج لوكاش
- **غوته وعصره**
  جورج لوكاش
- **تولستوي فنانا**
  د. حياة شرارة
- **شيء من ييتس**
  دراسات ومختارات
  د. بديع بشروئي

٣٠٠٠/٨٥/٩٨٢